

الكتاب العربي السعودي ٩٦

محمد سعيد العامودي

من أوراق

الطبعة الأولى
١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م
جدة - المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

حضَارة بلا أخلاق

ما هي الحضارة أولاً؟

قد يقول قائل: إنها بلوغ الأمة مركزاً ممتازاً في التقدم العمراني والاقتصادي، وقد يضيف إلى ذلك، شيئاً، أو أشياء أخر.. كأن يقول مثلاً: وبلوغها أيضاً مركزاً شبيهاً بذاك في ميادين العلم والفن والثقافة والتفكير!

وظاهر أن هذا هو مبلغ فهم الكثرة الغالبة من الناس لمعنى الحضارة، فأية أمة من الأمم سارت فيها أمورها الاقتصادية والعمرانية على نسق تقدمي.. وقامت فيها دولة للعلم والأدب وارفة الظلال، وارتقى فيها التفكير وأصبح المتعلمون فيها هم السواد الأعظم.. صح أن يقال عن هذه الأمة: إنها أمة متحضرة، أو إنها في سبيل التحضر، ذلك لأن بناء حياتها الجماعية أو الفردية أصبح قائماً على دعائم ثابتة من جميع العناصر الأولية لكل حضارة من الحضارات.

والواقع أن العلم والأدب والثقافة والاقتصاد والعمران أصول لا شك فيها لكل حضارة قديمة أو حديثة، ومن العبث، ومن لغو الحديث أن يقال عن أمة ينقصها العلم، أو ينقصها الأدب: إنها أمة متحضرة، كما أنه باطل الأباطيل أن يقال عن أمة متأخرة في حياتها الاقتصادية، وليس لها أي نتاج قائم بذاته، وليس في بلادها أي مظهر من مظاهر العمران والتنسيق. إن هذه الأمة لها في الحضارة نصيب!

ولكن هل صحيح أن هذه وحدها، هي الأصول الأولى لكل حضارة؟ وهل صحيح أن مجرد كون الأمة أصبحت غنية مترفة سواء في حياتها المادية أو حياتها العقلية، يكفي –دون أي شيء آخر سواه..– لأن يعدها في مصاف المتحضرين؟!

إن الجواب على مثل هذا قد يكون عسيراً لدى أولئك الذين تعودوا –بدافع من سوء الفهم أو بدافع من التقليد– أن ينظروا إلى الحضارة على أنها مظهر مادي لا أكثر ولا أقل.. إن أولئك الذين يحملون مثل هذا التفكير الخاطئ، وأولئك الذين فتنتهم حضارة أوروبا الراهنة، بآلاتها الضخمة، ومظاهرها الساحرة الخلابة، وما يكمن وراء هذه المظاهر من إشباع لشتى أنواع الغرائز.. ثم أولئك الذين أُتيح لهم أن ينهلوا من معاهد الغرب، ويعيشوا بين ظهراني أهله زمناً طال أو قصر، أولئك جميعاً، ماذا يجيبون على مثل هذا السؤال؟

لا شك أن فريقاً متطرفاً منهم لا يتردد في أن يقول إن هذه الشروط الوحيدة لكل حضارة وهي تكفي لاكتمال معناها، وتثبيت كيانها، فلندع هذا الفريق وما يقول، فلا نظن مجرد الكلام يغني شيئاً، ولننظر إلى ما عسى أن يقوله الآخرون من أولئك الذين تعشقوا حضارة الغرب وآمنوا بمُثُلِها العليا، ولكنهم يختلفون عن الفريق الأول بالنظرة الوئيدة، وطول التفكير!

هذا الفريق المتسم بالتفكير المتشدد والأناة وعمق النظرة بالإضافة إلى سواه من رجال العلم والبحث والفكر، سواء كانوا قدامى أو محدثين، شرقيين أو غربيين، هؤلاء جميعاً يتفقون في أن الحضارة –ونحن نعني كل حضارة بالطبع– لا تكمل بتلك العناصر وحدها وإلاّ أصبح معنى الحضارة شيئاً قميناً بكل زراية.. لا بد للحضارة إذن من عنصر آخر يضم إلى كل هذه العناصر، بل الأحرى بهذا العنصر أن يكون بالنسبة إلى بقية العناصر: عنصرها الأساسي، لأنه العنصر الأقوى والأكمل والأهم.. ولأن وجوده بمثابة وجود الروح مع الجسد، لا بد إذن من وجود هذا العضو الأساسي، لكي يبعث فيها الحيوية، وينقّي فيها الدم، ويدعم فيها الأسس، ويركز فيها الجهود ويحقق من وجودها غاية الإنسان المثلى، وسعادة الفرد وسعادة الجماعة، وأهداف الحق والخير والجمال.

ونحن إذا قلنا إن "الأخلاق" هي العنصر الأساسي لكل حضارة عليها يجب أن تقوم، وعلى ضوئها يجب أن تسير، فإنما نقول هذا، ويقوله معظم الناس، لأن التاريخ وسنن الاجتماع قد أثبتا بصورة جلية أن كل حضارة من الحضارات القديمة، وفي طليعتها الحضارتان اليونانية والرومانية إنما كان أول عوامل انهيارها: "انهيار الأخلاق!"

وأول ما تتمثل الأخلاق في الصدق والشجاعة والصراحة والوفاء بالعهد ومراعاة حقوق الغير، واحترام الآخرين.

وما من شك في أننا إذا نظرنا بهذا المنظار إلى حضارة الإسلام في عصرها الذهبي، وجدنا أن هذه الأخلاق السامية جميعها هي ما كان يتسم به بناة هذه الحضارة في عصور ازدهارها، ثم إذا ارتقينا إلى عصر صدر الإسلام وجدنا هناك المثل الأعلى في التحلي بهذه الأخلاق! وفي تاريخ عصر النبوة، وعصر الخلفاء الراشدين أبلغ الشواهد على إثبات هذه الحقيقة الساطعة وهو ما لا يختلف فيه اثنان، أو يجادل فيه إنسان.

وثمة حضارات قديمة ووسيطة.. حضارات قضى عليها جميعها بلا شك فساد الأخلاق، بل حتى الحضارة الإسلامية نفسها ما خرجت عن هذا القانون، وإنه من المؤسف أن نقول: إن حضارة المسلمين قضى عليها الفساد الخلقي أيضاً، وهو ما كان نتيجة لضعف الروح الدينية، وتفشي الاختلاف والتفرق في أواخر عهود هذه الحضارة، ولكنا لا نبعد إذا قلنا إن قسطاً وفيراً من هذا الانحطاط وهذا الفساد في الأخلاق إنما يعود إلى العناصر الدخيلة على المسلمين، أو بعبارة أصح: العناصر الدخيلة على العرب الذين كانوا قبل اختلاطهم بتلك العناصر أقوى ما يكونون من ناحية الأخلاق!

والآن –ونحن نعيش في عصر الحضارة الغربية، وهي حضارة حازت أكبر تقدم في كافة ميادين العلم والفن والثقافة والاقتصاد، وهذا طبيعي كنتيجة للنهضة الفكرية الشاملة، وتطور الحياة

والزمن– الآن ونحن نعيش في عصر حضارة أوروبا العلمية والصناعية، وقد شاهدنا كيف أنها بلغت الذروة في أساليبها التنظيمية، وفي مجدها العلمي، بعد أن تم لها أن تحطم الذرة.

الآن ونحن نعيش في عصر أحدث الحضارات –كما هو الواقع– وأرقاها كما يقولون.. فقد حق لنا أن نتساءل: ما هو نصيب الأخلاق من هذه الحضارة يا ترى؟!

إذا أردنا أن نستوحي الإجابة على هذا السؤال من أعمال أساتيذ الجامعات في أوروبا، وأمريكا، ومن سلوك وآداب كبار رجال الفكر فيها ومن غيرهم.. وغيرهم من الأحرار، ودعاة الإصلاح الاجتماعي، والسلام العالمي، وجدنا أن الأخلاق تحتل –ولا جدال– في هذه الحضارة مكانها الرحيب!

ولكنا إذا أردنا أن نستوحي نفس هذه الإجابة من سلوك رجال آخرين.. رجال يمثلون الأغلبية الساحقة في المجتمعات الأوروبية والأمريكية، وحسبك أن في مقدمتهم بعض كبار الساسة والزعماء والحكّام العسكريين، وكبار أصحاب الشركات ورجال المال والاقتصاد، والكتاب والباحثين ومحرري الصحف، وأعضاء البرلمانات وغيرهم من أفراد الطبقات العليا والوسطى.. إذا أردنا أن نستوحي الإجابة على سؤالنا من أعمال كل هؤلاء، وجدنا –مع مزيد من الأسف– أن الأخلاق وبالأخص أنواعها التي أشرنا إليها آنفاً تكاد تكون مفقودة.. وأحسب أن هذا لم يعد أمراً مبهماً أو غامضاً، أو يحتاج إلى طول مراجعة، وطول تفكير!

إن العنصر الأخلاقي مفقود في حضارة اليوم، وهذا لم يعد فيه شك، وهذا ما أصبح يشكو منه عقلاء الأوروبيين والأمريكيين أنفسهم، ونحن نسأل: أليس هذا الفقدان جديراً بأن يكون في طليعة أسباب الحروب العالمية المتتابعة، وما يراه العالم على الدوام من تلبد الجو، وتوالي الأحداث والخطوب، ووقوع الأمم جميعاً فريسة لهذه الحروب وما يتبعها من ذيول؟!

أين العنصر الأخلاقي في هذه الحضارة، وقد أصبح الصدق معدوماً فيها، والوفاء بالعهود ليس له وجود، ومراعاة حقوق الإنسان أو مراعاة حقوق الشعوب في إعطائها حرياتها، أصبحت

من الأمور المستحيلة.. ومن المخزي –ولا سيما وأنه لا يتفق مع الأخلاق– أن أكثر الشعوب تراعي حقوقها قولاً فقط.. وفي وقت الشدائد والأزمات.. حتى إذا جاء وقت الفعل والتنفيذ بعد أن تنقشع السحب، ويصفو الجو وتذهب الشدائد ويرتفع كابوس الأزمات.. إذا بكل ما قيل يصبح أسطورة.. وإذا بكل ما وعدت به الشعوب يتبخر مع الريح، كأن لا قيمة للأقوال مطلقاً، ولا قيمة للوعود والعهود مطلقاً، ولا قيمة لأي معنى من معاني الأخلاق!

أين العنصر الأخلاقي في حضارة اليوم، وهي لا تزال تئن في نفس مواطنها من جور تحكم الطبقات وطغيان الرأسمالية، ودسائس رجال الأحزاب، وألاعيب السياسيين المحترفين، ولا تنس بعد هذا ما عرف عن هذه الحضارة من إباحتها للإباحية.. واستهتارها بالاستهتار.. إلى آخر ما هنالك مما يجوز ذكره هنا وما لا يجوز!..

وقصة هذه الحضارة مع الشرق معروف أمرها.. إنها قصة الاستعمار بل هي قصة التحكم بالغصب، وإذلال الشرقيين، واستغلال خيرات بلدانهم، ولا تزال هذه القصة إلى الآن على المسرح، ولما ينته فصلها الأخير!..

أين العنصر الأخلاقي من حضارة اليوم، وقد رأى العالم في قضية فلسطين أشنع الأمثلة على التفسخ الأخلاقي "واللامبالاة" بأي حق أو أي إنصاف أو أي عرف أو أي قانون؟!

الحق أن حضارة اليوم قد أثبتت فعلاً تجردها التام من أهم العناصر الأساسية اللازمة لبناء كل حضارة في الوجود.. إنها حضارة بلا أخلاق.. ولسنا في هذا نتجنى عليها، فهل يعيد التاريخ نفسه، لكي يرى الناس مصيراً لهذه الحضارة شبيهاً بالمصير الذي آلت إليه كل حضارة من هذا النوع قضي عليها أن تنهار بأسباب فقرها إلى العنصر الأخلاقي؟!

التبشير والمبشِرون

انظر إلى أي بلد من بلدان العالم الإسلامي الآن، وابحث عن أحوالها مستقصياً متعمقاً، واقرأ في صحفها ومجلاتها –إن كان لها صحف أو مجلات– واسأل عنها من يتاح لك أن تجتمع به من أبنائها أو من تصادفه من الرحالين والروّاد الذين سبق لهم المرور بها وملاحظة أحوالها. انظر إلى أي بلدة من هذه البلدان في عهدنا الحاضر تجد أنها منكوبة (مع الأسف) بألوان عديدة من النكبات المحلية، منها ما هو سياسي ومنها ما هو اقتصادي ومنها ما هو اجتماعي ومنها ما هو غير ذلك.. وانظر أيضاً تجد أن من ضمن هذه النكبات التي منيت بها وأصبحت تعاني شرورها هذا الشيء الذي يسمونه التبشير.

وهذه الجماعات الكثيرة العاملة بجد ونشاط لا مزيد عليهما، والسائرة في طريقها بدأب واجتهاد وثبات فوق ما يتصوره العقل ونعني بها جماعات المبشرين.

التبشير والمبشرون نكبة عظيمة من نكبات العالم الإسلامي في هذا الزمن الأخير ولسنا نقصد بقولنا هذا أن ثمت نجاحاً عظيماً لقيه التبشير أو يلقاه في أي بلد من البلدان الإسلامية أو أن هناك عملاً كبيراً استطاع أداءه المبشرون أو يستطيعون أداءه –لا سمح الله– كلا.. لا نقصد ذلك ولا نعنيه فإن حوادث المبشرين المتوالية وسلسلة فضائحهم التي ظهرت وما فتئت تظهر أمام الناس أجمعين، كل ذلك قد أظهر بأفصح بيان وأسطع برهان أن (خُفَّي حُنين) هما وحدهما نصيب التبشير والمبشرين، كل ذلك قد أثبت جلياً أنه من المحال أن يتأثر أحدٌ من المسلمين بأي مؤثر من المؤثرات، أو أن تسيطر عليه أية دعاية سيئة من أمثال هذه الدعايات.

ولكن ما نعنيه بقولنا (نكبة التبشير والمبشرين) إنما هو الذي نراه من تقاعس العالم الإسلامي، واستمراره على هذا الموقف السلبي بإزاء التبشير والمبشرين ما نعنيه إنما هو هذا الموقف المزري: موقف الجمود والخنوع والاستسلام وعدم الاكتراث بما يعمله هؤلاء المبشرون بين ظهرانيهم من

أعمال وما ينشرونه من مختلف الدعايات عن ديننا الإسلامي وما يحاولونه من محاولات مستمرة في سبيل الوصول إلى غاياتهم المعلومة..

للمبشرين جمعيات كثيرة منتشرة في كل بقعة إسلامية تقريباً، وللمبشرين مدارس وملاجئ ينشئونها هناك باسم العلم وباسم الثقافة وباسم التهذيب.. ولكن سرعان ما يفتضح أمرها وتظهر حقيقتها للملأ، ويتضح للناس أنها إنما أُنشئت للتبشير وحده وليس للعلم أو للثقافة وللتهذيب.

وللمبشرين –عدا ذلك– صحف ومجلات ونشرات ولهم كتب يطبعونها وينشرونها على أنها كتب في اللغة والأدب أو العلم أو التاريخ أو غير ذلك.. ثم لا تحوي بين مضامينها إلاّ تلك السموم التبشيرية الفتّاكة. كل ذلك يقوم به المبشرون –ويقومون به على مرأى ومسمع– والمسلمون لاهون نائمون لا يعملون ولا يتكلمون. كأنهم لا يحسون بكل هذه الشرور ولا يشعرون!

ومن هنا –ومن هنا فقط– يصح لنا أن نقول عن التبشير بأنه نكبة وأي نكبة، أجل إننا إذا نظرنا من هذه الناحية وجدناه نكبة حقيقية قد تفوق سواها من النكبات الأخرى، وقد تكون بعض هذه النكبات أو جلها (وقتية) تزول آثارها بزوال الأسباب التي دعت إليها، والظروف التي أحاطت بها. ولكن يا للهول!! إن نكبة التبشير إذا قدر لها –لا سمح الله– أن تنجح ولو قليلاً فلا يمكن أن يقال إن آثار هذا النجاح ستكون –شأنها كشأن غيرها– من الآثار الوقتية الزائلة.

إن الواجب يقضي بأن يتنبه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها إلى هذا الداء العضال ويجتهدوا في أن يستأصلوا شأفته، الواجب يقضي بأن يناوئ المسلمون كل هذه الحركات، وكل هذه الدعايات، وكل هذه المحاولات، يناوئونها بنفس الأسلحة، ويرسمون لهذه المناوأة عين الخطة التي رسمها المبشرون، فبالمدارس والملاجئ الإسلامية يكثر المسلمون من إنشائها في بلادهم ويمنعون أبناءهم من الدخول في سواها، وبالمجلات والصحف وسائر أنواع المطبوعات يستطيع المسلمون –إذا أحسنوا الانتفاع من كل ذلك– أن يقضوا القضاء النهائي على هذا الشر

المســـتطير وفي الوقت نفســـه يكون كل ما ذكر كدعاية عظيمة حســـنة لها آثارها، ولها نتائجها وفوائدها للإسلام والمسلمين ولمستقبل الإسلام ومستقبل المسلمين.

إن الخطر من التبشير والمبشرين عظيم جداً، إذا ما ترك وشأنه وقوبل بمثل هذا الإهمال وعدم الاكتراث فليكن العمل عظيماً جداً أيضاً في سبيل التصدي له ومناوأته والقضاء عليه . [1]

[1] - جريدة صوت الحجاز، العدد 64-1352/3/11هـ .

عن الغزو الفكري

موضـوع الغزو الفكري للبلاد العربية ليس موضـوعاً جديداً يحتاج إلى بيان! إنه موضـوع قديم تصـــدى له كبار المفكرين الإســـلاميين منذ بدأت آثاره تظهر للعيان في مختلف أرجاء الوطن الإسلامي، وخاصة في بلدانهم التي مُنيت باستعمار الغرب منذ ما يقرب من مائتي عام. وما يزال المفكرون إلى اليوم يتناولون هذا الموضـــوع ســـواء عن طريق ما يخرجونه من الكتب أو عن طريق محاضراتهم ومقالاتهم وبحوثهم في الصحف والمجلات.

وها نحن نرى صـحيفة "البلاد" تتابع هذه الأيام مشـكورةً نشـر آراء كبار الباحثين حول هذا الموضـوع. والحق أن ما قرأناه حتى الآن في صـحيفة "البلاد" قد أحاط بالموضـوع كل الإحاطة، فهؤلاء الســـادة الأفاضـــل، وهم نخبة العلماء والكتّاب في بلادنا، لم يدعوا مقالاً لقائل. لقد استوفوا موضوع الغزو الفكري كل الاستيفاء وتطرقوا لمسائله من كافة نواحيه.

والواقع أن الغزو الفكري الاســتعماري لبلاد المســـلمين هو من أخطر الأســـلحة في محاربة الإسلام والمسلمين.

لقد تنبه سـاسـة الاسـتعمار ودهاقينه وفلاسـفته منذ أول يوم تمكنوا فيه من اسـتيلائهم على أقطار العالم الإسلامي –تنبهوا إلى هذه الحقيقة– وهي أن استعمارهم السياسي والعسكري لتلك الأقطار لا يمكن أن يحقق لهم غرضـهم البعيد –وهو القضـاء نهائياً على الإسـلام– ما لم يعملوا بكل الوسـائل الممكنة لإقصـاء المسـلمين عن دينهم، عن عقيدتهم وشـريعتهم وثقافتهم، وبذلك يضـــمنون لأنفســـهم الإبقاء على ســـيطرتهم ونفوذهم في البلاد الإســـلامية حتى ولو زال عنها استعمارهم العسكري.

وفي هذا السـبيل صـنعوا الأعاجيب. وكان أول ما تمخضـت عنه سـياسـتهم هذه هو إلغاء الأحكام الشرعية في المحاكم وإبدال القوانين الوضعية بها.

الشيء الثاني وهو لا يقل خطورةً عن الأول: إفسادهم للتعليم بما غيروا وبدلوا فيه من برامج وأساليب، وأهم نقطة في هذا التغيير والتبديل أنهم جعلوا التعليم العام "علمانياً" أي (لا دينياً) وبذلك نفذوا أهم الأهداف السياسية الغزو. وهي العمل المستمر الدائب على تنشئة الأجيال الجديدة من أبناء المسلمين على منهج جديد: منهج غربي بحت ليس فيه من معنى الإسلام سوى الاسم، وبذلك استطاعوا أن يجعلوا الكثيرين من هؤلاء المتخرجين من مدارسهم مؤمنين بهم.. مقلدين لهم.. ومنهم مع الأسف من استمرأوا أن يكونوا أتباعاً للمستعمرين.. ثم هناك أشياء أخرى كثيرة معروفة.. جلبها الاستعمار ضمن منهاجه في الغزو مما كانت نتيجته هذا الذي نشهده اليوم في أكثر البلاد الإسلامية من مظاهر الضعف والتخلف في كل ميدان.. ثم هذا الذي نلاحظه من انحراف الشباب إلاّ من رحم ربك..

وأخيراً وليس آخراً: هذا الذي نراه الآن من ترويج لمذاهب مستوردة هدامة.. ومن دعوة للجنس، وتركيز على الاختلاط، إلى آخر ما هناك مما لا يحتاج إلى إشارة.. واستطاع الاستعمار أن يجعل من جميع وسائل الإعلام أدوات فعّالة يستخدمها في التأثير على عقول الناس واستطاع أن يجعل من عملائه الكثيرين منفذين ناجحين لمخططه الرهيب.

ومن المعروف أن للصهيونية العالمية في هذا المجال: مجال الغزو الفكري الاستعماري دورها الكبير، وليس عجيباً أن يكون لليهود دورهم التخريبي في هذا المجال وهم الذين أخذوا على أنفسهم منذ عهودهم الطويلة أن ينشروا الفساد في الأرض.

ولا أنسى أن أخص التبشير بالذكر هنا، وما تبذله دوائر الاستعمار في الغرب من أموال طائلة تفوق الحصر لا من أجل نشر المسيحية فقط كما يزعمون، وإنما من أجل إبعاد المسلمين عن عقيدتهم في المقام الأول إذا استعصى عليهم أن يحيلوهم إلى نصارى.

وفي هذا يقول كبير المبشرين "زويمر": "ليس غرض التبشير إخراج المسلمين من دينهم ليكونوا مسيحيين.. إن المسلم لا يمكن أن يكون مسيحياً مطلقاً.. ولكن الغاية هي إخراج المسلم من الإسلام فقط."

ولا أنسى أيضاً دوائر الاستشراق وما أخذته على عاتقها من تشويه دنيء لمحاسن الإسلام ومن تعريضهم بالرسول صلوات الله وسلامه عليه، ومن تحريفاتهم للمعاني القرآنية بطرق ملتوية، إن قلنا إنها تدل على الفهم السقيم.. فهي من غير شك تدل أكثر.. على سوء النية وعلى رغبة متعمدة في التشويه لمجرد التشويه. وكم أدخلوا من شبهات على الإسلام، وكم أذاعوا من ترهات وسفسطات رد عليها ودحضها بأوضح أسلوب كتابنا الإسلاميون، والكثيرون منا يذكرون في هذا الصدد ما كتبه الإمام محمد عبده ومحمد رشيد رضا ومحمد فريد وجدي، ثم سيد قطب ومحمد قطب والمودودي والندوي.

وهؤلاء المستشرقون والمبشرون، حينما نراهم يتعرضون للقرآن الكريم في محاولة منهم فاشلة لإضعاف أثره المضيء في النفوس، فهم إنما يفعلون ذلك لأنهم يرون القرآن هو كل شيء في حياة المسلمين: عنه يصدرون وإليه يثوبون ومنه يستمدون الهدى، وعلى أساس من شريعته الوهاجة يقيمون بناء حياتهم، سواء في مجال العقيدة أو مجال الحكم أو مجالات العلاقات الاجتماعية أو مجال الأخلاق.

ولم ينكر المستعمرون موقفهم العدائي الحاقد هذا من القرآن.. فهذا واحد منهم وهو "غلادستون"، رئيس وزراء بريطانيا في أواخر القرن التاسع عشر، يقول بكل تبجح وهو يحمل في يده المصحف أمام أعضاء مجلس العموم: "ما دام هذا الكتاب باقياً في الأرض فلا أمل في إخضاع المسلمين."

وهذه كلمة حق.. لا شـــك في ذلك، قالها هذا الاســـتعماري الشـــهير.. بالرغم من أنه قالها بدافع من حقده الصـــليبي الدفين، ولغرض ســـيئ هو الحث على المزيد من التحدي، والمزيد من محاربة الإسلام ومحاربة القرآن.. تنفيذاً لبرنامج الغزو الاستعماري الفكري.

هذه هي أهم الوسـائل التي ما فتئ الاسـتعمار يمارسـها إلى اليوم في ميدان تحديه للإسـلام.. والعلاج لم يعد خافياً بعد أن بحثه علماؤنا وكتّابنا.. العلاج معروف وهو وجوب مقاومة هذا الغزو بكل الطرق والوسائل الإيجابية الفعّالة دون هوادة ودون توان.

وليس من شك في أن أول ما يجب الاهتمام به هو قضية التعليم وإعادة بنائه من جديد على أساس من التربية الإسلامية.

وهذا عمل كبير يحتاج إلى جهود وإلى زمن، ويحتاج قبل كل شيء إلى أن يتوحد حوله الرأي في جميع البلاد الإسـلامية، فما لم يتفق على ذلك كل المسـلمين وكل حكوماتهم ثم يخرجوه من حيز القول إلى حيز العمل والتطبيق بكل عزم وبكل صـدق وإخلاص.. فسـوف تبقى المشـكلة قائمة لزمن أطول وهذا هو ما نخشاه.

ولعلّه مما يدعو إلى الأمل أن نرى الندوات أخذت تتابع انعقادها من أجل هذا الغرض وهي تضـــم النخبة من الرجال المصـــلحين وغيرهم من خبراء التربية والتعليم في مختلف العواصـــم الإسلامية.

وقد كانت آخر ندوة إسلامية عقدت في المدينة المنورة في شهر شوال 1392هـ.

ومن الحق أن نقول: إن ما توصـلت إليه هذه الندوة من نتائج وقرارات يبشـر بكل خير. كما كانت ندوة الشباب العالمية للدعوة الإسلامية التي انعقدت في الرياض بدعوة من وزارة المعارف بتوجيه من جلالة الملك فيصل خطوة بناءة أخرى في هذا السبيل.

ولن أطيل في هذا الموضوع ولن أتعرض لباقي الأمور من كل ما له علاقة بقضية الغزو الفكري ويعرفه الجميع، وأشـــرت إلى بعضـــه آنفاً. لن أطيل في ذلك لأني أؤمن أشـــد الإيمان بأن حجر

الأســاس فيما يحاوله المســلمون الآن من مقاومة لهذا الغزو إنما هو إصــلاح التربية والتعليم أولاً وقبل كل شيء.. والعودة بهما إلى المنهج الإسلامي.

ولا أعني بذلك إهمال الأمور الأخرى وإنما أعني أن نولي عنايتنا أكثر بالتربية والتعليم، فالتربية والتعليم هما الأساس، ومتى صلح الأساس وبدأ قوياً كان ضمان النجاح لمسيرتنا كلها في هذا الطريق مؤكداً بإذن الله . [2]

(2) - عدد البلاد الأسبوعي 2 ذي الحجة 1392هـ .

برنارد شو . . ورأيه في الإسلام

أكتبُ كتَّاب الإنجليز في العصـــر الحاضـــر، وزعيم الأدب الســـاخر بإجماع الناقدين، نزعته الاشـــتراكية صـــبغت معظم كتاباته بأعنف ما عرف من الحملات القلمية على النزعة الفردية أو النزعة الرأسمالية.

صـــراحته البالغة حد التطرف واعتداده بالذات وولعه الدائم بالمفارقات كل هذه العوامل كان من شـــأنها أن تطبع آثاره الأدبية بطابع خاص يمتاز، في مقدمة ما يمتاز به، بالرأي الطليق يرســـله إرسالاً في بساطة وارتجال، وفي أسلوب من أساليب الفكاهة المرة أو السخرية اللاذعة. هذا إلى تفاؤل عجيب عرف به هذا الكاتب الساخر يتسامى به كل التسامي عن نزعات المتشائمين.

فهو يقول عن المتشائم: "إنه رجل يعتقد أن الناس خبثاء مثله ويمقتهم من أجل ذلك."

ومن أشـــهر ما عرف الناس به "شـــو" أنه خصـــم لدود في عالم الأدب لمذهب "الفن للفن" المذهب الأدبي المعروف، المذهب الذي خفت صوته اليوم أمام تيارات الأدب الجديدة التي تكاد تجمع كلها على وجوب أن يكون الإصلاح من غايات الفنون!

والحق أن برنارد شـــو –كما كان تولســـتوي من قبله– من أكبر زعماء هذه النظرية، نظرية أن يكون الفن واقعياً.. متصلاً بالحياة.. ومتفقاً مع الأخلاق.. وبالتالي أن تكون له غايات إصلاحية وأهداف اجتماعية تسير مع التقدم الإنساني سواء بسواء.

وفي سبيل دفاعه عن هذه الفكرة لم يتردد في أن يحمل في صراحته الساخرة المعهودة على من يعتبره الإنجليز أكبر شـــعرائهم على الإطلاق.. أجل على شـــكســـبير الذي يفاخرون به العالم، شكسبير الذي قال عنه كارليل في القرن التاسع عشر أنهم يختارونه على الهند فيما لو سئلوا أن يختاروا بين الاثنين.

شكسبير ذو الروائع الخالدة يحمل عليه برنارد شو بأقسى ما عرف عنه من الشدة والعنف وهو في حملته هذه إنما يحمل في الصميم على نظرية (الفن للفن) التي كان شكسبير علماً من أعلامها.

إن كتابات "شو" رغماً عن أسلوبها الفكه، وعما يبدو فيها من المفارقات، تدل على معرفة أصيلة بطبائع الناس وروح الاجتماع ونفسية الجماهير.

فهو يقول في كيفية معاملة الناس: "لا تعمل لغيرك ما يجب أن يعمل لك فربما اختلفت الأذواق."

ويقول في معنى آخر "لا يحفظ سر بين الناس كالسر الذي يستطيع جميع الناس أن يخمنوه."

ويقول: "ليس بلاء الكاذب أن أحداً من الناس لا يصدقه.. وإنما بلاؤه أنه لا يصدق أحداً من الناس."

ويقول –وما أعمق ما يقول: "كلما زاد عدد الأمور التي يخجل منها الإنسان، زاد نصيبه من الاحترام."

ويقول: "الرجل المعقول يوفق بين نفسه وبين العالم.. والرجل غير المعقول يحاول أن يوفق بين العالم وبين نفسه.. ومن ثم كان كل تقدم في هذا مرهوناً بغير المعقولين."

ولعلّ من أبلغ أقواله التي تشير إلى ما يجب على الفرد أن يؤديه نحو غيره من الأفراد، أو نحو المجتمع الذي يعيش فيه، حتى يمكن أن يكون جديراً بما يناله من سعادة هو هذا القول: "لا حق لنا في استهلاك السعادة بغير إنتاجها، إلاّ كحقنا في استهلاك الثروة بغير إنتاج."

هذا هو برنارد شو أكتب الكاتبين في العصر الحديث، وإمام السخرية والساخرين والذي احتفلت بلاده به، بل احتفلت به أوروبا جميعها، بمناسبة بلوغه سن التسعين. ومن واجبنا أن نشير هنا –وهو ما دعانا إلى كتابة هذا الفصل– إلى ما أذاعه هذا الكاتب في وقت من الأوقات عن رأيه في الإسلام، وهو رأي عميق يدل على بعد نظر وعدم ميل إلى التحيز. وليس لهذا الرأي

أهميته لأنه يشـهد للإسـلام بمزايا جديدة أو غير معروفة، وإنما أهميته لصـدوره من كاتب أوروبي يساري متطرف جريء لا يبالي المعارضة، مهما كانت عنيفة، في سبيل إعلان ما يعتقده من رأي، ومتى عرفنا أنه كان خارجاً على إجماع أمته في الحربين العالميتين لأنه كان ينادي بعدم الدخول في الحرب، عرفنا وجه الأهمية في كل ما يقول، وبالتالي عرفنا أن رأيه في الإسـلام، إنما هو من وحي تفكيره الخالص، وليس هو من وحي السـياسـة، وهي كثيراً ما توحي إلى أكابر الكتّاب هناك بأن يذيعوا للناس أمثال هذه الآراء، تخديراً للأعصاب وتضليلاً للأفهام، للوصول إلى تحقيق ما يريده الاستعمار من أقصر طريق.

والآن هذا ما يقوله عن الإسلام هذا الكاتب الكبير: "لقد وضعت دائماً دين محمد صلى الله عليه وسلم موضع الاعتبار السامي بسبب حيويته المدهشة، فهو الدين الوحيد الذي يلوح لي أنه حائز أهلية الهضـم لأطوار الحياة المختلفة بحيث يسـتطيع أن يكون جذاباً لكل جيل من الناس."

"لا مشاحة في أن العالم يعلق أهمية كبيرة على نبوءات كبار الرجال ولقد تنبأت بأن دين محمد سيكون مقبولاً لدى أوروبا غداً. وقد بدأ يكون مقبولاً لديها اليوم.. وقد صور رجال إكليروس القرون الوسطى الإسلام بأحلك الألوان إما بسبب الجهل وإما بسبب التعصب الذميم."

"لقد أدرك في العهد الأخير مفكرون مخلصـون أمثال كارليل وجوته وجيبون، القيمة الذاتية لهذا الدين المحمدي، وهكذا وجد تحول حسـن في موقف أوروبا من الإسـلام.. ولكن أوروبا في القرن الراهن تقدمت في هذا السـبيل كثيراً فبدأت تعشـق عقيدة محمد، وفي القرن التالي ربما تذهب إلى أبعد من ذلك.. فتعترف بفائدة هذه العقيدة في حل مشاكلها."

إلى أن يقول: "بهذه الروح يجب أن تفهموا نبوءتي، وفي الوقت الحاضر، كثيرون من أبناء قومي ومن أهل أوروبا قد دخلوا في دين محمد. حتى ليمكن القول إن تحول أوروبا إلى الإســـلام قد بدأ. [3] "

([3]) - البلاد السعودية العدد 713 في 1367/6/19هـ .

دور المسلمينَ في بناء المدنية الغربية

ربما يأخذ العجب مأخذه لدى بعض القارئين حينما يرون أن من بين الباحثين –هنا وهناك– من يؤلفون الكتب، ويضعون الرسائل يتحدثون فيها عن حضارة الإسلام في عهد ازدهارها وبالتالي يتحدثون عن الدور الذي قام به المسلمون في بناء المدنية الغربية!

وقد يتساءل هذا البعض: أصحيح أن المسلمين لهم دورهم في بناء هذه المدنية؟

والواقع أن الكثرة من أبناء العروبة والإسلام –كما يبدو– ليسوا على إلمام مع الأسف بحقيقة تاريخهم.. أو بحقيقة حضارتهم الإسلامية، فضلاً عما كان لهذه الحضارة من دور ملحوظ –لا ينكره الغربيون أنفسهم– في بناء مدنيتهم!

فلا بدع أن نحس بالكثير من الغبطة إذ نقرأ هذه الرسالة الوجيزة للباحث المفكر المسلم الأستاذ "حيدر بامات" يحدثنا فيها عن منجزات الحضارة الإسلامية وأثرها في مدنية اليوم.

ونحن –بلا شك– نغتبط أكثر عندما نقرأ قولاً لباحث عربي مسيحي يشهد به للعرب المسلمين بأنه لم يساهم شعب من شعوب الأرض بقدر ما ساهموا في التقدم البشري.

إنها شهادة "دكتور فيليب حتي" يوردها كاتب هذه الرسالة الأستاذ "بامات" ويعقب عليها بقوله: بأنه لكي نحصل على صورة واضحة للحضارة الإسلامية، لا بد لنا من أن نذكر أن هذه الحضارة لم يصنعها العرب وحدهم.. فلقد كانت هذه الحضارة، وستظل أبداً ثمرة جهود شعوب كثيرة، متباينة الأجناس واللغات، ولكن الإسلام قد صاغها في وحدة روحية، وخلق منها مجتمعاً يحلق فوق حدود القوميات!

وليس من شك في أن هذا هو واقع حضارتنا الإسلامية.

وكما أن "الوحدة الروحية" –كما يقول الكاتب– إنما ترد إلى الإسلام.. الذي يقوم على التوحيد المطلق، والذي اشتقت منه قوانين "المدنية المسلمة" والذي ينظم حياة المؤمنين العامة والخاصة. فكذلك هذه الوحدة الروحية مدينة بالكثير إلى سحر اللغة العربية وروعتها.

بل إننا لنرى الكاتب يمضي يتحدث عن اللغة العربية في عبارات تنم عن شديد إعجابه بها، منوّهاً بالدور التكويني الحاسم الذي لعبته اللغة العربية في خلق الفرد المسلم الذي نشأ في بوتقة الإسلام.. هذه اللغة الرائعة ذات الإعجاز العجيب، والجزالة المثيرة.. والتي ظلت مئات السنين،

كاللاتينية في العالم المسيحي خلال القرون الوسطى، لغة التخاطب بين جميع الشعوب الإسلامية، فوق أنها لغة العلوم والآداب.

أما كلمة الصلاة -يقول بامات- فقد تركت العربية أثراً عميقاً في جميع لغات الفئات التي يتكوّن منها المجتمع الإسلامي!

ويقول أيضاً: وقد بلغ تفوقها على غيرها من اللغات في الوقت الذي بلغت فيه الحضارة الإسلامية قمتها حداً يجعلنا نوافق "فيليب حتي" على ما ذهب إليه من أن كل فرد في الإمبراطورية الإسلامية اعتنق الإسلام وتكلم بالعربية، كان ينظر إليه على أنه عربي.

والطريف أن هذا الذي يقوله "بامات" عن رأي (فيليب حتي) نجد أكثر الباحثين اليوم يكادون يتفقون في توكيده.. عندما يقولون في تعريفهم للعربي بأنه: كل فرد اختار العروبة وتكلم بالعربية.

ومن رأي "بامات" أن الخلفاء الأمويين كانوا أول من عمل على تطوير الحضارة الإسلامية.

على أن حكم الأمويين -كما يقرر- لم يكن في حقيقته سوى مرحلة نحو النضوج بالنسبة للحضارة الإسلامية.. ولكن هذه الحضارة بلغت أوجها -من غير منازع- في عهد الخلفاء العباسيين في بغداد (750- 1258م)، وفي عهد الأمويين في الأندلس (755-1492م) وإلى هذا يشير "غوستاف لوبون" حين يقول: (في الوقت الذي كانت فيه أوروبا غارقة في أظلم عصور الهمجية كانت بغداد وقرطبة -وهما المدينتان اللتان سيطر عليهما حكم الإسلام- مركزي الحضارة البشرية تشعان على العالم كله بوهج العلوم والفنون).

ويرى "بامات" كذلك أن تأسيس بيت الحكمة في بغداد في عصر الخليفة المأمون (813-833م) كان من أبرز الحوادث في العصور الوسطى.. ويمضي إلى أن يقول: كانت دار الحكمة بمثابة حجر الزاوية في تكوين مدرسة بغداد التي قيض لها أن تفرض تأثيرها حتى نهاية النصف الثاني من القرن الخامس عشر.. وإلى هذه المدرسة يرجع الفضل في تأمين استمرار الحضارة بوصل ما انقطع من سلسلة المعرفة الإنسانية بسبب انحطاط وسقوط روما في القرن السادس.

ويواصل الكاتب حديثه عن دار الحكمة وأثرها في إنقاذ المعارف القديمة والحفاظ عليها.. ثم عن أثرها بما أحدثته من إضافات جديدة مبتكرة في جميع فروع العلم، وكذلك باكتشافات لا حصر لها في مجال العلوم التطبيقية.. إلى أن يقف بنا عند النقطة الرئيسية من الحديث، وهي:

البحث عن كيفية انتقال الحضارة الإسلامية إلى الغرب.. وهنا يتساءل: متى وصلت الحضارة الإسلامية إلى أوروبا؟ وما الطرق التي سلكتها؟

هل الصليبيون هم أول من قاموا بإحداث التبادل الثقافي بين الشرق والغرب.. كما هو الوهم الشائع؟ من الجدير بالنظر أن الكاتب يدحض هذا الوهم بأدلة لا تقبل النقض.. ونرى أن من أخطر أدلته التي يذكرها، هو أن الحروب الصليبية أوجدت هوة واسعة بين الشرق والغرب ووضعت حداً لأي تعاون بين العالمين لأجيال طويلة بإثارتها المسيحية ضد الإسلام في حرب لا هوادة فيها.

وعلى النقيض من ذلك فإن الغرب –يقول الكاتب– يدين بالكثير للشرق في حقل الحضارة المادية.

ويقول: لقد وجد عدد كبير من الصليبيين أنفسهم وجهاً لوجه أمام حضارة تفوق حضارتهم، كما وجدوا في الشرق أشياء كثيرة جديدة كل الجدة عليهم، وكذلك أساليب فنية –تقنية– كانت لا تزال مجهولة في الغرب.. فإدخال المنتوجات الشرقية إلى الأسواق الأوروبية على نطاق واسع، وتبني الأساليب التقنية في الزراعة والصناعة والأعمال اليدوية كانت من النتائج الباهرة للحروب الصليبية.

أما في مجال الفكر.. فنرى الكاتب وهو يتحدث عن تسرب الحضارة إلى أوروبا عن طرق إسبانيا وصقلية وجنوب فرنسا اللواتي كانت تحت الحكم الإسلامي المباشر، يذكر لنا كيف أن الحضارة الإسلامية –منذ انتهاء القسم الأول من القرن التاسع الميلادي– قد سادت جميع إسبانيا، واعتبر الإسبانيون اللغة العربية الوسيلة الوحيدة للتعبير في مجالي العلم والأدب.. إلى أن يقول: وقد انتشرت شهرة العرب العلمية حتى طبقت الآفاق، وجذبت اهتمام النخبة المستنيرة في الغرب إلى الأندلس وصقلية وجنوب إيطاليا.. وإنه لمما يدعو إلى التأمل حقاً أن نجد أحد كبار البابوات "سلفستر الثاني" يقضي ثلاث سنوات في طليطلة يدرس على العلماء المسلمين الرياضيات والفلك والكيمياء وموضوعات أخرى.. وأن نجد كثيراً من كبار رجال الدين والعلم من فرنسا وإنكلترا وألمانيا وإيطاليا، درسوا فترات مختلفة في جامعات إسبانيا الإسلامية.

مساهمة الإسلام في الحضارة الإنسانية:

وفي هذا القسم من الرسالة.. يتابع (بامات) حديثه الممتع عن دور الإسلام الحضاري.. ولكنه يضطر إلى الاقتضاب وهو يشيد –في إيجاز– ببعض الاكتشافات المهمة التي ندين بها لعبقرية البحث الإسلامي –كما يعبر– وإن كان لا يفوته أن يذكر لنا أسماء بعض العلماء والفلاسفة والكتّاب.. الذين أغنوا العلوم والآداب وكان لهم أثر ملحوظ في الفكر الغربي.

فأول ما لفت أنظار العلماء المسلمين من العلوم: الفلك والرياضيات، وقد أحب العرب الرياضيات أكثر من العلوم الأخرى، إذ اكتشف العلماء المسلمون الكثير من المبادئ الأساسية للحساب والجبر والهندسة.. ففي الجبر لا تزال تستعمل الأعداد وطريقة العد التي اخترعها العرب.. والجبر نفسه يعزى اختراعه أحياناً إلى العرب، ومن أساطين هذا العلم "محمود بن موسى الخوارزمي" صاحب كتاب (الجبر والمقابلة) والذي كان المأمون عينه أول رئيس لبيت الحكمة، ويصفه (فيليب حتي) بأنه كان يمتلك أفضل عقلية علمية، وأنه بلا شك الرجل الذي مارس أكبر قسط من التأثير على الفكر الرياضي خلال العصور الوسطى بأسرها.

وبالإضافة إلى اهتمام المسلمين بالفلك والرياضيات.. كان اهتمامهم عظيماً بالعلوم الأخرى، ومن هذه العلوم: الفيزياء والكيمياء والعلوم الطبيعية والطب والفلسفة والأدب والجغرافيا والتاريخ والعلوم السياسية وعلم الاجتماع والهندسة المعمارية والفنون التشكيلية والموسيقى.

غير أن الطب –كما يقرر الكاتب هنا– كان أعظم علم أثار اهتمام المسلمين بعد الرياضيات والكيمياء.. فخلال القرون الأولى التي تلت الهجرة أصبح الطب جزءاً لا يتجزأ من الثقافة الشاملة، ومن ثم ظهر ذلك العدد الكبير من الأطباء والمؤلفات الطبية.. وقد لعب الأطباء المسلمون دوراً حاسماً في العلوم الطبية لدى الغرب إذ ظلت مؤلفات الرازي وابن سينا وابن النفيس وابن زهر، أساس الدراسات الطبية في الجامعات الأدبية خلال قرون عديدة، واكتسبت مدرستا الطب في "سالرنو" و "مونبلييه" شهرة واسعة في هذا الصدد.. وتعتبر مجموعة المعلومات الطبية التي نشرها الرازي في مؤلفه "الحاوي" وفي كتابه الآخر المسمى (المنصوري) الذي نسبه إلى الأمير منصور الساساني، أوسع وأشهر المؤلفات الطبية.

وكان ابن سينا بلا شك أعظم طبيب ظهر في تاريخ المسلمين، وقد نشر كتابه "القانون في الطب" بالعربية في روما سنة 1593م واستعمل هذا الكتاب كأساس لتدريس علم الطب في الجامعات الفرنسية والإيطالية بأسرها طيلة ستة قرون كاملة.. من القرن الثاني عشر حتى القرن السابع عشر..

وعدا ذلك فقد ألف ابن سينا كتاباً حول علاجات القلب.. ونظم قصائد في الطب، وتضم دراساته للعلاجات الطبية وتحضيرها 760 علاجاً.

وأعظم تقدم قام به الأطباء المسلمون كان في حقل الجراحة.. كما عرفوا التخدير الطبي الذي يعتبر بصورة عامة اكتشافاً حديثاً، وأهم جراح عربي في هذا الصدد هو "أبو القاسم خلف بن عباس القرطبي" المتوفى سنة 1107م وكانت مؤلفاته المصدر العام لجميع الجراحين الذين ظهروا بعد القرن الرابع عشر –كما يقول ذلك العالم الفيزيولوجي هاللر– وقد طبعت كتبه باللاتينية سنة 1497م.

وأنجبت أسبانيا الإسلامية أطباء آخرين ذوي شهرة عظيمة من بينهم "ابن زهر" الإشبيلي و (ابن رشد) الذي كشفت شهرته كشارح لفلسفة أرسطو مزاياه كطبيب.

وكما كان للعرب والمسلمين جهودهم الجبارة في الفلك والرياضيات والطب كانت لهم جهودهم المثمرة في كل من الفلسفة والأدب والجغرافيا والتاريخ والعلوم السياسية وعلم الاجتماع –على نحو ما عرضنا له– وهذا هو الأستاذ "بامات" نراه وهو يذكر لنا بعض الأسماء البارزة في مجالات هذه العلوم يذكر لنا أول ما يذكر "ابن خلدون" أول من وضع فلسفة للتاريخ ويستشهد بما يقوله عنه كاتب غربي اسمه "رايسلر" أنه أعظم مؤرخ أنتجه الإسلام، ومن أعظم المؤرخين في العصور كلها.

وهكذا يتنقل الكاتب المفكر المسلم الأستاذ "بامات" واضع هذه الرسالة الشيّقة عن الدور الحضاري للإسلام.. وعن دور المسلمين في بناء الحضارة الغربية أنه يعرض لنا ألواناً ناصعة عن تلك الحضارة تشهد لبناتها بالعبقرية والتفوق.. وتثبت بحق ما لتلك الحضارة وما لأصحابها العرب والمسلمين من جليل الأثر في كيان هذه الحضارة العظيمة التي نعاصرها الآن.

وبعد:

فهذا عرض سريع لرسالة فيلسوفنا المسلم "حيدر بامات" لعلّها تكفي –إلى جانب عرضها الموجز للموضوع– بالتعريف بناحية نضالية لرجل يحفزه إلى هذا الإنتاج إيمان عميق.. إنه رجل كما يقول عنه الأستاذ سعيد رمضان في تقديمه لهذه الرسالة: قضى أكثر حياته مشرداً عن وطنه في سبيل عقيدته، ولم يزل منذ اتخذ مهجره في باريس يعيش أيامه ولياليه بقلب يحترق أسى وقلقاً على الإسلام والمسلمين في شتى أوطانهم ومهاجرهم وفي حاضرهم، وما يضمره الغيب المليء لمستقبلهم، لا يزيده السن الكبير إلاّ رسوخاً في الإيمان وشباباً في الهمة والأمل ووعياً يلاحق به الأحداث ويكتب ويراسل باذلاً عصارة النفس وخالص النصح من مهجره بباريس.

لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟

سؤال ما من شك في أنه يتردد منذ عشرات السنين بين الناس؟ ويجول في خواطر كل الواعين والمفكرين.

ومنذ أكثر من نصف قرن وجه أحد الشبان هذا السؤال إلى أحد رجالات الإسلام، إلى أمير البيان شكيب أرسلان.

وجهه إليه على صفحات مجلة (المنار) أشهر مجلة في عهدها وإلى الآن.

ولم يتردد الأمير الباحث المؤرخ في الرد، فكان رده آية في البيان، وفي نصوع البرهان.

قد نشرت الرد مجلة (المنار) بطبيعة الحال، ثم رأى السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار – يرحمه الله– أن يطبع هذا الرد في كتاب ليظل مقروءاً على مر الأيام، وتوالي الأعوام، ويتدارسه الشباب المسلم المثقف في كل زمان ومكان.

وكانت خلاصة السؤال هكذا:

ما أسباب ما صار إليه المسلمون من الضعف والانحطاط في الأمور الدنيوية والدينية معاً.. وصرنا أذلاء لا حول لنا ولا قوة وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز : (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) (المنافقون: 8).

فأين عزة المؤمنين الآن؟ وهل يصح لمؤمن أن يدعي أنه عزيز، وإن كان ذليلاً مهاناً، ليس عنده شيء من أسباب العزة.. إلاّ لأن الله تعالى قال :(وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ)(المنافقون: 8).

ثانياً: ما الأسباب التي ارتقى بها الأوروبيون والأمريكيون واليابانيون ارتقاءً هائلاً؟ وهل يمكن أن يصير المسلمون أمثالهم في هذا الارتقاء إذا اتبعوهم في أسبابه مع المحافظة على دينهم الإسلام أم لا؟

وعلى عادة الأمير شكيب أرسلان في بسط الحقائق، وتسجيل الوقائع، وفي الإلمام بكل ما يمت إلى الموضوع بصلة، وفي دعم كل أبحاثه بالبراهين، أجاب على هذا السؤال، وبدأه بقوله:

إن الانحطاط والضعف اللذين عليهما المسلمون شيء عام في المشارق والمغارب لم ينحصر في مكان، إن حالة المسلمين الحاضرة لا ترضي أشد الناس تحمساً للإسلام، إن حالتهم الحاضرة لا ترضي من جهة الدين، ولا من جهة الدنيا، ولا من جهة المادة، ولا من جهة المعنى، وإنك لتجد المسلمين في البلاد التي يساكنهم فيها غيرهم متأخرين متأخرين عن هؤلاء الأغيار لا يأمنونهم في شيء إلاّ ما ندر.

إلى أن يقول:

فبعد أن نقرر هذا.. وجب أن نبحث في الأسباب التي أوجدت هذا التقهقر في العالم الإسلامي بعد أن كان منذ ألف سنة هو الصدر المقدم، وهو السيد المرهوب المطاع بين الأمم شرقاً وغرباً.

وقبل أن يمضي الأمير شكيب في بحثه عن أسباب هذا التقهقر الذي يشير إليه، يحرص على أن يمهد بالبحث عن الأسباب التي بها ارتقى المسلمون في عهود ارتقائهم فيقول ونحن نلخص ما يقوله في هذا الصدد:

إن أسباب الارتقاء كانت عائدة في مجملها إلى الديانة الإسلامية، فعندما دانت قبائل العرب بديانة الإسلام تحولوا بها من الفرقة إلى الوحدة، ومن الجاهلية إلى المدنية، ومن عبادة الأصنام إلى عبادة الواحد الأحد، وتبدلوا بأرواحهم الأولى أرواحاً جديدة صيرتهم إلى ما صاروا إليه من عز ومنعة، وفتحوا نصف كرة الأرض في نصف قرن، ولولا الخلاف الذي عاد فدب بينهم لكانوا أكملوا فتح العالم ولم يقف في وجههم واقف!

على أن تلك الفتوحات التي فتحوها في نصف قرن، أو ثلثي قرن قد أدهشت عقول العقلاء والمؤرخين والمفكرين، وحيرت الفاتحين الكبار، وأذهلت نابليون أعظمهم، وله تصريح في ذلك.

فما السبب الذي به استطاع المسلمون في العصر الأول أن يحققوا كل هذه الفتوح؟ هكذا يتساءل الأمير شكيب، ثم يقول: يجب علينا أن نبحث هذا السبب، هل هو باقٍ في العرب، أم ارتفع من بينهم، ولم يبق من الإيمان إلاّ اسمه، ومن الإسلام إلاّ رسمه، ومن القرآن إلاّ الترنم به، دون العمل بأوامره ونواهيه إلى غير ذلك؟

إذا فحصنا عن ذلك وجدنا أن السبب الذي به استقام هذا الأمر قد أصبح مفقوداً، بلا نزاع، وإن كان بقي منه شيء فكما في الوشم في ظاهر اليد.

فلو كان الله تعالى وعد المؤمنين بالعزة بمجرد الاسم دون الفعل لكان يحق لنا أن نقول: أين عزة المؤمنين من قوله تعالى (:وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) (المنافقون: 8).

ولكن النصوص التي في القرآن هي غير هذا، فالله غير مخلف وعده، والقرآن لم يتغير، وإنما المسلمون هم الذين تغيروا، والله تعالى أنذر بهذا فقال (:إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ) (الرعد: 11) فلما كان المسلمون قد غيروا ما بأنفسهم كان من العجب أن لا يغير الله ما بهم.

كيف نرى في أمة ينصرها الله دون عمل؟

كلا. هذا مخالف لما عود به الله مخالف للعقل والمنطق.

وفي المقابلة بين حالة المسلمين وحالة الإفرنج اليوم يقول الأمير شكيب:

اليوم فقد المسلمون أكثر هذه الحماسة التي كانت عند آبائهم، وقد تخلف بها أعداء الإسلام الذين لم يوصهم كتابهم بها. فنجد أجنادهم تتوارد على حياض المنايا سباقاً، وتتلقى الأسنة والحراب عناقاً، ولقد كان مبلغ مفاداتهم بالنفائس، وتضحيتهم بالنفوس في الحرب العامة الأولى فوق تصور عقول البشر، كما يعلم ذلك كل أحد، فالألمان فقدوا نحو مليوني قتيل، والفرنسيون فقدوا مليوناً وأربعمائة ألف قتيل.. والإنكليز فقدوا ستمائة ألف قتيل.. هذا من جهة النفوس، أما من جهة المال فإنكلترا بذلت سبعة مليارات من الذهب، وسبعة آلاف مليون جنيه، فليقل لي قائل أية أمة مسلمة اليوم تقدم على ما أقدم عليه هؤلاء النصارى من بيع النفوس وإنفاق الأموال دون حساب في سبيل أوطانهم ودولهم، حتى نعجب لماذا آتاهم الله هذه المنعة والعظمة والثروة، وحرم المسلمون "بضم الحاء" أقل جزء منها؟

ويمضي الأمير شكيب في التركيز حول هذه النقطة، في أكثر من ثلاثين صفحة من الكتاب، ثم يأخذ بعد ذلك في بحث أهم الأسباب في تأخر المسلمين فيقول:

من أعظم هذه الأسباب: "الجهل" ومن أعظمها: "العلم الناقص" الذي هو أشد خطراً من الجهل البسيط.

ومن أعظمها: "فساد الأخلاق" بفقد الفضائل التي حث عليها القرآن والعزائم التي حمل عليها سلف هذه الأمة، وبها أدركوا ما أدركوا من الفلاح!

ومن أعظمها أيضاً "الجبن والهلع" بعد أن كان المسلمون أشهر الأمم في الشجاعة، وفي احتقار الموت!

وماذا أيضاً؟

ماذا من أعظم الأسباب –بين عشرات الأسباب– في تأخر المسلمين؟

يقول الأمير شكيب: وقد انضم إلى الجبن والهلع اللذين أصابا المسلمين: "اليأس والقنوط" من رحمة الله.. فمنهم فئات وقر في نفوسهم أن الإفرنج هم الأعلون على كل حال، وأنه لا سبيل لمغالبتهم بوجه من الوجوه، وأن كل مقاومة عبث، وأن كل مناهضة خرق في الرأي، ولم يزل هذا التهيب يزداد ويتخمر في صدور المسلمين أمام الأوروبيين، إلى أن صار هؤلاء ينصرون بالرعب، وصار الأقل منهم يقودون الأكثر من المسلمين!

وعندما نتأمل نجد أن الأمير شكيب –يرحمه الله– لم يبالغ في هذا الذي يقوله عن اليأس والقنوط!

سبب آخر أيضاً:

سبب آخر لا يقل خطراً عن الجبن والهلع، أو اليأس والقنوط:

سبب آخر يذكره الأمير شكيب في جملة الأسباب لتأخر المسلمين.

هذا السبب هو ما يسميه "الجمود!"

ثم يتصدى للرد على بعض المزاعم مما يذيعه أعداء الإسلام، ومنها أن الإسلام لم يتمكّن من تأسيس مدنية إسلامية، والدليل على ذلك هو الحالة الحاضرة للمسلمين!

وفي هذا يقول الأمير:

خرافة يموه بها بعض أعداء الإسلام من الخارج، وبعض جاحديه من الداخل، أما القسم الأول فلأجل أن يصبغوا المسلمين بالصبغة الأوروبية.. وأما القسم الثاني فلأجل أن يزرعوا في العالم الإسلامي بذور الإلحاد.

ثم ينتهزها مناسبة –وإنها لمناسبة حقاً– فيفيض في الحديث عن المدنية الإسلامية، وآثارها بما يدحض كل المزاعم، وكل الأراجيف.

وأخيراً.. ينهي الأمير جوابه القيّم لهذا الســـؤال بكلمة عن القرآن الكريم وحثه على العلم فيقول:

العالم الإسلامي يمكنه النهوض والترقي واللحاق بالأمم العزيزة الغالبة إذا أراد ذلك المسلمون، ووطنوا أنفسهم عليه، ولا يزيدهم الإسلام إلاّ بصيرة فيه وعزماً، ولن يجدوا لأنفسهم حافزاً على العلم والفن خيراً من القرآن الذي فيه : (هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ) (الزمر: 9) والذي فيه :وَزَادَهُ بَسْـــطَةً فِي الْعِلْمِ (البقرة: 247) والذي فيه :(وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِـــخُونَ فِي الْعِلْمِ) (آل عمران: 7) والذي فيه :(وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) (آل عمران: 164) ثم يرد على أحد المبشـــرين زعمه أن المراد بلفظة العلم في القرآن هو العلم الديني فقط فيقول الأمير:

كل من تأمل في مواقع هذه الآيات المتعلقة بالعلم والحكمة وغيرها مما يحث على الســـير في الأرض والنظر والتفكير يعلم أن المراد هنا بالعلم هو العلم على إطلاقه.. وأن المراد بالحكمة العلمية المعروفة عند الناس.

بالإضـافة إلى ما تقدم يقرر الأمير شـكيب أن على المسـلمين لينهضـوا ويتقدموا ويعرجوا إلى مصـــاعد المجد، ويترقوا كما ترقى غيرهم من الأمم أن يؤدوا واجبهم في الجهاد وهو الذي أمر به الله في قرآنه مراراً عديدة، وهو ما يسـمونه اليوم "بالتضـحية"، فلن يتم للمسـلمين ولا لأمة من الأمم نجاح ولا رقي إلاّ بالتضحية.

فالمســـلمون يمكنهم إن أرادوا، وجددوا العزائم، وعملوا بما حرضـــهم عليه كتابهم، أن يبلغوا مبالغ الأوروبيين والأمريكيين من العلم والارتقاء، وأن يبقوا على إسـلامهم، كما بقي أولئك على أديانهم، بل هم أولى بذلك وأحرى، فإن أولئك رجال ونحن رجال، وإنما الذي ينقصـنـا الأعمال، وإنما الذي يضرنا هو التشاؤم والاستخذاء وانقطاع الآمال!

بينَ التاريخِ والآثار

أقوى الصلات يلحظها كل منا، بين التاريخ والآثار.

ذلك لأن الآثار، عدا أنها مصدر –لا غنى عنه– من المصادر الأولى للتاريخ، فهي أيضاً –وبصورة جلية– تبدو لنا أوثق هذه المصادر، وأولاها بالاعتبار.

إنها المصدر الأوثق.. لأنها فيما ترويه لنا من أخبار الماضي، لا يمكنها إلاّ أن تنقل الواقع كما هو.. وليس من طبيعتها أن تحابي أو تنحاز!

أو كما يقول "غوستاف لوبون": هي أفصح لسان يعبر عن الحقيقة بإخلاص.. وصحف الأحجار لا تعرف الكذب.. ولشهادتها في تاريخ التمدن أهمية عظمى.[4] "

اختلاف أكيد –إذن– بين ما تحكيه الآثار لنا.. وما تحكيه المدوّنات، أو يرويه الرواة.

للآثار انفرادها –كما ترى في إعطائنا الحقائق عن الأمس القديم، دون رتوش، وبلا تزيد، أو نقص، أو تحريف.

لقد استفاد التاريخ من علم الآثار، وبالتالي من الآثار نفسها: الآثار العديدة الضخمة التي اكتشفت منذ القرن الماضي، والتي ما زالت تكتشف ولعلماء الآثار الفضل في ذلك، ولغيرهم من الباحثين والمستطلعين والروّاد.

وقد كان من حظ هؤلاء العلماء، ومن حظ غيرهم من الباحثين –خاصة في الغرب– أن يلقوا من التشجيع، وفي كثير من الأحيان من العون المادي، ما قد كان له أثره في دعم جهودهم، وفي دفعهم إلى المضي قدماً في هذه الجهود.

([4]) - غوستاف لوبون، مقدمة الحضارات الأولى، ترجمة صادق رستم ص6 .

وكانت حصيلة ذلك أن التنقيب عن الآثار. استمر سائراً في طريق معبدة. دون عوائق، أو مثبطات، فاكتشفت آثار، هنا وهناك، ألقت كثيراً من الضوء عن التاريخ القديم، وعن عدد من الحضارات ظل خبرها، حيناً من الدهر، في طوايا النسيان.

هذه إلمامة أردت أن أبدأ بها حديثي هذا السريع عن كتاب الأستاذ عبد القدوس الأنصاري الجديد "بين التاريخ والآثار."

ولعلّه مما يدعو إلى التقدير، أن يكون هذا الكتاب واحداً من كتب ثلاثة، ينشط لإخراجه في هذه السنة الأستاذ الأنصاري.

ولعلّه مما يستوجب التقدير أكثر، أن يكون هذا الكتاب ثمرة جهد شخصي مرموق، عاناه المؤلف، باحثاً بنفسه عن الآثار، في أكثر من مكان ثم إنه جهد بذله وعاناه باهتمام كبير منذ أكثر من ثلاثين عاماً، كما يعرف الجميع.

يصفه مؤلفه في سطور فيقول: "هذا الكتاب "محصول" دراسات متوالية، للتاريخ والآثار، استمرت أمداً ينيف على ثلاثين عاماً.. بدأها المؤلف في المدينة المنورة. في شوارعها ومنازلها، ومساجدها وقصورها الثرية وجبالها ووهادها وحرارها، وأوديتها.. وبلغ بها السير إلى مكة المكرمة وجدة والطائف والرياض والخرج والدرعية وتيماء في المملكة العربية السعودية، والبحرين والكويت والأردن ومصر ولبنان في خارج المملكة". وقد عني المؤلف بصهر دراساته هذه المتشعبة في بوتقة دراسات مركزة هادفة وشاملة.

ويقول في مقدمته: ".. دعاني إلى اقتحام ميدان هذه البحوث العويصة التي لا يزال الغموض يكتنفها في كثير من أبعادها وحقائقها، دعاني إلى ذلك محاولة إبراز ذلك الإسهام الكبير الذي قامت به حضارة العرب في جاهلية وفي إسلام حيال الحضارة الإنسانية الشاملة."

"وإني بهذه المناسبة –أدعو بإخلاص وحرارة– علماء العرب والمسلمين إلى مزيد من هذه البحوث الأثرية التاريخية الكاشفة.. كما أدعو أيضاً إلى تخصيص وافر الأموال والجهود والرجال

للبحوث الأثرية التنقيبية في أعماق أرضنا المعطاء، حتى تخرج لنا من ينابيعها الثرة كنوزها الثمينة المطمورة في باطنها.. على أن نقوم نحن أيضاً بهذه المهمة العلمية، غير معتمدين على اهتمامات غيرنا في هذا السبيل، اللّهم إلاّ بالنصيب الضروري فيما لا بد منه من التعاون البشري العام على تقدم العلوم وتوسعة آفاقها، كما أدعو في الوقت نفسه إلى مزيد من البحث في بطون الكتب التاريخية والأثرية والعلمية والأدبية، باستخلاص حقائق تاريخنا القديم المبعثرة.

ومع المؤلف نمضي في مقدمته، ومنها ننتقل إلى حديثه في البحث الأول من الكتاب، عن جزيرة العرب، وأسبقية حضارتها في التاريخ!

في هذا البحث: "أضواء على تاريخ جزيرة العرب" يحدثنا المؤلف حديثاً ضافياً في هذا الموضوع.

إنه يحدثنا –ومعه أكثر من دليل– مؤكداً الرأي القائل: (إن جزيرة العرب هي مهد الحضارة العالمية).

لأنها المهد الأول للساميين عموماً، والساميون هم بناة هذه الحضارة، ويعقب على ذلك بقوله: "هذا ما يراه كثير من علماء الآثار، ولهم دلائل أثرية، ودلائل خبرية مقارنة ودلائل منطقية وطبعية على دعم هذا الرأي.[5] "

ومع أن كثيراً من الباحثين ما يزالون ينوهون بحضارة الإغريق، وبعضهم يشير في هذا الصدد إلى حضارة مصر باعتبار أنها أقدم الحضارات، إلاّ أنه يبدو أن الأرجح هو ما يشير إليه الأستاذ المؤلف –لا لمجرد الميل إلى هذا الرأي– بل لأن البحوث الأثرية المتتابعة هي التي تؤيد ذلك.

ويزيدنا المؤلف إيضاحاً هنا، إذ يقول: "وإذا أردنا أن نحدد المنطقة التي نشأت منها الحضارة فيما قبل التاريخ، والتي عرف فيها التعدين والزراعة والصناعة والتجارة، وسائر مقومات الحضارة قبل أي جزء آخر من أجزاء الدنيا القديمة، فلنا أن نقول، استناداً على أرجح أقوال الأثريين

---

(5) - بين التاريخ والآثار: ص17 .

والجيولوجيين: إنها المنطقة التي توصل بين نجد والحجاز، وهي التي تكثر فيها المعادن، وهي التي اكتشفت فيها آثار المدن والقرى والتلال التي طمرت مدناً ومصانع ومقابر عريقة في القدم، من آثار أولئك الجبابرة بناة الحضارة الإنسانية الأقدمين."

وهنا نعود إلى الآثار.. لنذكر فضلها في هذا المضمار.

فهي التي أزالت القناع، وأبانت ما كان خافياً، عن فترة هامة، موغلة في القدم من تاريخ الجزيرة العربية!

والسؤال –إن كان لا بد من سؤال– ما الأسباب؟

الأسباب التي آلت بالحضارة الأم.. إلى أن تتراجع، وتندثر، ثم يهملها التاريخ المكتوب؟

إن لذلك حديثاً يطول.. حديثاً لم يدعه المؤلف دون إجابة، فما على القارئ المستزيد سوى أن يراجعه في موضعه من الكتاب .[6]

ويشير المؤلف في هذا البحث إلى كثرة الآثار وتنوعها في هذه البلاد، وهي آثار أمم استوطنت بها منذ التاريخ السحيق، ثم زادت هذه الآثار كثرة بعد ظهور الإسلام، وهو يصنف هذه الآثار تصنيفاً يحصرها في إطار محدد –كما يذكر– ومن هذه الآثار: الأماكن الدينية والتاريخية، والمقابر والهياكل والشواهد والأعلام، والبيوت والمنازل والقصور والآكام والحصون، ثم الزخارف والأدوات الحجرية والمناجم والمعادن، والسدود والعيون والصهاريج والبرك، ثم المصانع والمزارع والأدوات الصناعية والزراعية، والخطوط الأثرية المسطورة والمنقورة والكتب والحجج والوثائق.. وغيرها.

إنه معين لا ينضب للتاريخ الحضاري.. ما يزال في حاجة إلى مزيد من البحث وإلى مزيد من التنقيب.

---

(6) - الكتاب: ص21.

ونمضي مع المؤلف بعد هذا البحث التمهيدي المستفيض لنستمع إليه في حديثه المتتابع عن الآثار في كل من مكة المكرمة وما حولها.. والمدينة المنورة وما حولها.. والرياض وجدة وما حولهما.. ثم في عسير وفي الشمال.. وفي فصله عن الآثار في الشمال يطرفنا بحديث ممتع عن "الحجر ومدائن صالح" وعن "بيوت مدائن صالح" وعن "موطن شعيب عليه السلام."

حديث شاهد عيان يغريك بمتابعته، ويغريك أكثر بالتأمل، وإمعان التفكير.

وفي حديثه قبل ذلك عن آثار المدينة وما حولها.. نمضي معه إلى حصن كعب بن الأشرف – المشهور في كتب السيرة– فيحدد موقعه بالضبط بعد معاينة وبحث.. ولا ينسى العقيق وما أدراك ما العقيق.. وما أشيد فيه من دور وقصور كان لها شهرة ودام لها ذكر.. قصر عروة بن الزبير.. قصر عبد الله بن عامر.. قصر مروان بن الحكم.. قصر سعيد بن العاص –وهو الوحيد الباقية آثاره إلى اليوم– وغيرها.. وغيرها..

قصور ودور.. يحدد مواقعها.. ومع قصور العقيق ودور العقيق نمضي إلى بساتين العقيق، وجماوات العقيق، وكان ابتداء عمرانه في حياة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، ثم امتد هذا العمران في زمن عمر: "فأُنشئت فيه البساتين، والقصور تدريجياً فما كادت دولة بني أمية تستريح من القلاقل الداخلية حتى وجهت عنايتها إلى عمرانه فأصبح جنة سندسية خضراء.[7] "

وفيما حول المدينة أيضاً لا بد من وقفة مع المؤلف عند "الصويدرة" أو وادي الآثار الجميل .[8]

وحقاً إنه جميل.. جميل بآثاره (وقد صور المؤلف أكثرها وأثبتها في الكتاب) إن آثار الصويدرة العديدة من صور إنسانية وحيوانية ونقوش كتابية منقورة في صخورها، شاهدة على حضارة القوم!

---

(7) - ص84.
(8) - الصويدرة مكان يقع على مسافة 70 كيلومتراً من المدينة المنورة.

ونمضـي في صـفحات أخرى.. إلى الأردن حيث نسـتمع إلى حديث المؤلف عن "كهف أهل الكهف" حديث باحث منقب، وشـــاهد عيان. ثم إلى حديثه عن "البتراء": المدينة الوردية الســـاحرة والرائعة.. كما اختار لها هذا الوصـــف.. والتي يقول عنها: "بالإمكان أن نعتبرها من أعظم مدن العالم التاريخية جمالاً، سـواء في أيام إنشـائها، وازدهارها، أما فيما بعد ذلك في آثارها وأطلالها.. ويقول عنها أيضـــاً: "تتمثل عظمة البتراء في دقة فن النحت، وفي التصـــوير، وروعة الهندسة المعمارية، مما قام به أولئك الأنباط العرب، الذين قدوا أبنيتها الفارعة الرائعة من الصخر الأصم الأشم. [9] "

وفي حديثه عن البتراء –وهو حديث شـامل ومسـتقصٍ– ينوّه باسمها القديم "سـلع"، إنه اسمها كما سماها بذلك ناحتو بيوتها ومنشـــؤوها من النبط، ويقول في ذلك شـــاعرنا فؤاد الخطيب من قصيدته عنها:

هي سلع، والبتراء ترجمة اسمها

نسجت عليه عناكب الإهمال

والحق أن حديث المؤلف عن البتراء.. حديث مغرٍ.. ها هو في وقفته أمام قصـــرها المعروف بالخزنة، والذي ما يزال براقاً كما كان –يصف لنا هذا الوصف الرائع.

"كنا أمام "الخزنة" مشـدوهين بعظمة فن النحت العربي القديم، وبجمال قوام المبنى، وبرشـاقته، وتماوج الألوان الطبيعية فيه، بما يفوق الوصف، ويفوت على الاستيعاب، ومع أن الخزنة في ألوانها المتشـابكة هي طبيعية، فلكأنها قطعة فنية اسـتعمل فيها الفنان عشـرات الألوان الممتزج بعضـها ببعض، ويتجســـد كل هذا الجمال الفني في الخزنة عندما تشـــرق ذكاء.. على وجهها الوردي المشرق.. فتستحيل حمرتها الوردية إلى حمرة خد الحسناء الجميل، في الصبح المتفتح الجميل."!

إلى أن يقول:

(9) - صفحة: 312.

"وبعد الخزنة شــاهدنا المبنى المعد للرقص وهو دكة واســعة، وبها بعض الجدران التي بنيت بالجنادل، وقد اخترقت بعضها شجرة "البطم" والبطم شجرة ضخمة الساق، منحنية إلى الأمام، وأوراقها غير كبيرة، وتميل إلى الاخضرار، وقيل لنا إن لها من العمر 1800 عام."

وفي لمحات عن تاريخ البتراء، يقول: "وقد تمكّن الأنباط من مد رواق ملكهم إلى شرق وغرب، وإلى جنوب وشمال، وضــربوا النقود الذهبية والفضــية، وأقاموا دولة ذات كيان مســتقل لها كل مقومات الدولة المنظمة.. وكذلك بنوا المراكب البحرية، واستقبلوا القوافل البرية والتجارية المحملة بمختلف الســلع من مختلف أقاصــي البلدان، وكان لهم خطهم الذي به يتكاتبون، ومن خطهم اشتق عرب الجاهلية الأخيرة في مكة المكرمة هذا الخط العربي الذي نكتب به اليوم."

"ومما يدلنا على عروبتهم: أسماء ملوكهم فمنها الحارث الأول، ومالك الثالث الذي كان يعاصــر الإمبراطور الروماني الطاغية "نيرون" محرق روما.. ومنها أيضــاً: "رئبال" والرئبال في اللغة العربية من أسماء الأسد. [10] "

وبعد، فماذا بقي من حديث عن كتاب "بين التاريخ والآثار"؟

إنه من الواجب أن أقول: إن مجال الحديث عنه ما يزال متسعاً.. وما يزال في حاجة إلى إتمام.

بقية من حديث أشعر أنه كان لا مندوحة عنها، نتابعها مع صفحات أخرى من الكتاب.

كان لا بد من أن نقف عند الفصــل الذي تناول فيه المؤلف آثار مكة وما حولها، وخاصــة عند حديثه في هذا الفصــل عن ســوق عكاظ.. وحديثه المفصــل عن قبيلة بني ســليم، وأخبارها وآثارها.

وكان لا بد أيضاً من وقوف عند سورية ولبنان، وقد تحدث عنهما المؤلف حديثاً نابضاً وممتعاً.

([10]) - ص: 318.

وكان لا بد من أن أشـير إلى عشـرات من الصـور لآثار منها المعلوم، ومنها المجهول زينت بها صفحات الكتاب.

غير أن المجال بطبيعته محدد هنا فلنؤثر الوقوف بعد هذه الجولة في الكتاب، عند مدينة السحر والجمال!

عند سلع.. أو البتراء!

المدينة التي لها تاريخ.. لا نتلوه في صـــفحات الكتب، بل ترويه لنا في صـــورة أعمق تعبيراً "صحف الأحجار التي لا تعرف الكذب" كما يقول "غوستاف لوبون!"

إنه تاريخ مشرف لحضارة عريقة سامقة، أرخى عليها الزمن ستار النسيان!

إنه تاريخ من الآثار.

أفيحق لنا أن نقول: أخلق بنا أن نقرأ تاريخنا آثاراً.. هي أفصـــح دلالة، وأبلغ إيحاء، وأحفل ببواعث التأمل، ومشاعر الاعتزاز!

نعم "وبين التاريخ والآثار" أخلق بنا أن نقف لنتذكر.. كلما طاب لنا، أو أتيح لنا أن نقف – لنتذكر– بين التاريخ والآثار.. وتحية لكتاب يحمل هذا العنوان.

في المقالة الأدبيّة

ما هي المقالة الأدبية أولاً؟

يبدو لنا أنه لا مناص في هذا المجال، من أن نعود أولاً إلى ما كتبه في هذا الصـــدد الكتّاب الغربيون.

والســبب: أن المقالة الأدبية، أو المقالة بصــورة عامة، في إطارها الحديث تعتبر –فيما يشــبه الإجماع– غربية المولد.. منذ أن وضع نواتها في القرن السادس عشر: الكاتب "مونتيني."

وسواء صح هذا، أو لم يصح.. فإن هذا هو الرأي الأكثر ذيوعاً في الأوساط الأدبية!

ولقد كتب الكثيرون من الكتّاب، ومن مؤرخي الأدب، حول المقالة الأدبية.

وبرغم كثرة ما كتب حولها.. فآراء الكاتبين تكاد تكون متقاربة في وصفها وتعريفها.

فأول ما يصفونها به، إنها لا تخرج عن كونها تعبيراً عن إحساس الكاتب، وعن آرائه الخاصة في الحياة.

دائرة المعارف البريطانية تذكر عن المقالة الأدبية أنها قطعة مؤلفة، متوســـطة الطول. وتكون عادة منثورة في أسلوب يمتاز بالسهولة والاستطراد، وتعالج موضوعاً من الموضوعات، ولكنها تعالجه –على وجه الخصوص– من ناحية تأثر الكاتب به . [11]

ويصـفها أحدهم –وهو الكاتب آرثر بنسـن– بأنها تعبير عن إحساس شخصي، أو أثر في النفس، أحدثه شيء غريب، أو جميل، أو مثير للاهتمام، أو شائق، أو يبعث الفكاهة والتسلية.. ثم يسترسل في كلامه، فيقول: وهكذا تكون المقالة قريبة الصلة بالقصيدة من الشعر الغنائي! ولكنها تمتاز إلى جانب ذلك بما يتيحه النثر من الحرية، وباتســاع الأفق وبمقدرتها على أن تتناول نواحي يتحاماها الشعر.. ثم يستطرد "بنسن" فيصف لنا كاتب المقالة بأنه شخص يعبر عن

---

[11] – محاضرات عن فن المقالة الأدبية -الدكتور محمد عوض محمد.

الحياة، وينقدها بأســلوبه الخاص.. إنه لا ينظر إلى الحياة نظرة المؤرخ.. أو الفيلســوف.. أو الشـاعر.. أو القصـاص.. ولكن في فنه شـيئاً من هذا كله.. إنه ليس يعنيه أن يكشـف نظريات جديدة، أو يوجد الصلة بين أجزائها المختلفة، إن طريقته في العمل أدنى إلى ما يسمى الأسلوب التحليلي: يراقب.. ويســجل.. ويفســر الأشــياء كما تبدو له.. ثم يدع خياله يمرح في جمالها ومغزاها، والغاية في هذا كله أنه يحس إحساساً عميقاً بصفات الأشياء.. وبسحرها، ويريد أن يلقي عليها كلها نوراً واضحاً رقيقاً، لعلّه يستطيع بذلك أن يزيد الناس حباً في الحياة، وأن يعدهم لما اشتملت عليه من المفاجآت المفرحة والمحزنة .[12]

على هذا النحو نجد المؤرخ "هــــ.ب تشارلتن "أستاذ الأدب في جامعة مانشستر يقول عن المقالة الأدبية: إنها في صـميمها قصـيدة وجدانية. سـيقت نثراً.. لتتسـع لما لا يتسـع له الشـعر المنظوم! ثم يضـيف: إن الأسـلوب الجيد في المقالة يجب أن يكون "ذاتياً" لا ينبني على أسـاس عقلي، ولا يبسط حقائق موضوعية ![13]

تلك هي –في إجمال– آراء الغربيين في تعريفهم للمقالة الأدبية.

وهذه الآراء –أو الأوصاف– نفسها نصادفها عندما نستعرض ما كتبه عنها بعض المعاصرين من الكتّاب العرب.. كالدكتور محمد يوســف نجم –مثلاً– أو الدكتور محمد عوض محمد، أو الأستاذ العقاد، أو غيرهم من الباحثين.

فالدكتور نجم يعرف المقالة الأدبية بأنها قطعة نثرية محدودة في الطول والموضوع، تكتب بطريقة عفوية سريعة، خالية من التكلف والرهق، وشرطها الأول أن تكون تعبيراً صادقاً عن شخصية الكاتب .[14]

([12]) - المصدر السابق.
([13]) - فنون الأدب تأليف "تشارلتن" تعريب الدكتور زكي نجيب محمود.
([14]) - أدب المقالة للدكتور محمد يوسف نجم.

والدكتور عوض يذكر فيما يذكره، في محاضرة من محاضراته أن المقالة الأدبية الموفقة تشعرك وأنت تطالعها أن الكاتب جالس معك يتحدث إليك.. وإنه ماثل أمامك في كل عبارة وكل فكرة . [15]

أما الأستاذ العقاد فيرى أن من شروط المقالة الحديثة أنها ينبغي أن تكتب على نمط المناجاة، والأسمار، وأحاديث الطرق بين الكاتب وقرائه، وأن يكون فيها لون من ألوان الثرثرة، أو الإفضاء بالتجارب الخاصة، والأذواق الشخصية . [16]

وتقول الكاتبة نعمات أحمد فؤاد في دراستها لأدب المازني الذي ترى فيه كاتب المقالة الأول.. في الأدب العربي الحديث.. تقول نعمات فؤاد في حديثها عن المقالة: إنها ليست دراسة.. ولكنها كلام ليس المقصود به التعمق والتركيز، وهي في مدلولها الحديث ثرثرة بليغة محببة.. يبدأ صاحبها ولا يعرف كيف ينتهي . [17]

أما عن موضوع المقالة الأدبية.. فيمكن القول: إن كل ما يوصف به –في كلمة موجزة– موضوع المقالة الأدبية، هو "اللاحدود" إن جاز هذا التعبير!

إن كل موضوع، بالنسبة للمقالة الأدبية، ملائم لها.. أو كما يقول الدكتور أحمد أمين: كل شيء في الحياة صالح لأن يكون موضوعاً: من الذرة الحقيرة إلى الشمس الكبيرة، ومن الرذيلة إلى الفضيلة، ومن كوخ الفلاح إلى قصر الملك، ومن الماضي إلى الحاضر إلى المستقبل، ومن أقبح

---

[15] - محاضرات الدكتور عوض.
[16] - فرنسيس باكون للأستاذ العقاد.
[17] - أدب المازني للدكتورة نعمات أحمد فؤاد.. ومن الجدير بأن نشير هنا إلى ما تراه الكاتبة من أن المقالة بمدلولها الحديث الذي لا يعترف بالتنظيم والتبويب والمنطق نجدها عند الجاحظ، فالبيان والتبيين مثلاً بأجزائه الثلاثة مجموعة مقالات تقوم الواحدة منها على فكرة يستطرد منها الجاحظ إلى فكرة أخرى وإن لم يجمعها رابط.. والكاتبة -تخالف كما هو ظاهر- الرأي السائد في أن مولد المقالة إنما كان في الغرب.

قبيح إلى أجمل جميل، ومن الحياة إلى الموت، ومن الزهرة الناضـــرة إلى الزهرة الذابلة، ومن كل شيء إلى كل شيء . [18]

-بعد هذا- ما الذي يمكن أن نســـتخلصـــه من هذه الأقوال، ومن هذه الآراء؟ طبيعي سنستخلص أن المقالة الأدبية، هي قبل كل شيء: نمط يختلف عن غيره من أنماط المقالات.

إنها فن قائم بذاته، له ملامحه، وله طابعه الخاص.

فهي أولاً: لا تتقيد بموضوع، لأن كل موضوع صالح لها.. وترحب به كل الترحيب!

وهي ثانياً: تنفرد بأسلوبها السهل، غير المتكلف، العفوي، البسيط!

ولأنها ليســت دراســة.. ولأنه ليس من طبيعتها العمق.. كان لا بد لها أن تسـير في غير خط المقالات السياسية، أو العلمية، أو الاجتماعية، أو غيرها.

ومن أجل ذلك كان بديهياً أيضـــاً أن لا يحاول كاتب المقالة الأدبية، بأي حال، أن ينهج في صياغته لها نهج الكاتب الاجتماعي، أو الكاتب المؤرخ، أو الكاتب الفيلسوف.

إن نهجه -كاتب المقالة الأدبية- مختلف جداً.

إنه إنســـان.. أو شـــخص -كما يقول عنه ذلك الكاتب الغربي- يعبّر عن الحياة، وينقدها بأسلوبه الخاص.

إنه يراقب.. ويسجل.. ويفسر الأشياء كما تبدو له.. ثم يدع خياله يمرح في جمالها ومغزاها.

فلا غرو أن نرى الجمهرة من الكاتبين يســبغون على المقالة الأدبية وصــفهم لها بأنها تشــبه القصيدة الغنائية!!

والقصيدة. أو الشعر من حيث هو.. من أهم شروطه: العاطفة والخيال!

([18]) - فيض الخاطر -جزء أول- للدكتور أحمد أمين.

وإذن.. فإن الذي يبدو –في ضـــوء كل ما ذكر– أنه مما ليس عنه غناء في كل مقالة أدبية أن تتسم بما يلي:

أولاً :العنصر الشخصي، ويقصد به شخصية كاتب المقالة نفسه التي يجب أن تكون أكثر وضوحاً وبروزاً طالما أنه ليس للمقالة الأدبية من هدف سوى أن تعبر –في صدق– عن أحاسيسه ومشاعره، وتجاربه الذاتية، وآرائه في الحياة!

ثانياً :العنصر العاطفي.. ثم الخيال.. لأنه دون العاطفة والخيال تفقد المقالة أهم خصائصها، وأبرز سماتها!

ثالثاً :الســـهولة والبســـاطة وعدم التكلف.. بحيث تبدو أمامنا المقالة –وهذا ما ينبغي أن يكون– كما لو كانت حديثاً خاصاً بين الكاتب وأصدقائه من القرّاء!

إنه من حق الكاتب ألاّ يحفل وألاّ يهتم بالناحية البيانية للمقالة.. أو أنه من حقه إهدار قواعد اللغة.. وبالتالي إهمال ما يفرضـــه عليه الفن الكتابي الأصـــيل.. من وجوب عنايته –إلى جانب بلاغة الفكرة– ببلاغة المعنى وبلاغة التعبير!

مهمّة الأديب في الحياة

مثلما نجيب عن مهمة كل كائن حي في هذا الوجود، بل مثلما نجيب عن مهمة الإنســـان من حيث هو إنســـان في هذه الحياة، كذلك تكون الإجابة –في رأيي– عن مهمة الأديب في الحياة، فالأديب إن هو إلاّ إنسـان قبل كل شـيء ومهمته كمهمة سـواه، مهمة لا فرق بينها وبين غيرها من مهمات الأحياء، اللَّهم إلاّ في الكيفية التي تتكيفها، وفي اللون الذي تظهر به.

وقبل أن نأخذ في بحث كهذا، وقبل أن نجيب عن المهمة الملقاة على عاتق الأديب لا بد لنا من وقفة استفهام، أو بعبارة أخرى لا بد لنا من أن نسأل عن مهمة الحياة نفسها، والسؤال عن مهمة الحياة قد يسـتدرجنا، بل هو يسـتدرجنا حقيقةً، إلى أن نسـأل سـؤالاً آخر له أهميته.. هذا السـؤال هو: ما هي غاية الحياة؟ ما هي مهمة الحياة؟ أما مهمة الحياة فقد يمكن تلخيصـها في عبارات موجزة، بعيدة عن التبسـط وبعيدة عن التصـنع، وبعيدة أيضـاً عن التهريج الذي اعتاد البعض أن يظهروه.. مهمة الحياة هي أن تسـتمر.. وتسـتمر.. وأن تظل محافظة على سـننها الدائمة التي هي (حفظ النوع)، أما الأحياء فلكل منهم مهمته الخاصـة به، ومهماتهم على اختلافها وكثرتها قد لا تختلف في غاياتها عن تلك الغاية المنشـودة، وإن كانت تمتاز بشـيء آخر، أجل تمتاز مهمة كل حي في هذا الوجود بأن لها غرضـاً سـامياً جميلاً، ذلك هو نشـدان الكمال.. ذلك هو الطموح إلى الأفضـل.. ذلك هو العمل والجهاد باستمرار في سبيل الارتقاء والتحسـين، الارتقاء الذي أساسه القوة، والتحسين الذي دعامته الجمال!

اسـتمرار ومحافظة على النوع، هي ذي أسـاسـيات الحياة، أو بعبارة أخرى هي ذي مهمتها، وهي هي غايتها، ثم جهاد مسـتمر في سـبيل الارتقاء والتحسـين تلك هي المهمة المفروضـة على كل إنسـان، وتلك هي الطريق المعبَّد الذي لا طريق سـواه كما هو الواقع يصـل به إلى السـعادة التي هي غاية الإنسان وأمله المنشود!

والآن فلنتوغل قليلاً، ولنمش برهةً وجيزة في ساحة الحياة، ولنلق نظرات سريعة على الأشياء التي تبدو فيها أمام الرائي لأول وهلة.. أو على الأشخاص البارزين فيها تحت ضوء الحياة العصرية التي نعيش فيها الآن.

إننا نجد الطبيب والمهندس والتاجر والزارع والصناعي والعالم كما نجد المُعلم والمحامي والموظف والصحافي والكاتب والشاعر وغير هؤلاء من الأشخاص، وقد يكون في ذكر هؤلاء كفاية للاستدلال على نوع الأعمال التي يؤديها الأحياء في مثل هذا العصر الذي نعيش فيه.. ولسنا نريد الإسهاب فإننا نريد أن نتكلم عن مهمة الأديب ليس إلاّ، ولكن ما حيلتنا وقد شاء القلم غير ما نشاء.. واسترسل على غير عادته في الاستطراد، فعذراً أيها الكرام القارئون!

لندع إذن الطبيب والمهندس وغيرهما.. ولنمسك بتلابيب الأديب. والأديب في عصرنا الراهن ينضوي تحته عدة شخصيات أدبية لها طابعها الخاص بها.. والشاعر أيضاً له مميزات لا توجد في زميله. وهناك الكاتب غير الصحافي.. والكاتب الفنان وهو الآخر له شخصيته التي لا ينكرها أحد.

الكاتب والشاعر والصحافي، ثلاث شخصيات تسيطر في عالم الأدب اليوم، فما هي مهمة كل منهم يا ترى؟ وما هي الغاية التي ينشدونها، وهل تتفق هذه مع الغاية المشتركة العظمى التي أسلفنا كلامنا عليها؟

هو ذا الصحافي وهو أوثق زملائه صلةً بالجمهور.. فما هو واجبه يا ترى؟ إنه الجهاد المستمر في سبيل غاية عامة يسعى وراء تحقيقها، وهذه الغاية هي نشر مختلف المعلومات، واطلاع القارئين على آخر الأنباء، وأحدث الآراء في ميادين السياسة والاقتصاد والعلم والأدب والاجتماع. ومجموع هذه الأمور متحدة نتيجتها المحتومة ارتفاع مستوى الفكر في المجتمع، ومن هنا –كما نرى– يمهد للمجتمع سبيلاً من سبل الارتقاء.. ذلك الارتقاء الذي يشترك الأحياء في الطموح إليه، والذي أساسه كما قلنا القوة والمعرفة.

هذه هي غاية الصـــحافي وتلك هي مهمته، وهذه الغاية هي إحدى غايات الأديب، وتلك المهمة هي من مهماته في الحياة.

والشـاعر، ولسـت أعني بالشـاعر كل من استطاع أن ينظم للناس جملاً موزونة ومقفَّاة.. كلا فالشاعر الذي أعنيه هو ذلك الشاعر الذي خُلق وخُلقت معه الشاعرية.. هو ذلك الذي يقول الشعر بحكم الطبع لا التطبع، هو ذلك الذي قبل أن يعرف القوافي والأوزان.. وجدت معه قريحة مطبوعة توحي إليه –كما قيل– فتبعث الشـــعر حياً، هذا هو الشـــاعر.. ومهمته في اعتقادي ليست بالعسيرة ما دام أنه يقول الشعر بحافز من غريزته المخلوقة معه، وما دام أنه لا يتعمل ولا يتكلف.. أما هذه المهمة فليســت مهما اختلفت مشـارب الشـعراء، وليســت مهما تباعدت أذواقهم وأساليبهم سوى نشدان الجمال والتغني به.. وليست إلاّ التعبير عن آماله وآلامه، وعن أحاسيس مجتمعه الذي يعيش فيه.. ومن ثم فمهمته أن يسـمو بنفسـه، وبمجتمعه عن طريق هذا التغني، وتلك مهمة أخرى يؤديها الأديب الشاعر في هذه الحياة.

ويأتي الكاتب، وتأتي مهمته أيضـــاً.. وقد تكون مهمة الكاتب عســيرةً وشـــاقة، وقد تكون متشـــعبة أيضـــاً، ولا أُبالغ إن قلت إنها مهمات متعددة، فهناك مهمة اجتماعية يؤديها الكاتب الذي يتخصـص في الاجتماع وهناك الكاتب الذي لا يشـغل نفســه بغير التاريخ، وهناك الذي يجعل ديدنه النقد الأدبي.. وهناك غير هؤلاء، فعلى الكـاتب إذن القســـط الأوفر من مهمة الأديب ولا جدال، ولكن.. ولكن ألست ترى أنه في الإمكان أن نصف بكلمة، وبكلمة واحدة فقط، مهمة الكاتب أو بعبارة أخرى مهمات الكاتبين بأنواعهم.. ألســـت ترى أن كلمة (نقد) هي أصدق ما يصح أن تصف به هذه المهمة، أو هذه المهمات؟

الكاتب الاجتماعي، والكاتب المؤرخ، وكاتب البحث الأدبي، كل هؤلاء ناقدون، ووظيفتهم جميعاً هي النقد.. النقد باعتبار معناه الحقيقي لا الســطحي.. النقد الذي هو دراســة الكتب، ودراسة الحياة، النقد الذي هو الغربلة والتمحيص والفهم، ووصف الأشياء على حقائقها، وتمييز

الغث منها والسمين، وإظهار كل ذلك للناس في أسلوب جميل، وتعبير صادق، حباً في الإفادة والتفهيم وإنارة الأذهان، وتغذية العقول بكل ما هو طريف ومفيد!

لقد عرفنا أن مهمة الكاتب هي نقد الحياة، وليس شك في أنها مهمة عسيرة وشاقة كما قلنا.. بل هي من أصعب المهمات الأدبية، وأوشك أن أقول إنها من أصعب مهمات الحياة.

وأخيراً نرجو أن نكون قد استطعنا في هذه الإلمامة السريعة الإدلاء بما يقرب من الصواب حول هذا الموضوع، ولعلّنا في هذه الفترة –وقد بدأنا نشعر فيها بمبادئ حركة أدبية حية في بلادنا– لعلّنا نرى ثمار هذه الحركة قريباً، إن شاء الله، كي نصل إلى ما وصل إليه غيرنا من نهوض وتقدم، وما ذلك على الله بعزيز ! [19]

[19] - المنهل: ربيع الأول 1357هـ .

نظرات في الأدب

الأدب صورة من صور الحياة وكما أن الحياة في تطور دائم مستمر، وكما أن أوضاعها ومظاهرها لا تفتأ تتغير حيناً بعد حين، وتتبدل عند كل ظرف مناسب –وما أكثر حدوث هذه الظروف– فكذلك الأدب حاله كحال الحياة وشأنه كشأنها لا يفتأ خاضعاً لنواميس التبدل والتحول، وهو منذ أن وجد في الوجود والتطور يلابسه في كل عهد من عهوده وفي كل منحى من مناحيه.

وليس يشبه الأدب الحياة في أنه خاضع مثلها لنواميس التبدل والتحول فحسب بل هو يشبهها في أنه تابع لها وتطوراته تابعة لتطوراتها وكل ما يلازم الحياة التي تحياها الأمة من تقدم أو تأخر وقوة أو ضعف يلازم أدبها بلا شك، فلننظر إلى الأدب العربي في مختلف عهوده القديمة والحديثة، ولندرس إلى جانب ذلك تاريخ الأمم العربية في كل تلك العهود، فسترى –بعد قليل من النظر والدرس– أن الأدب العربي –كسواه من آداب الأمم الأخرى– لم يخرج عن القاعدة، ولم يشذ عن الناموس الشامل، سنرى بعد قليل من الدرس والنظر أن الأدب العربي كان تابعاً في جميع عهوده لأحوال الأمم العربية التي ينتمي إليها.

فليس من شك أن أدب الجاهلية إنما هو صورة من الحياة في ذلك العصر الجاهلي، كما أن الأدب في عصر النبوة هو صورة من حياة ذلك العصر. وقل مثل ذلك عن الأدب الأموي وعن الأدب العباسي، وقل مثله أيضاً عن آداب العصور التي تلت عصر العباسيين، أو العصور التي يسمونها "عصور الانحطاط" والتي ظلت وظل معها الأدب متأخراً جامداً لا روح فيه ولا حياة حتى أواخر القرن التاسع عشر للميلاد، حيث ابتدأت من ثم نهضة الأدب الحديثة وكانت نهضته، وكانت هذه التطورات التي نشاهد آثارها فيه الآن، إنما هي صورة من حياة الأمم العربية الآن، وتعبير عن آمالها وآلامها، وتحليل لشؤونها وشجونها، ونقد وغربلة لكل ما هو سيء من أحوالها وعاداتها، وإهابة بها إلى نشدان المُثل العُليا وإلى النهضة وإلى العمل للتقدم والارتقاء.

في الأدب العربي الحديث يوجد تطور ملموس يشهده الدارسون له والمتتبعون لآثاره، بل في الأدب العربي الحديث (ظاهرة) يصح أن نسميها (تمرداً) (لا تطوراً).

هذه الظاهرة التمردية تكاد تشمل الأدب الحديث في أغلب مناحيه، ففي المعاني وفي الألفاظ وفي الأساليب وفي المواضيع وفي الاتجاهات التي يتجه إليها الكاتبون، في كل ما سبق، يشهد الذين يتابعون الحركة الأدبية في العالم العربي آثار ذلك التمرد واضحة جلية، وليس يمنعنا من تقرير ذلك وجود بعض آثار من الأدب، تحاكي في سيرها الأدب القديم، فهذه الآثار الأدبية لأن مصدرها التقليد والمحاكاة تخرج –في اعتبار كل النقدة ومؤرخي الآداب– عن كونها آداباً تمثل عصرها الذي يمارسها أصحابها فيه.

لماذا تطور الأدب العربي الحديث؟ الجواب معلوم فذلك لأن الحياة نفسها قد تطورت وأصبحت غير ما كانت عليه بالأمس.. أما لماذا توجد ظاهرة ما أسميناه التمرد في هذا الأدب، فذلك لأن الحياة التي تحياها الشعوب العربية المختلفة إنما هي حياة انفعال أو (تكهرب) إن صح هذا التعبير. حياة الشعوب العربية الآن حياة مؤلمة مريرة يتخللها القلق والارتباك، وينتابها اليأس والألم، وذلك لأن هذه الشعوب اليوم بإزاء نضال عنيف مستمر مع الدول القوية المتسلطة الاستعمارية، فهي تناضل في سبيل ما تنشده من حرية واستقلال، ومن شأن هذا النضال المستمر العنيف أن يساعد على تقوية عاطفة (الانفعال)، ومن شأنه أن يجعل الجو (مكهرباً) على الدوام، ومن شأنه أن يشجع على وجود التمرد حقيقة، وإذاً فطبيعي أن تغمر الأدب العربي هذه النزعة، وطبيعي أن يطغى تيارها الجارف ويسحق كل ما قد يجده أمامه من التيارات لأنه التيار الأقوى.

وبعد فما شأن هذه النزعة التمردية في الأدب الحديث؟ وما أثرها يا ترى؟

إن شأنها لجد عظيم، وأثرها المحمود لا يمكن أن ينكره المنكرون، فتلك النزعة الشريفة إن دلت على شيء فإنما تدل على أن (روح الحياة والطموح) قد دب دبيبها في نفوس الناطقين بالضاد، وهذا هو خير ما تثلج له الصدور، وليس احتياج العرب اليوم على اختلاف الظروف

المحيطة بهم، بل ليس احتياج كل أمة تريد أن تتقدم وترتقي إلاّ إلى (روح الحياة والطموح) لأن وجود هذه الروح في الأمم هو أساس كل مجد وعظمة وتقدم وارتقاء . [20]

---

[20] - صوت الحجاز، العدد 72 في 8 جمادى الأولى سنة 1352هـ .

شاعر الإسلام

في كل عام تحتفل باكستان بذكرى شاعرها الكبير، وشاعر الإسلام دكتور محمد إقبال.

والواقع أن الدكتور محمد إقبال، حقيق بأن يحتفل بذكره كل المسلمين، وينوهوا به ويرددوا سيرته في كل مناسبة، ذلك لأن إقبالاً لم يكن شاعراً عادياً، أو شاعراً محدود الأفق، أو شاعراً من شعراء الوطنية الإقليمية الضيقة، أو شاعراً من شعراء البرج العاجي من أصحاب نظرية الفن للفن.. لم يكن إقبال من هذا الطراز من الشعراء البوهيميين.. وإنما كان شاعراً، أبعد أفقاً من ذلك، كان شاعراً إسلامياً مؤمناً، وملتزماً، ومن أجل ذلك كان ظهوره في هذه الحقبة من تاريخ المسلمين حدثاً خطيراً، واستحق بشعره الذي طالما تغنى فيه بأمجاد الإسلام، وأشاد فيه بعظمة المسلمين –مما لم يعهد من شاعر آخر سواه– أن يلقَّب بشاعر الإسلام!

ولم يكن شعر إقبال في تغنيه بأمجاد الإسلام وعظمة المسلمين من ذلك النوع من الشعر التقليدي.. ذلك النوع الذي قلما يخلو منه ديوان شاعر من شعراء المسلمين في العهود الأخيرة، أو قلما تخلو منه صحيفة أو مجلة من صحف ومجلات البلدان الإسلامية، كلا.. وإنما كان شعر إقبال من طراز آخر متميز، من أبرز سماته الصدق، كان إقبال في جميع شعره يصدر عن عاطفة قوية لا عن تقليد، وعن إيمان عميق وليس عن رياء، إن حب إقبال للإسلام أو المسلمين كان حباً صحيحاً، بل كان عشقاً وهياماً، وهذا هو سر عظمة إقبال!

أما السر في هذه العظمة فهو أن إقبالاً كان –كما قلنا– صادقاً في هذا الشعر، وكان مخلصاً وكان مؤمناً بما يقول.. والميزة الأولى لكل شعر عظيم منذ أن عرف الناس الشعر هي صدق العاطفة، وصدق التعبير، وإخلاص الشاعر وإيمانه بما يقول.

وكنتيجة لحب إقبال، وهيامه بالإسلام، وصدق عاطفته في هذا الحب، حب للأمة العربية، أمة الإسلام، فما أكثر ما أشاد بها في شعره، وما أكثر ما عبر في هذا الشعر عن إشفاقه مما آلت إليه في حاضرها المؤلم المرير.. فاسمعه يخاطب هذه الأمة في إحدى قصائده الشهيرة فيقول:

أمة الصحراء يا شعب الخلود!
من سواكم حلَّ أغلال الورى؟
أيُّ داعٍ قبلكم في ذا الوجود

صاح: لا كسرى هنا.. لا قيصرا؟

من سواكم في حديث أو قديم

أطلع القرآن صبحاً للرشاد؟

هاتفاً في مسمع الكون العظيم

ليس غير اللَّه رباً للعباد؟

وفي هذه القصيدة، لا ينسى إقبال أن يشيد بالمسلمين وبدولتهم، وابتكارهم، وبمظهر عزتهم وملكهم الحصين حين يقول:

لا تقل: أين ابتكار المسلمين

وسل الحمراء.. واشهد حسن تاج

دولة سار ملوك العالمين

نحوها طوعاً يؤدون الخراج!

دولة تقرأ في آياتها

مظهر العزة والملك الحصين

ثم يعود إلى خطابه للأمة العربية:

وي كأن لم تشرقوا في الكائنات

بهُدى الإيمان والمنح الرشيد

ونسيتم في ظلام الحادثات

قيمة الصحراء في العيش الرغيد

كل شعب قام يبني نهضةً

وأرى بنيانكم منهدما!

في قديم الدهر كنتم أمةً

لهف نفسي كيف صرتم أُمما؟!

كل من أهمل ذاتيته

فهو أولى الناس طرًّا بالفنا

لن يرى في الدهر قوميته

كل من قلد عيش الغربا!

فكروا في عصركم واستبقوا

طالما كنتم جمالاً للعُصُر!

واملأوا الصحراء عزماً واخلقوا

مرة أخرى بها روح عُمر!

وكما يوجه إقبال خطابه إلى الأمة العربية في هذه الأبيات الرائعة نراه في مقطوعة أخرى يخاطب الرجل المسلم أينما كان.. مُنقَّراً على هذا الوتر الحساس، فيقول:

إن هذا العصر ليل فأَنر

أيها المسلم ليل الحائرين!

وسيفنى الحق في لج الهوى

لا يرى غيرك ربَّان السفين!

ليس في الوقت فراغ فاعتزم

واملأ الدنيا بأعمال شريفه!

أنت نور الأرض تهدي أهلها

لن يُرى غيرك في الأرض خليفه!

ويقول:

قم وانشر التوحيد في الدُّ	نيا، ووحد الأمم!
فأنت خير من دعا	وأنت خير من حكم

إن شعر إقبال كله يفيض بمثل هذه الحيوية، وبمثل هذه الروح الصافية، وهذا الإيمان المشرق، وهذا الحماس المتدفق، وهذا الحب الخالص لكل ما يمت إلى الإسلام بنسب.. لقد تغلغلت عقيدة الإسلام في نفس إقبال، ولذلك لا تجد في جميع آياته الشعرية الرائعة إلاّ كل ما يعبر عن معنى من معانيه، أو اتجاه من اتجاهاته، أو فكر من أفكاره.. انظر إليه كيف يعبر عن فكرة الحياة بعد الموت ويشير إليها في هذه الأبيات:

حينما يسفر الصباح نديًّا
ناصعاً في مواكب الإشراقِ
يغسل النور في المشارق أد
ران الدياجي من حلة الآفاقِ
ويطير الكرى وينتبه العُشـ
ـبُ وتصحو عزائم الكائنات
ويهب الأحياء في البر والبحـ
ـر ليستقبلوا عروس الحياة
وإذا كان للخلائق نا
موس يرينا الصباح بعد المساء
فكذا تذهب الحياة ولكن
بعد ليل الحمام صبح البقاء

وقد ولد إقبال في وطنه الهند سنة **1873**م وتوفي سنة **1938**م ودرس أولاً في الهند، ثم في لندن ونال درجة دكتور في الفلسفة من جامعة ميونخ بألمانيا، واشتغل في أوائل حياته بالمحاماة، ومن هنا نعرف مدى مكانته من الناحيتين العلمية والثقافية، ثم مدى ما أفادته شاعريته الخصبة من هذه الثقافة الواسعة ذات الجوانب المتعددة، إلى جانب سياحاته المتكررة في أوروبا، واختلاطه بكبار أدباء وعلماء وفلاسفة الغرب مما كان له ولا شك أثره في حياته وتفكيره وشعره، ولعلّ من أهم ما يلفت النظر في هذه الناحية، أن إقبالاً رغم تضلعه في علم الغرب وأدب الغرب، وفلسفة الغرب، ورغم أنه عاش زمناً ليس بالقصير في كبريات العواصم الغربية، فقد عاد إلى الشرق بعد ذلك وهو أقوى إيماناً، وأقوى عقيدة، وأقوى إسلاماً.. وكان منه أخيراً ذلك الرائد المصلح المفكر، بل ذلك الشاعر الفذ: شاعر الإسلام!

وقد ترك إقبال أحد عشر ديواناً كان أول ما نشره منها "أسرار خودي" سنة **1915**م باللغة الفارسية وآخرها "أرمغان حجاز" باللغتين الفارسية والأردية.

ومن دواوينه التي ترجمت إلى اللغة العربية "بيام مشرق" وقد صدر بالفارسية سنة 1923م ونقله شعراً إلى اللغة العربية المرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام.

وبيام مشرق أو رسالة المشرق يعتبر من أهم دواوين إقبال، ويقول عنه الوزير الباكستاني "جودهري نذير أحمد" في كلمته التي صدر بها الترجمة العربية: "إن بيام مشرق" خير مثال لفن إقبال وفكره.. وهو يعد في الجملة درة إنتاجه، وقد بلغ فيه إقبال مستوىً من الإبداع الفني لا نظير له في أية ناحية أخرى.

وديوان "بيام مشرق" كتبه إقبال –كما يقول هو نفسه– جواباً لشاعر الألمان الأكبر "جوتيه" في ديوانه الشرقي.

كما يصفه جودهري نذير أيضاً بأنه رسالة أمل، رسالة إلى عالم اليوم من قبل طبيب يعرف علله.. إن بصيرة إقبال في هذا الظلام الحالك، والضباب الذي يكتنف العالم الإسلامي قد رأت الفجر الموشك أن يبزغ في الأفق.. إن هذه البصيرة والإيمان اللذين يفيض بهما بيام مشرق لهما الميراث الذي خلفه لنا إقبال.

وبعد فإن في شعر إقبال بصورة عامة سمات من الرمزية ومن التصوف.. غير أن رمزية إقبال تختلف عن غيرها.. كما أن تصوفه يختلف أيضاً، رمزية إقبال ليست رمزية الغموض أعني ليست من النوع الشائع المعروف.. كما أن تصوفه إنما هو تصوف الرجل المفكر المستنير نعم لم يكن تصوف إقبال من ذلك النوع الذي عرفه تاريخ المسلمين في بعض عصورهم المتأخرة، وكان من أكبر أسباب ضعفهم وتخلفهم.. إن شعر إقبال كله دعوة إلى الحياة وإلى العمل، دعوة إلى الإقدام وإلى التحرر من الكسل والتواكل والخمول، من الرق والعبودية.. ودعوة إلى المحافظة على الذات والتي هي روح فلسفة إقبال!

امض في الدنيا كنهر في جبال
واعرف الأغوار فيها والنجودا
أو مثال السيل.. فاجرف كل شيء
لا تباليه هبوطاً أو صعوداً!

وقد كان من ثمار تفكير إقبال –كما هو معروف ومشهور– إنشاء دولة إسلامية كبرى في قسم واسع من تلك البلاد التي كان يطلق عليها الهند في عهد الاستعمار، ولم تكن سوى "باكستان" تلك الدولة الإسلامية الكبرى!

هذا هو محمد إقبال شاعر الإسلام في هذا العصر.. وأكبر الظن أنه سوف تمر عشرات السنين قبل أن تهيئ الأقدار للشعوب الإسلامية شاعراً عبقرياً آخر من هذا الطراز الرفيع.

كلمة عن شوقي

عاش فقيد اللغة العربية الأكبر المرحوم (أحمد شوقي) طوال أيام حياته شاعراً مجيداً لا يبارى في ميدان الشعر حتى أُطلق عليه لقب (أمير الشعراء) تقديراً لمكانته السامية الرفيعة بين شعراء عصره، وتعبيراً عن معنى الإجلال والإكبار لنتاجه الخالد، وبيانه الذي سرى في النفوس سريان الكهرباء، وأصبح يجري مجرى الأمثال في الانتشار والذيوع.

ولئن كان هذا الشاعر الكبير في أوائل عهده مقلداً أكثر منه مجدداً، كما يرى ذلك بعض الناقدين من معاصريه، وكان –كما يقولون– ينظم أشعاره على نمط ما كان القدماء ينظمون، وينحو نحوهم في الأسلوب والطريقة وفي المعاني أحياناً، ويسير على سننهم في الموضات التي كان يطرقها، أقول: لئن كان شوقي كذلك، أو على الأصح، لئن اعتبره أولئك الناقدون مقلداً أكثر منه مجدداً للأسباب السالفة، فإن تقليده لم يكن ككل تقليد، كان تقليد شوقي جيداً ممتازاً، بل كان تقليد شوقي نوعاً جديداً يختلف ويسمو عن سواه، ولسنا إلاّ مصيبين إذا قلنا إن تقليد شوقي في حياته الشعرية الأولى إنما كان نوعاً من أنواع التجديد.

والآن فلننظر فيم وعلام يحاول بعض الناقدين إنزال شوقي من منزلته السامية التي وصل إليها باستحقاق وجدارة؟ ولماذا هم يصفونه بأنه لم يكن مجدداً في الشعر، وأنه لم يكن إلاّ مقلداً لا يختلف عن سواه من المقلدين؟ والجواب سهل وبسيط، لم ير هؤلاء لشوقي في أوائل حياته إلاّ مجموعة قصائد أكثرها يدور حول المدح والرثاء وما إليهما، وقليل منها في الغزل والاجتماع، فقالوا إنه مقلد وإنه لم يجدد شيئاً ولم يكتشف باباً جديداً فيه، ولم ينهج نهج شعراء الغرب في تأليف القصص والروايات إلى آخر ما يقولون.

ولقد يكون فيما يقوله هؤلاء جانب من الحق، لا يرتاب فيه مرتاب، ولكن كما أن فيه هذا الجانب الذي أشرنا إليه، فإن فيه أيضاً تعسفاً في الحكم وخطأً في الرأي، ومجانبة للإنصاف، نعم

لم ينهج شوقي في عهده الأول نهج شعراء الغرب في تأليف الروايات والقصص، وهذا وحده هو الذي يصح أن يكون جانب الحق في اعتراضات المعترضين.

وفي جهرنا بهذا القول شيء كثير من التسامح لأن الفن الروائي في الشعر وفي النثر، إن صح أن يكون تجديداً لأنه أكثر التئاماً مع الذوق الأدبي اليوم، فإن الأديب إذا لم يكن له فيه نصيب، وإذا لم يجعل منه ميداناً ليراعه وتفكيره، فليس هذا بالذي يستحق أن يؤاخذه عليه الناقدون. إن القصص والروايات ليست مقياساً للحكم على الشعراء والكتّاب، إن جالت أقلامهم فيه استحقوا الإطراء والتقدير، وإذا لم يكتبوا أو ينظموا فيهما شيئاً أصبحوا هدفاً للنقد والانتقاص، كلا فإن كل كاتب أو شاعر إنما يكتب حسب النزعة التي ينزع إليها، والميدان الذي يختاره لنفسه والميول التي يتجه إليها، وما مقياس الحكم هنا إلاّ الفن والإجادة فيه، وإلاّ المعاني والأساليب يأتي بها كل من الكاتب والشاعر مائسة في حلة بديعة من حلل الروعة والإبداع .[21]

وشاعرنا شوقي وإن لم يكن في عهده السابق قد نظم قصصاً وروايات، فلم يكن هذا بضائره، وهو وإن كان قد سار على طرق القدماء ونحا نحوهم، إلاّ أنه كان المتفوق الممتاز كشاعر فنان، وكان في شعره عبقرية وحياة، وكانت شاعريته تلك الشاعرية الملهمة الفيّاضة بصنوف الجمال، والمتسمة بسمات صدق التعبير والإحساس وسمو العاطفة والروح، لقد اجتمعت في شعر شوقي كل العناصر الحية الصالحة، أجل لقد كان شوقي شاعراً عبقرياً وكفى! وكان شاعراً مجدداً يمثل الزمن الذي عاش فيه، وطبيعة العصر والبيئة والظروف التي مازجها ومازجته وكفى بكل ما ذكر دليلاً وبرهاناً على بطلان ما يزعمه ناقدوه.

وبعد فقد برهن شوقي أيضاً أنه السابق في الميدان الذي اختاروه له، أثبت هذا الشاعر العبقري أنه المجيد في حلبة البيان كشاعر روائي.. وهذه رواياته المبتكرة التي أنتجتها عبقريته في العهد الأخير براهين على ذلك.. قرأ الناس لشوقي رواياته وأقاصيصه الشعرية فأعجبوا بها كل الإعجاب وأكبروا ما فيها من آيات البيان والحكمة، وهنا قطعت جهيزة قول كل خطيب، وهنا

([21]) - المنهل: صفر 1357هـ .

لم يبق مقال لقائل، ولم يبق اعتراض لمعترض، أو مكابرة لمكابر. ففي (مصرع كليوباترة) و (مجنون ليلى) و (قمبيز) و (علي بك) و (عنترة) ثم (أميرة الأندلس)، أجل في هذه الروايات المبتكرة الطريفة، وجد أبناء العربية شاعرهم الفذ محلِّقاً في سماء العبقرية والنبوغ.. وجدوه لا يقل مكانةً عن أشهر شعراء أوروبا في العهد الحديث.. ولعمري لو أُتيح لشوقي أن يعيش أعواماً أخرى. إذن لكان له في هذا المجال جولات وجولات.. لقد كان هذا الشاعر العظيم –كما شهده الناس في السنوات الأخيرة– مهتماً بمواصلة الجهود، ومتابعة التأليف والنشر في عالم القصص الفنية نثراً ونظماً.. خطة شاء أن يرسمها لنفسه أخيراً، ولقد نجح فيما استطاع إبرازه للناس، وكان نجاحه –ولا جدال– عظيماً.

شاعرنا طرفة بن العَبد

عشرون عاماً، أو عشرون عاماً فقط على أرجح الروايات.. عشرون عاماً يعيشها طرفة بن العبد، شاعرنا القديم النابه.. لهي والله مما يدعو إلى العجب عندما ننظر إلى ضخامة شعره.. ونقارن بينه وبين فحول شعراء عصره الجاهلي، ومن بينهم، وفي طليعتهم شعراء المعلقات.

بل أية ميزة يتميز بها شاعرنا طرفة بن العبد، أكثر من أنه –على قصر حياته– معدودٌ في الرعيل الأول بين شعراء المعلقات هؤلاء!

شاعرنا طرفة بن العبد شاعر متميز ولا ريب.. يلمس في شعره كل من يقرأه أو يستمع إليه، روعة تملك الشعور، وتهز النفس.. لسبب وحيد هو أنه من شعراء العبقرية وقد أرغمت هذه العبقرية عمالقة شعراء العصر الجاهلي وغيرهم من شعراء ما بعد ظهور الإسلام على أن يعترفوا بهذه الشاعرية المبدعة لهذا الشاعر الشاب، برغم اعتزازهم وما كانوا يحملونه في نفوسهم من تيه وعنجهية وغرور!

شيء آخر كان خليقاً بأن يلفت الأنظار إلى طرفة بن العبد.. ذلك هو ما اتسمت به حياته القصيرة من ميل إلى المغامرة.. لقد كان هذا الشاعر الشاب مغامراً جريئاً من الطراز الأول بل أكاد أقول ومتهوراً. وحسبنا أن نقرأ من نوادر قصصه أنه كان نقادة لا يعبأ بإنسان.. كان يقول كلمته ويمشي غير هياب.

كان طرفة مولعاً بالسخرية أيضاً، بلغ من أمره في سخريته وجرأته تعرضه لشاعر كان ينشد شعراً في وصف الجمل، في مجلس ملك الحيرة "عمرو بن هند" فوصف الجمل بوصف من أوصاف النوق، فقال طرفة على الفور: "استنوق الجمل" وأصبحت هذه الكلمة مثلاً من الأمثال!

ويهجو طرفة زوج أخته "عبد عمرو" بن بشر بن مرثد، وكان كما يصفونه سيد أهل زمانه، ومن المقربين لدى عمرو بن هند يهجوه طرفة لا لأمر ذي بال وإنما لأن أخته شكت إليه شيئاً من أمر زوجها، فقال يهجوه:

لقد علم الأقوام أنا بنجوة

علت شرفاً من أن تُضام وتُشتما

لنا هضبة لا يدخل الذل وسطها
ويأوي إليها المستجير فيعصما

وأرعن مثل الليل مجر يقوده
أريب إذا ما ساور الأمر أبرما

شديد القوى ضخم الدسيعة مقول
أبي إذا ما هم بالأمر الحما

فأي خميس لا أبانا نهابه
وأسيافنا يقطرن من كبشه دما

أبي أنزل الجبار عامل رمحه
وعمي الذي أردى الرئيس المعمَّما

فواعجباً من عبد عمرو وبغيه
لقد رام ظلمي عبد عمرو فأنعما

ولا عيب فيه، غير أن له غنًى
وأن له كشحاً إذا قام أهضما

وأن نساء الحي يعكفن حوله
يقلن: عسيب من سرارة ملهما

فأي هجاء مقذع هذا؟ وأي اعتداد بالذات تقمصه هذا الفتى؟ إنه يبدأ أولاً بالإشادة بنفسه وبقومه، وبأبيه الذي أنزل الجبار عامل رمحه، وبعمه الذي أردى الرئيس المعمَّما، ثم يهوي إلى مهجوِّه في عنف وفي قوة، وفي سخرية وتهكم يكفي أن يجعله ملهاة لنساء الحي يعكفن حوله، ويعبثن به، ويقلن عنه.. ويقلن..

وقد رأيت أن عبد عمرو هذا كان من الخلصاء المقربين لدى ملك الحيرة عمرو بن هند وقد عرف هذا الموتور كيف ينتقم، خرج يوماً للصيد في معية عمرو بن هند، وأمعن عمرو بن هند في الطلب فانقطع بنفر من أصحابه حتى أصاب حماراً وحشياً فعقره وقال لعبد عمرو: انزل إليه فنزل فأعياه فضحك عمرو بن هند ثم قال لأصحابه: اجمعوا حطباً وأوقدوا، فأوقدوا ناراً

وشوى، فبينما عمرو بن هند يأكل من شوائه وعبد عمرو يقدم إليه إذ نظر إلى قميصه متخرقاً، فأبصر كشحه فقال له لقد أبصر طرفة حُسن كشحك حين قال:

ولا عيب فيه غير أن له غنى
وأن له كشحاً إذا قام أهضما

فغضب عبد عمرو من ذلك، وأنف وقال له: أبيت اللعن، لقد قال فيك ما هو شر من ذلك وأقبح، قال عمرو بن هند: أو قد بلغ من أمره هذا؟

قال نعم! قال فما قال؟ فأسمعه ما قال فيه طرفة من الهجاء، وفيه يقول:

لعمرك إن قابوس بن هند
ليخلط ملكه نوك كبير

إلى أن يقول:

فلما أن أنخت على مليكٍ
مساكنه الخورنق والسدير
لينجزني مواعد كاذبات
بطي صحيفة فيها غرور
فأوعدني وأخلف ثم ظني
وبئس خليقة الملك الفجورُ

وكان من ســـوء حظ طرفة أن هجاءه لعمرو بن هند ملك الحيرة هو الذي قاده إلى حتفه في نهاية المطاف.

فعندما جاء المتلمس الشاعر، خال طرفة، إلى عمرو بن هند وكان معه طرفة يلتمسان رفده، وكان المتلمس قد هجا عمراً أيضـــاً. فما كان من ابن هند إلاّ أن كتب لهما كتاباً إلى عامله في البحرين وقال لهما: انطلقا فخذا جوائزكما منه.. فخرجا!

وأحسَّ المتلمس أن في هذا الكتاب أو في هذه الصحيفة شيئاً، فينصح طرفة في حديث طويل يقول فيه: إنه من الخير أن ننظر في كتبنا هذه، فإن يكن رأي ملك الحيرة قد أمر لنا بخير مضينا، وإن تكن الأخرى لم تهلك أنفسنا.

فهل يستمع طرفة إلى هذا النصح؟ كلا إنه يركب رأسه.. ويرفض النظر في كتاب الملك، ويذهب المتلمس لينظر في صحيفته -وقد ذهبت فيما بعد مثلاً.. فإذا الذي يجد فيها: "باسمك اللَّهم، من عمرو بن هند إلى المكعبر، إذا جاءك كتابي هذا مع المتلمس فاقطع يده ورجله وادفنه حياً."!

ولا يتردد المتلمس بعد ذاك في أن يخبر ابن أخته بالذي ورد في الكتاب. ثم ينهاه عن الذهاب إلى عامل البحرين، فيقول طرفة هو وهو -إن صحت الرواية- يدل على منتهى الغرور.. يقول طرفة لخاله المتلمس: إن كان قد اجترأ عليك فما كان ليجترئ علي.. فلما غلب المتلمس على أمره ألقى بصحيفته في نهر الحيرة ثم خرج هارباً إلى الشام.

ويذهب طرفة إلى عامل البحرين، وينفذ فيه القتل.. ويؤرخ المؤرخون موت هذا الشاعر في أواسط القرن السادس للميلاد.

أمر طبيعي -إذن- أن تكون هذه هي نهاية شاعرنا الفتى بعد أن صدر منه ما صدر من هجائه المقذع لعمرو بن هند، غير ما سبق أن قاله من هجائيات لأشخاص كل منهم يرى أنه السيد المرموق!

وكان بإمكانه أن ينجو من هذا القتل بعد أن أتاح له خاله المتلمس أسباب النجاء -كما رأيت- لولا غروره واعتداده بذاته، واعتقاده الواهم أن أحداً لا يمكن أن يناله بسوء.

نعم مات طرفة بن العبد في سن العشرين -على الأرجح- ولكن بعد أن ترك ثروةً من الشعر العالي الرصين، ولا ريب أنه ترك من هذا الشعر ما لم يتركه معظم من تقدمت بهم السن من شعراء الجاهلية الفحول.

وكان طرفة شاعراً مقلاً بطبيعة الحال بحكم حياته القصيرة، غير أن إقلاله لم يخفض من مكانته -كما رأينا- بل رفعه إلى مكان البارزين من شعراء المعلقات.

وحسب طرفة أن يشهد له أفصح الخلق رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وذلك عندما سمع هذا البيت من شعر طرفة:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً

ويأتيك بالأخبار من لم تزود

فقال صلوات الله وسلامه عليه: "هو من كلام النبوة."

والحق أن من ميزات شعر طرفة شيوع الحكمة في أغلب شعره، بل إن الحكمة في شعره تكاد تكون سمته الواضحة بالرغم من أن حياته كانت تتسم بالعبث والانطلاق!

ومن أمثلة شعره في الحكمة قوله:

الخير أبقى وإن طال الزمان به
والشر أخبث ما أوعيت من زاد

وقوله:

لعمرك ما تدري الطوارق بالحصى
ولا زاجرات الطير ما الله فاعل

وقوله وهو في السجن:

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا
حنانيك بعض الشر أهون من بعض

وقوله:

أسلمني قومي ولم يغضبوا
لسوأة حلت بهم فادحه
وكلهم أروغُ من ثعلب
ما أشبه الليلة بالبارحه!

ومن شعره هذه الأبيات المتداولة: وهي مما قاله في صغره:

يا لك من قبُّرةٍ بمعمرٍ
خلا لك الجو فبيضي واصفري
ونقِّري ما شئتِ أن تنقِّري
قد ذهب الصياد عنك فابشري
ورفع الفخ فماذا تحذري
لا بد يوماً أن تصادي فاصبري!

ويقول طرفة أيضاً وهو مما يدل أبلغ دلالة على مدى تعمقه في فهم الحياة والأحياء.

وأعلم علماً ليس بالظن أنه **إذا ذل مولى المرء فهو ذليل!**
وأن لسان المرء ما لم تكن له **حصاة على عوراته لدليل!**

على أن أخلد روائع شعر شاعرنا طرفة بن العبد دون جدال هي معلقته الشهيرة، وكان سبب نظمه لها أن أخاه معبداً كانت له إبل ضـلَّت فأَراد طرفة أن يستعين بابن عمه "مالك" في طلبها، فلما ذهب إليه أعرض عنه مالك وقال له: "فرطت فيها ثم أقبلت تتعب في طلبها" فقال معلقته وفيها يعاتب أعمامه لأنهم كانوا ظلموه ومنعوا عنه حقه، وأبو إعطاءه إرثه من أبيه.

وما أشك في أن حياة طرفة بن العبد المضطربة، وكانت أشبه بحياة التشرد، إنما كانت نتيجة ما لحقه من ظلم أعمامه وظلم ابن عمه مالك هذا.. وأكاد أقول إنه ظلم البيئة التي عاش فيها، وكان حتماً في بيئة كهذه أن يظل طرفة وهو الشاعر المرهف الحس، يحيا حياته المضطربة هذه.. وأن يتبلور شعوره بهذا الظلم يلحقه من ذوي قرابته، وإنك لتجد صدى شعوره هذا الأليم في قوله:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة **على المرء من وقع الحسام المهنَّدِ**

واستمع إليه يقول في معلقته واصفاً نفسه مفتخراً بها:

إذا القوم قالوا من فتى خلت أنني **عنيتُ فلم أكسل ولم أتبلَّدِ**
ولست بحلال التلال مخافة **ولكن من يسترفد القوم يرفدِ**
فإن تبغني في حلقة القوم تلقني **وإن تلتمسني في الحوانيت تصطدِ**

وإن يلتقي الحي الجميع تلاقني
إلى ذروة البيت الشريف المصَّمدِ

إلى أن يقول:

رأيت بني غبراء لا ينكرونني
ولا أهل هذاك الطراف الممدَّد
ألاّ أيهذا الزاجري احضر الوغى
وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي
فإن كنت لا تسطيع دفع منيتي
فدعني أبادرها بما ملكت يدي

ومنها في الحكمة:

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي
عقيلة مال الفاحش المتشدِّدِ
أرى العيش كنزاً ناقصاً كل ليلةٍ
وما تنقص الأيام والدهر ينفدِ
لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى
لكالطول المرخي وثنياه باليد
متى ما يشأ يوماً يقده لحتفه
ومن يك في حبل المنية ينقدِ
فمالي أراني وابن عمي مالكاً
متى ادن منه ينأ عني ويبعدِ
وظلم ذوي القربى أشد مضاضة
على المرء من وقع الحسام المهنَّدِ

وأخيراً:

إذا ابتدر القوم السلاح وجدتني
منيعاً إذا بلت بقائمه يدي

فإن مت فانعيني بما أنا أهله
وشقي عليّ الجيب يا ابنة معبدِ

ولا تجعليني كامرىء ليس همه
كهمي، ولا يغني غنائي ومشهدي

فلو كنت وغلاً في الرجال لضرَّني
عداوة ذي الأصحاب والمتوحد

ولكن نفى عني الرجال جراءتي
عليهم وإقدامي وصدقي ومحتدي

لعمرك ما أمري عليَّ بغمة
نهاري، ولا ليلي عليّ بسرمدِ

أرى الموت أعداد النفوس ولا أرى
بعيداً غداً.. ما أقرب اليوم من غدِ

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً
ويأتيك بالأخبار من لم تزودِ

ويأتيك بالأخبار من لم تبع له
تباتاً ولم تضرب له وقت موعدِ

وبعد فهل هذا شعر يقوله شاعر في سن العشرين؟

ولم لا؟ إنها العبقرية، ما في ذلك شك! ولا شيء غير هذه العبقرية.

وليس هذا بالأمر الغريب، فقد شهدت العصور، وشهد عصرنا هذا الذي نعيش فيه أمثلةً حيةً من شعراء عاشوا في عمر الزهور، وكان شعرهم مثلاً حياً من شعر الحكمة، والتفرد والعبقرية.. ولنذكر هنا على سبيل المثال: "فوزي المعلوف" و "أبا القاسم الشابي" و "إبراهيم طوقان" و "التيجاني يوسف بشير."

شعراء الوطنية

ومن أحق من مؤرخ الحركة الوطنية في مصر "عبد الرحمن الرافعي" بأن يؤرخ لشعراء الوطنية فيها؟

وقد يكون من تحصيل الحاصل الإشادة بمؤلفات هذا الباحث الكبير، ولعلّه يكفي أن أشير هنا إلى مؤلفه الضخم في تاريخ الحركة القومية في مصر، وهو في أكثر من عشر مجلدات، تعتبر أوفى مرجع لتاريخ مصر الحديث.

وكتابه هذا "شعراء الوطنية" يحوي تراجم شيقة لخمسة عشر شاعراً من شعراء مصر منذ القرن الماضي "التاسع عشر" حتى العهد الأخير.

وكأنما أحس بعد أن اشتهر وعرفه الناس متفرغاً للناحية السياسية أحس أن الناس لا بد أن يتساءلوا عن بواعث تأليفه كتاباً عن شعراء الوطنية فنراه يقول:

"عندما أرخت الحركة القومية في أدوارها المتعاقبة تبينت مبلغ ما للشعر الوطني من أثر عميق في التمهيد لها وبعثها وإذكاء الروح الوطنية في نفوس المواطنين وتسجيل الحوادث الهامة في تاريخ مصر القومي ومن يومئذ وأنا تواق إلى أن أخصص لشعراء الوطنية سفراً منفرداً يجمع معظم ما جادت بهم قرائحهم من الشعر الوطني مع التعريف بشخصياتهم وذكر المناسبات التي أنشأوا فيها قصائدهم الوطنية.

أما طريقته في التعريف بشخصيات هؤلاء الشعراء فهي طريقة المؤرخ الباحث المستقصي، فهو يلخص حياة من يترجم له منهم دون أن يفوته أن يشير إلى أهم ما ينبغي أن يشار إليه من الحوادث التي مرت بحياة الشاعر، ثم لا يفوته أن يحلل، إلى جانب ذلك، ويوازن ويبدي رأيه صريحاً في شعره دون أن نلحظ في نقده أي غض من مكانة الشاعر المنقود.

يتحدث عن رفاعة رافع الطهطاوي ويبدي رأيه في شعره فيقول: ".. وهو أول رائد لنهضة العلم والأدب في النصف الأول من القرن التاسع عشر، كان شاعراً رقيقاً بالقياس إلى عصره، أشربت نفسه الوطنية منذ نعومة أظفاره، تلقاها من إيمانه الصادق، وحب الوطن من الإيمان.. ومن فطرته السليمة، وخلوص نيته، وقد استثار رحيله من مصر إلى فرنسا عاطفته الوطنية

العميقة المتأصلة في نفسه الحساسة فجادت قريحته وهو في باريس بقصيدة عبر فيها عن الحنين إلى الوطن وأهله والإشادة بمفاخره قال في مطلعها:

ناح الحمام على غصون البانِ
فأباح شيمة مغرمٍ ولهان

ثم يقول عنه في آخر الترجمة: "وإذا تأملت في شعر رفاعة رافع الذي نقلنا طرفاً منه وجدت فيه تقدماً نسبياً إذا قارنته بأسلوب شعراء المدرسة القديمة التي سبقته كالشبراوي، والعطار، والخشاب، وغيرهم، ويعد شعر ودور الانتقال إلى دولة الشعر الحديثة التي حمل لواءها البارودي وإسماعيل صبري وشوقي وحافظ.

حقاً إننا إذا وضعناه إلى جانب شعر شوقي مثلاً لجاء في المرتبة الثالثة أو الرابعة ولكن يجب ألاّ ننسى أن رفاعة نشأ في عصر كانت اللغة العربية وآدابها في دور تأخرها واضمحلالها فله على نهضة الشعر والأدب فضل لا ينكر.

بهذا الأسلوب الرقيق ينقد عبد الرحمن الرافعي شعراء كتابه، ويوازن بينهم، ويضع كل واحد منهم في مكانه في إنصاف، إنه أسلوب في النقد يجب أن يُحتذى!

ثم ينتقل الرافعي إلى عبد الله النديم الذي يرى أن المعاني الوطنية تجددت في شعره، بعد أن ظل الشعر في مصر خالياً منها بعد وفاة رفاعة رافع.

ثم يتحدث عن البارودي في إيجاز، ويشير إلى حياته في المنفى، فيقول:

.."وتجلت في منفاه صفاته العالية من الشمم، وعلو النفس، واحتمل آلام النفس بشجاعة وإباء، وصبر وإيمان، وله في ذلك شعر يفيض بهذه المعاني السامية قال وهو في سرنديب:

لم أقترف زلة تقضي علي بما
أصبحت فيه فماذا الويل والحربُ
فهل دفاعي عن ديني وعن وطني
ذنبُ أُدان به ظلماً وأغترب
فلا يظن بي الحساد مندمة
فإنني صابر في اللَّه محتسبُ

أثريت مجداً فلم أعبأ بما سلبت أيدي الحوادث مني فهو مكتسبُ
لا يخفض البؤس نفساً وهي عالية ولا يشيد بذكر الخامل النسبُ

تأمل أيها القارئ في قوله "أثريت مجداً" الوارد في البيت الرابع وترحم معي على أول من أقام للشعر العربي في العصر الحديث دولة شامخة البنيان؟!

ونلاحظ أن الرافعي يتخير من أجود ما قاله شــعراء كتابه.. حتى ولو كان من شــعرهم الذائع المشهور، كما ترى في هذه الأبيات التي يكاد كل متأدب يحفظها عن البارودي وهي:

امطري لؤلؤاً جبال سرنديب وفيضي آبار تكرور تبرا!
أنا إن عشت لست أعدم قوتاً وإذا مت لست أعدم قبرا
همتي همة الملوك ونفسي نفسُ حرٍ ترى المذلة كفرا

ومن شعر البارودي في منفاه قصيدته الخالدة:

ردوا على الصبا من عصري الخالي وهل يعود سواد اللَّمةِ البالي

والتي يقول فيها:

لا عيب فيَّ سوى حرية ملكت أعنتي عن قبول الذل بالمال!
قلبي سليمٌ ونفسي حرة ويدي مأمونة ولساني غير ختال
بلوت دهري فما أحمدت سيرته في سابق من لياليه ولا تالي

حلبت شطريه من يسر ومعسرةٍ وذقت طعميه من خصب وإمحالٍ

ويقول أيضاً:

علام أجزع والأيام تشهد لي بصدق ما كان من وسمي وإغفالي؟
راجعت فهرس آثاري فما لمحت بصيرتي فيه ما يزري بأعمال!
فكيف ينكر قومي فضل بادرتي وقد سرت حكمي فيهم وأمثالي؟
أنا ابن قولي وحسبي في الفخار به وإن غدوت كريم العم والخال!

ويتحدث الرافعي عن "إسماعيل صبري" أستاذ الشعراء فيقول عنه: "كان علماً من أعلام الطبقة الأولى من شعراء العصر الحديث وثانيهم بعد البارودي."

ومن شعر إسماعيل صبري هذه الأبيات، وهي تدل على مقدار ما يحمله من إباء وعزة نفس وإحساس بالكرامة، يقول:

أيها التائه المدل علينا ويك! قل لي: من أنت؟ إني نسيت
لو فرشت الطريق دراً لأخطو فوقه نحو داركم ما رضيت
أنا أغنى من أن يقال فلانٌ وفلان تزاورا.. ما حييتُ

ثم يتحدث عن شوقي وحافظ فيقول عنهما في ترجمته لشوقي:

"بلغ الشعر الوطني ذروته على لسان شوقي وحافظ، فقد حملا لواء النهضة الشعرية في العصر الحديث، وتغنيا بالوطنية، وكان للحوادث الكبرى التي وقعت في مصر والشرق صداها في

شعرهما، وكلاهما كان له أثره وفضله في تغذية الحركة الوطنية بعيون الشعر الوطني، سطع نجمهما في عصـــر واحد، وغرَّدا في جيل واحد، وانتقلا إلى جوار ربهما في عام واحد "1932" ولم تمض على وفاة حافظ ثلاثة أشهر حتى لحق به شوقي في الرفيق الأعلى."

ثم يقول بعد ذلك عن شوقي مشيراً إلى تلقيبه بأمير الشعراء، وما يحسن أن يلقب به الآن.

سمي شـوقي أمير الشـعراء، إلى أن يقول: إن شـوقي أكبر من أن يمجَّد بهذا اللقب.. ثم يقول: فهل نسـميه زعيم الشـعراء؟ إنه ولا ريب أقدر شـعراء عصـره، ولم يكن ينازعه في زعامة الشـعراء أحد من أنداده ومعاصريه، فلقد عقدوا له لواء الزعامة، وبايعوه عليها في المهرجان الذي أقيم له بمصر سنة 1927م وجمع أقطاب الشعراء من العالم العربي وخاطبه فيه صنوه حافظ بقوله:

أمير القوافي قد أتيت مبايعاً
وهذي وفود الشعر قد بايعت معي

على أن لقب زعيم الشـعراء لا يكفي للتعريف به، والتنويه بمكانته، وخير لقب له أن يسـمى "شاعر العربية الأكبر" وأن نسميه في هذا الكتاب "شاعر الوطنية الأكبر."

هذا ما يقوله عبد الرحمن الرافعي، فما رأي أعلام الأدب والنقد في ذلك؟

وقد أكثر المؤلف في الاختيار من شـعر شـوقي فبلغت صـفحات التعريف به وبشـعره (54) صفحة من الكتاب على حين أن البارودي كان نصيبه أقل من الربع من هذه الصفحات.

ثم يتحدث عن شـــاعر الحرية "خليل مطران" فيقول عنه "شـــاعر الحرية والعروبة، حمل لواء التجديد في الشـــعر نيفاً ونصـــف قرن من الزمان، وبلغ الذروة في عالم الشـــعر والفن والبلاغة والخيال."

ثم يقول عنه: "كان إنسـاناً في شـخصـه وفي أخلاقه، وفي شعره وفي أدبه، كان في شعره ينشـد الكمال، ويحلق في أجواء الحرية والوطنية."

كان يستلهم شعره من المثل العليا، وفي ذلك يقول عن نفسه في الاحتفال بيوبيله الذهبي سنة 1948م:

كان في الشعر لي مرام خطيرٌ
فعدا طوقي المرامُ الخطيرُ

هائم في الوجود أسأله الوحي	كما يسأل الغني الفقير
أكبروني ولست أكبر نفسي	أنا في الفن مستفيدٌ صغيرُ
لا يضق صدر شاعر بأخيه	يكره الفضل أن تضيق الصدور
والسماوات لو تأملت فيها	ليس تحصى شموسها والبدور

ثم يقول الرافعي عن الخليل:

"وبهذه الروح العالية، والنفس الصــــافية، والود الخالص، والإيثار، والأريحية، عاش محبوباً من معاصريه، يحبهم ويحبونه.. وينشد لهم الخير والكمال.

وقد أرخ في شعره الوطني العذب مراحل النهضة المصرية والشرقية وسجل حوادثها ووقائعها، وترجم لرجالها وأشخاصها، وغذى بقصائده الروح الوطنية جيلاً بعد جيل."

ثم يتحدث عن "أحمد محرم" و "أحمد نسيم" و "أحمد الكاشف" وهم الشعراء الثلاثة الأحامدة المعاصرون من شعراء الحزب الوطني وأولهم محرم.

ويقول الرافعي عن أحمد محرم: "شـــاعر ملهم من شـــعراء الوطنية والأخلاق كان أدباء الجيل يضعونه في صف حافظ ومطران."

وقد عرف عن محرم أنه إسلامي النزعة إلى جانب أنه شاعر وطني كبير، وهو ما لم يتفق لسواه من معاصريه، إذا استثنينا شوقي ومصطفى صادق الرافعي!

شـاعر آخر وطني شــهير، كان له دوره، وخاصــة في ثورة مصــر ســنة 1919م إنه الشــاعر البدوي كما يصفونه: محمد عبد المطلب.

يقول عنه الرافعي: "ولد ســـنة 1870م.. لأبوين عربيين مصـــريين من ســـلالة قبيلة جهينة إحدى قبائل جزيرة العرب."

وشاعرية محمد عبد المطلب قوية، وشعره جزل يحاكي فيه القدماء، وأكثر موضوعات قصائده في الوطنيات وفي ثورة مصر 1919م.

يقول من قصيدة في هذا المعنى:

مصر أمي فداء أمي حياتي سلمت أمناً من العاديات
يا رياح الحياة في مصر هبي روحينا بطيب ريَّا الحياةِ
يا سماء الحياة في مصر جودي أنفساً فوق نيلها صادياتِ
ما لأم الأمصار حمَّلها الدهر صنوف الآلام والموجعات

إلى آخر هذه الأبيات..

وللشاعر أحمد زكي أبي شادي في هذا الكتاب مكان مرموق!

ثم عبد الحليم المصري من الشعراء الضباط وقد توفي هذا الشاعر في ريعان شبابه عام 1922م.

ثم شاعر الشباب والحرية والوطنية: عزيز فهمي: الشاعر الحر المجاهد الطموح.

إن شعر عزيز فهمي يهز النفس حقاً، إنه في الصميم من شعر الوطنية فلنستمع إليه في أبيات من قصيدة نظمها وهو في السجن سنة 1946م يقول:

ذكرت مصر فهاجتني مواجعها وعزني الدمع حتى كدت أبكيها!
يا لائمي وأنا الجاني على كبدي دع عنك لومي فإن اللوم يغريها
كل يغني ليشجي سامراً وهوىً وقد يغني لأوطار يرجِّيها

وليس لي سامر فيها ولا وطرٌ ولا زعمت جوادي من مذاكيها
وإنما هي آلامي أكتمها حتى يضيق بها صدري فأحكيها
نزحت عنها فلم أعدل بها وطناً وبات قلبي أسيراً في مغانيها
وصنت شعري إلاّ عن مفاتنها وهمت في الأرض مسحوراً بواديها
ورق شعري كما رقت جداولها وراق وصفي كما راقت مجانيها
وما رأيت كناساً في جؤذره ولا ذكرت غزالاً في مراعيها

إلى أن يقول:

جارت عليها صروف الدهر واختلفت أيدي الرماة.. فآهاً من أعاديها
راشو لها السهم مسموماً فشتتها وكاد لولا يد الرحمن يصميها
وأثخنوها جراحاً في مقاتلها يا للجريمة من عدوان آسيها

ثم يقول:

فزعت من شرك يلقيه غاصبها قبل الجلاء لعلّ الوعد يغريها
وما الجلاء إذا شُدت بسلسلة من القيود وشرط الحلف يمليها

تشعب الرأي والأحزاب سادرة	ومصر صابرة والصبر يضنيها
وكيف تنهض من أسر يكبلها	والقيد آمرها.. والقيد ناهيها

شاعر آخر من شعراء الوطنية أشاد به المؤلف عبد الرحمن الرافعي وأعني به "علي الغاياتي."

والغاياتي من شــعراء الوطنية الأوائل، وله ديوان مشـــهور اسمه "وطنيتي" حكمت عليه المحاكم بسببه بالسجن، فاضطر إلى الهجرة إلى سويسرا

مِنَ السَّمَاء

هذا ديوان جديد للشاعر المصري المعروف الدكتور أحمد زكي أبو شادي أصدره من أمريكا حيث يقيم منذ عام 1946م مهاجراً إليها من موطنه القديم مصر.

والدكتور أبو شادي مهما اختلف النقّاد في شأنه، وفي شاعريته، فهو شاعر فذ.. له شعره المقروء، وله دواوينه الشعرية وقد بلغت أكثر من خمسة عشر ديواناً. وله عدا ذلك نشاط ملحوظ في غير ميادين الشعر، فهو طبيب، وهو كاتب ناقد –ولعلّه في هذه الناحية أكثر تعمقاً– وأخيراً لا ينسى القرّاء مجلته التي كان يصدرها في القاهرة وهي خاصة بموضوع "تربية النحل" مما دلّ على سعة علمه وتعدد مناحيه، واستطاعته أن يعمل في أكثر من ميدان.

وهنالك مجلته الأولى "أبولو" وهي مجلة خاصة بالشعر، ونقد الشعر، لقد كانت هذه المجلة الأولى من نوعها في الأقطار العربية، وكانت شهرتها وذيوعها عظيمين، وكان تأثيرها الأدبي على قصر المدة التي صدرت فيها –قوياً بحيث نستطيع أن نقول: إنها أوجدت "مدرسة" ذات طابع خاص، وطريقة خاصة، ما زال متخرجوها يسيطرون على الحركة الشعرية إلى اليوم في مصر وغيرها من بلاد العروبة.

ويظهر أن ما لقيه هذا الشاعر من عنت خصومه من الأدباء وغيرهم، كان فوق ما تحتمله نفسية شاعر حساس كأبي شادي. فما هو إلاّ أن شد عصا ترحاله إلى العالم الجديد!

لقد اتخذ أبو شادي أمريكا وطناً ثانياً له، وها هو الآن يعمل في صحافتها ولعلّه يشارك هناك كما هو العهد به في عدة ميادين أخرى، من ميادين العمل والتفكير.

وقد كتب الشاعر مقدمة ديوانه الجديد "من السماء" بقلمه هو.. ولا نشك في أنك ستقول إذا ما قرأت هذه المقدمة إن أبا شادي كاتب ناقد موهوب، يجيد النقد والتحليل، ويجيد ذوق الشعر، فأسمعه حين يقول عن مقومات الشعر:

"للشعر مقومات تتنوّع في تركيبها، ولكن لا ينفرد أيها به، وأولى مقومات الشعر الصادق "التجربة الشعرية" أي تأثر الشاعر بعامل معين أو بأكثر، واستجابته إليه أو إليها استجابة انفعالية قد يكتنفها وقد لا يكتنفها، ولكن لا تتخلى العاطفة أبداً عنها، إذ إنهما حينما يبتعدان

يتجرد الشعر من أبدع صفاته الأصلية ويصبح "نظماً خلاباً" على أفضل تقدير أو ينعت "بشعر الذكاء" تجاوزاً" الخ.

فهذا التعريف لإحدى مقومات الشعر، تعريف صحيح ولا شك، إذ أن التجربة الشعرية، التي هي تأثر الشاعر بعامل معين، أي منظر معين، أو حادث معين.. هذه التجربة هي العنصر الأول من عناصر الشعر، وكلما قويت العاطفة حيال هذه التجربة، ثم كلما كانت العناصر الأخرى للشعر قوية هي أيضاً، كان الشعر حرياً بأن يسمى شعراً.. وحرياً بأن يهز النفوس.

وما أدق وصف الدكتور أبي شادي للشعر الذي يخلو من التجربة أو العاطفة في وصفه له أنه "شعر خلاّب" أو أنه "ينعت بشعر الذكاء" إنه بهذه الدقة في الوصف قد استطاع أن يخرج طائفة كبيرة جداً من منظومات الشعراء قديماً وحديثاً من مجموعة الشعر الصحيح!

ولعلّ أشعار المناسبات تمتاز قبل غيرها بأن أكثرها –ولا أقول كلها– من هذا الشعر الخلاب، وقد يكون قسم كبير منها من شعر الذكاء.

ومن هذا النوع الخلاب أكثر ما يقرأ من شعر الغزل. حيث ينظم الشاعر شعراً يسميه غزلياً. وهو إنما ينظمه تقليداً ومحاكاة من غير أن يحمل قلبه أي عاطفة من عواطف الحب الصميم!

والآن ما هو القول في شعر أبي شادي نفسه، على ضوء تعريفه السابق؟ وبديهي أننا هنا لا نعني مجموع شعره في دواوينه القديمة، فقد يكون الرأي في ذلك قد انتهى، وقد يكون مجال الخلف ما زال شاسعاً بين ناقدي الدكتور.

وإنما نعني مجموعة شعره الجديد، في ديوانه الجديد "من السماء."

وأول ما يتبادر للذهن من هذا الاسم الذي اختاره الشاعر لديوانه، ولكن لا بأس فمن حق الشعراء أن يغفر الناس لهم بعض الشذوذ، ومن حقهم أن يعيشوا في عوالم خاصة، ومن حقهم أن يحلموا، بل من حقهم أن يأتوا أحياناً بالمفارقات وأن يكون الغموض نمطاً من أنماطهم، لأن المدرسة الرمزية في الشعر تفرض كل هذا الحق لشعرائها، وأبو شادي من محبذي الرمزية –كما يقول في مقدمة الديوان– وكثير من قصائد هذا الديوان نهج فيها المنهج الرمزي.

ولعلّ تسمية الديوان أتت، لأن القصيدة الأولى في الديوان عنوانها "من السماء" وفي هذه القصيدة يقول الشاعر:

قالت "الأرض" ما الشموس العوالي في نجاء، وإن تكن لا تبالي
في سحيق الآباد يوماً ستخبو وتلاقي مآلها من مآلي
أنت يا شاعري تجازف بالحـ ـبِ إذا دمت عبد هذا الخيال

وقصيدته، أو مقطوعته التي عنوانها "الموتى المشردون" أظن أنها تلفت نظرك لأنها تعبر عما يحسه الشاعر من مضاضة، ولأنها تشير إلى ظاهرة عامة كثيراً ما يغفل عن أمثالها شعراء الأبراج العاجية، أو شعراء الترف الفني. قال الشاعر موجهاً خطابه إلى الملك فاروق:

مولاي حب الشعب أعظم ثروة لك من كنوز التاج والسلطان
كن أنت رائده ووزع أرضه لبنيه كالفاروق في الإحسان!
ما شأن آلاف الفدادين التي هي كالمقابر للسواد العاني؟
ذهبوا بأرجاء البلاد تشرداً وتكفنوا بمذلة وهوان
وجميعهم موتى وتلك لحودهم ملء الضياع الفخمة العمران
تركوا المقابر صاغرين فعيشهم ومماتهم بهوانهم سيان
وتجاوبوا بأنينهم وسقامهم وجراحهم في عالم البهتان

أنت العظيم فلا تدع إخلاصهم لك يستباح بلا هدى وأماني
بل لا تدعهم في الورى أمثولة لتدهور الإنسان بالإنسان!

فهذا نوع من الشعر الحي الصادق، والتجربة فيه ماثلة، والعاطفة فيه قوية، ثم هو شعر صادق لأنه يعبر عن إحساس يكاد يكون عاماً، إنه إحساس أمة وشعب لا إحساس فرد يعيش في عالم من عوالم الحب والجمال، ينظم لأجل الفن، ولسان حاله يقول: "أنا وبعدي الطوفان."

وليس يعيب الشاعر أن ينظم متغنياً بالجمال، معبراً عن حبه الصادق.. إن حب الجمال من طبيعة الإنسانية، وكلما قوي هذا الحب كان دليلاً على الحس المرهف وسلامة الذوق ونبيل السجايا، وإنما الذي يعاب على الشاعر حقاً أن يعيش منطوياً على نفسه لا يشعر بما يشعر به الناس من آلام وآمال، أو يساهم بأدبه في التعبير عن شعورهم في حرية وانطلاق، وصدق وإخلاص.

وللشاعر أبي شادي في مواقف الحب والتغني بالجمال، جولات وجولات، ولعلّك تجد في قصيدته "الحنين" صورة تعبيرية ناطقة عن حساسية الشاعر وشدة ولهه بالجمال، وحيرته في موقف الحبيبة منه وموقفه منها، قال في هذه القصيدة:

كم يستبد الحنين! أواه لو تعلمين!
وكم يئن فؤادي وما شكوت الأنين
كأن باقي عذابي فروض نسك ودين
كأن طول احتمالي غنم بقلبي الغبين

ساءلت عني ولكن

شكي يردُّ اليقين!

وكلما زدت قربا

بعدت أو تبعدين

ألقاك نشوان لكن

حزني بقلبي دفين

على جمال مضاع

ما كان للعابثين

أولى به وحي فن

ووحي حب أمين

لكم هتفت بشعري

فبات شعري الثمين

وضع خمراً حلالاً

من فيك للظامئين

أصغي إليك بحلمي

وأنت حلمي المبين

في حيرة لم تكيف

على امتحان السنين

أصار حبي عزيزاً

في حين حبي مهين!

أتحفلين بشعري

ولست بي تحفلين؟

وعلى هذا الغرار تجد معظم قصائد الشاعر الغزلية، كقصيدته "الفن الضائع" التي يقول فيها:

لمن تمنحين الحب دوني عن عمد
وماذا يرجى الحب من شاعر بعدي
وحسنك أولى أن يصان جلاله
على الفن، حين الفن كالحسن للخد

ويضيق بنا المقام لو حاولنا أن نقف عند كل قصيدة من قصائد هذا الديوان إلاّ أننا نشير إلى ما أعجبنا به منها كقصائده "نجوى العيد" و "الإسكندرية الفنانة" و "الربيع" و "حوريات الماء" و "الأمواج" و "معركة الحب" و "قلب لا يشيب" و "قبلة أعوام" و "رثاء أسمهان" و "رثاء أحمد محرم" و "رثاء زوجتي" و "فني وحياتي" و "رثاء خليل مطران."

الشاعر محمود غنيم[22]

الشـــاعر الذي أريد أن أتحدث عنه في هذا المقال، وأســتعرض شــيئاً من شــعره في القومية والسياسـة والاجتماع، هو شـاعر مرموق، من شـعراء مصـر حاملة لواء النهضـة الفكرية في عالم العروبة والإسلام.

محمود غنيم.. شاعر معاصر من شعراء مصر، ومصر خليقة بكل إعجاب وإكبار، بمن أنجبت ولا تزال تنجب منذ أوائل عصـر النهضـة الحديثة في العالم العربي؛ من قادة للفكر، وأسـاطين في العلم والفن، ونوابغ في الشعر والبيان.

وحقيقة، قد يمكن أن يقال إن محمود غنيم، ليس أشـعر شـعراء مصــر اليوم، وحقيقة قد لا يعده بعضهم في الرعيل الأول.. وقد يقول فيه بعض نقاد المدرسة الشعرية الحديثة أشياء وأشياء، ولكن الذي لا خلاف فيه، هو أنه شـــاعر مصـــر الاجتماعي الأول، في هذا الأوان، أو هو – بحق– خليفة شـــاعر النيل "حافظ إبراهيم"، كما قال عنه ذلك كاتب عربي مهجري، معروف في الأوساط الأدبية، هو الأستاذ توفيق ضعون.

ولست أبعد، إذا قلت: إن شهرة محمود غنيم كشاعر، وعلى الخصوص فيما هو خارج حدود مصـر من الأقطار العربية، هذه الشـهرة قد بذت غيرها.. ولعلّ مرد ذلك هو إلى انفراد الشـاعر بمزيتين، أولاهما: ميله الواضـح إلى الوضـوح، مع قوة في الأداء، وارتفاع في الأسـلوب، وحسـن انتقاء للألفاظ.. إلى جانب صـدق العاطفة والإحسـاس وعدم إهمال الفكرة، أو الإغضـاء عن وحدة الموضوع.

وطبيعي أن يتواءم مع هذا الميل إلى الوضـــوح، ابتعاده عن الرمزية.. وما الرمزية إلاّ بدعة شـعرية، نشـأت أول ما نشـأت في الغرب، ووفدت إلى هذا الشـرق العربي، أول ما وفدت، في

---

(22) - مجلة الحج عدد ربيع الأول 1368هـ.

مطلع القرن العشرين ولكن أُتيح لها أن تبقى في ربوعه إلى اليوم، وإن كانت هي في وطنها الأوروبي الفرنسي –كما يظهر– لم يبق لها الآن، ما كان لها بالأمس من قيمة أو احتفال.

أما ثانية هاتين المزيتين للشاعر محمود غنيم، فهي شعره الاجتماعي والقومي، إذ الواقع أن هذا الشاعر يكاد ينفرد بين شعراء الجيل الجديد في مصر، بأنه أكثرهم اتجاهاً إلى مواضيع الاجتماع، وإلى المواضيع القومية، فإذا كان ما يحدثه شعر الشاعر من أثر قوي في النفس، دليلاً على صدق الشاعر في تعبيره الشعري، كان لنا أن نقول عن شعر محمود غنيم الاجتماعي والقومي: إنه شعر صادر عن إحساس عميق، وعاطفة جياشة، وإيمان بما يقول.. فلا تعمل ولا افتعال.

وديوان محمود غنيم "صرخة في واد" –وهو الديوان الذي نال جائزة الشعر الأولى، في مسابقة مجمع القاهرة للغة العربية لعام 1947، كما أنه الديوان الأول للشاعر– حافل بمجموعة من أجود الشعر.. وهذه المجموعة لا أظنها كل ما نظمه الشاعر، وإنما يبدو أنها مختارات من شعره من أول عهده بالشعر، حتى عام 1947م.

ولعلّ طابع المحافظة.. –وهو ما يحاول شعراء المدرسة الحديثة في مصر أن يلصقوه بالشاعر محمود غنيم– يبدو جلياً في طريقة الشاعر في تقسيمه لديوانه، إلى أبواب تسعة.. في "الحرب" و "الاجتماع" و "الوصف" و "المرأة" و "عبرات" و "تحيات" و "زفرات" و "دعابات" و "أشتات".. وهذه الطريقة هي الموسومة بها مدرسة حافظ وشوقي في مصر، والرصافي والشبيبي في العراق.

وليس الغرض هنا، أن نتحدث حديثاً شاملاً عن هذا الديوان، فقد يكون لهذا الحديث مجاله الآخر.. وإنما نريد أن نلقي نظرة على شيء من شعره الاجتماعي، وبخاصة ما كان منه في الصميم.. من المواضيع الشرقية والإسلامية والعربية، وما يمس النضال بين الشرق والغرب، والحرية والاستعمار، وما يتصل بالحرب والسلام، واصفاً أهوال الحرب، وآلام الإنسانية من فعلها الوحشي الرهيب، وآمال الإنسانية في السلام، أو في سراب السلام.. انظر إلى الشاعر،

كيف يخاطب السلام في قصيدته "فجر السلام" هي التي أنشأها عندما وضعت الحرب العالمية الأخيرة أوزارها، فيقول:

أدرك بفجرك عالماً، مكروباً	**عوذت فجرك أن يكون كذوبا!**
يا أيها السلم المطل على الورى	**طوبى لعهدك، أن يحقق، طوبى!**
ما بال وجهك بعد طول حجابه	**يحكي وجوه العاشقين شحوبا**
رحماك طال الليل واتصل السرى	**حتى تساقطت النفوس لغوبا**
لفحت لظى الحرب الوجوه فطف بها	**كالزهر نفحاً والنسيم هبوبا**
لم يبق في مجرى الدماء بقية	**شكت العروق من الدماء نضوبا**
طحنت فريقيها الحروب بضرسها	**لا غالباً رحمت، ولا مغلوبا**

وعلى هذا النسق يمضي الشاعر في تصويره الدقيق لما جرته تلك الحرب من أهوال على العالم بأسره، أفراداً وجماعات إلى أن يصل إلى.. إلى يوم النصر! فيتساءل في مرارة عميقة، وألم دفين، عن أعراس هذا اليوم أين نقيمها؟

أعراس يوم النصر أين نقيمها؟ **المدن صرن خرائبا، ولهيبا**
هيهات أن تنسى البلاد حدادها **أو تسترد جمالها المسلوبا!**
تعدو الحضارة.. وهي داء فاتك **وتسير في خطو الكسيح طبيبا**

إلى أن يقول:

أمم بنت ركن الحضارة عالياً ما بالها، لم تأله تخريبا!
الأوصياء القيّمون على الورى تركوا الورى بدمائهم مخضوبا
فرض القوي على الضعيف رقابة من ذا يكون على الرقيب رقيبا؟
من للرعيل ومن لقادته؟ لقد ضلّ الجميع مسالكاً ودروبا!
خلوا مقاليد الشعوب لأمة عزلاء، تقنع بالكفاف نصيبا
القوت عنوان الحياة فما له أمسى يبيد ممالكاً وشعوبا؟

وهكذا يعجب الشاعر من أمم بنت ركن الحضارة عالياً، ولكنها ما تنفك تعمل على تخريبه.. ومن أوصياء جعلوا من أنفسهم –تطوعاً واحتساباً– قيمين على الشعوب، ناسين أنهم تركوا الشعوب مخضوبة بالدماء. ومن قوي فرض رقابته على ضعيف.. ثم يسأل في سخرية ممضة –وأكبر الظن أنه نسي في هذه اللحظة الشعرية هيئة الأمم المتحدة– إنه يسأل، ويسأل: من ذا يكون رقيباً على الرقيب؟

وأنت لا ترى الشاعر إلاّ ضارباً على هذا الوتر، كلما عرض في شعره لقضية الحرب والنصر والسلام، ففي قصيدته "لاح الهلال" يقول:

الغرب أولع بالدماء، فما ترى
إلاّ قراعاً فيه إثر قراع
يبتاع بالعمران نصراً زائفاً
حضرت لعمرك صفقة المبتاع
لا حربه أبقت، ولا بسلامه
شفيت لنا كبد من الأوجاع
ويح السلام جنى القوي ثماره
وكوى الضعيف بجمره اللذاع
ما بال من أبدى الشجاعة في الوغى
خاض السلام.. فكان غير شجاع

إلى أن يقول:

خطوا الوثائق في المحيط فحينما
أمنوا العدو.. رموا بها في القاع
مضت الحروب بقدسها. فإذا بها
في السلم بضعة أسطر ورقاع

كتب الشقاء لأمة مهضومة تجري وراء سرابها الخداع

وفي قصيدته بعنوان "جنازة السلام" ينعي هذا السلام، وينعي معه أوروبا، ويتحرق أسفاً على:

طفل بريء ذاق من يد أمه كأس الحمام

وليست أم هذا الطفل البريء، إلاّ أوروبا التي يقول عنها:

وضعته أوروبا لنا يا ليت أوروبا عقام!

ويستمر في وصف هذا الطفل البريء، ويقول:

لهفي عليه ممزق الأ وصال منتثر العظام!
عصفت به ريح الوغى عصفاً وغطاه القتام

إلى أن يقول:

ليس السلام بسائد ما دام في الدنيا حطام!
ما الناس إلاّ الناس في عصر الضياء أو الظلام

سيان من سكن القصو ر الشم أو سكن الخيام
بسوى الدم المسفوح لا يروي لظامئهم أوام
وأحب ما وقعت عليه عيونهم جثث وهام
وهو ابن آدم ينتشي من خمرة الدم والمدام
الذئب كالإنسان لو يتعلم الذئب النظام!!

أما قصيدة الشاعر "ثورة على الحضارة" فلعلّها من أروع ما قيل في موضوعها فكرة وأسلوباً، فاسمع:

ذرعتم الجو أشباراً وأميالاً وجبتم البحر أعماقاً وأطوالاً
فهل نقصتم هموم العيش خردلة؟ أو زدتمو في نعيم العيش مثقالا؟

إلى أن يقول:

إني أرى الناس ما زادوا رفاهية **في العيش؟ زادوه تعقيداً وإشكالاً**
تجاوز العرف والعادات حدهما **فأصبحا في رقاب الناس أغلالا**
يا طالما حدثتني النفس قائلة **أنحن أنعم أم أجدادنا بالا؟**

ولك أن تتأمل بعد.. في هذا التصوير الصادق لمعائب الحضارة.. هذا التصوير الذي يتسم بسمة الشاعر الأصيلة في الميل إلى الوضوح.. ولكنه الوضوح الذي يتسامق على أصحاب الرمزية.. وأنصار الغموض على اعتبار أن الرمزية والغموض لديهم، هما معيار التجديد، ومقياس الفن، وميسم الجدة.. وعلامة المستقبلية.. فأي تصوير بلغ ما بلغ، يجعلك تتمثل أمامك ما تحسه في نفسك وتطالعه صباح مساء، من مثالب حضارة القرن العشرين المادية، كالذي تراه في هذه الأبيات:

تحضر الناس، حتى ما لمكرمة **قدس لديهم ولكن قدسوا المالا**
في كل مملكة حرب منظمة **تضم جيشين: ملاكاً، وعمالا**
يد السياسة. بالأخلاق قد عبثت **وقوض العلم صرح الدين؛ فانهالا**

البدو أكرم أخلاقاً.. وأحسبهم لله أكثر تقديساً وإجلالا
قالوا: تألق نور العلم، قلت لهم: بل ناره أصبحت تزداد إشعالا!

ثم يقول:

ابن الحضارة، جسم دون عاطفة يكاد يحسبه رائيه تمثالا
رسالة الغرب، لا كانت رسالته كم سامنا باسمها خسفاً وإذلالا
تغزو الحضارة أقواماً، لتسعدهم والزنج أسعد من أربابها حالا

وقبل أن أختم هذا المقال، لا بد لي من أن أشير إلى قصيدة "مجد الإسلام أو وقفة على طلل" التي يقول في أولها:

ما لي وللنجم يرعاني وأرعاه أمسى كلانا يعاف الغمض جفناه
لي فيك يا ليل آهات أرددها أواه لو أجدت المحزون، أواه!

لا تحسبني محباً يشتكي وصبا **أهون بما في سبيل الحب ألقاه**
إني تذكرت –والذكرى مؤرقة– **مجداً تليداً بأيدينا أضعناه!!**
أنَّى اتجهت إلى الإسلام في بلد **تجده كالطير، مقصوصاً جناحاه!**
ويح العروبة كان الكون مسرحها **فأصبحت تتوارى في زواياه**
كم صرفتنا يد كنا نصرفها **وبات يملكنا شعب ملكناه**
كم بالعراق، وكم بالهند ذو شجن **شكا، فرددت الأهرام شكواه**
بني العمومة. إن القرح مسكمو **ومسنا.. نحن في الآلام أشباه**

ولعلّ بيت القصيد الأول، في هذه القصيدة –وكل بيت من أبياتها بيت قصيد– هو قوله:

ما بال شمل شعوب الضاد منصدعا **رباه.. أدرك شعوب الضاد، رباه!**

مع شاعر العرب

شـاعر العرب الكبير، أو الشـاعر الأول بين طلائع الشـعراء الأحرار، الذين طالما غنُّوا على وتر الدعوة إلى حرية الشـعوب العربية، وهتفوا بأناشـيد الاسـتقلال، وأهابوا بالعرب جميعاً على اختلاف الديار، إلى وجوب التحفز والنهوض من أجل حياة جديدة صـالحة، حياة تليق بأمة عظيمة كالأمة العربية حملت راية الإسـلام والنور والمدنية إلى العالم أجمع.. شـاعر العرب الشـيخ فؤاد الخطيب والذي يشـهد له شعره بكل هذا الذي نقول، يقف مرفوع الرأس كشاعر سياسي واجتماعي من الطراز الأول إلى جانب الأوائل من نظرائه ومعاصـريه.. إلى جانب "أحمد شـوقي" و "معروف الرصافي" و "حافظ إبراهيم" وغيرهم.

في حفل كبير ضـم النخبة من رجالات الأدب والفكر، اسـتمع الحاضـرون إلى الشـيخ فؤاد يلقي قصيدته الرائعة والتي بدأها بقوله:

من مهبط الوحي حول البيت والحرم تترى البشائر من خير ومن نعم
والدار قد شهد العهد الجديد لها بالفجر منبلجاً عن نهضة عمم
فبت من روعة الآثار أشهدها في حيرة وكأني كنت في حُلُم
فالبر يترعه العمران منتشراً ومن أراد نهوض الشعب لم ينم!

أجل.. ما أروعها من حقيقةٍ تقال هنا.. بل ما أروع الحقائق حين يتلقاها الســـامعون أو القارئون مياسةً في ثوب من الفن الرفيع، مزهوةً في بيتٍ من الشعر الصادق الجميل!

وإنها لإحدى الحقائق الكبرى هذا الذي نعنيه من إرادة حياة الشعب، وإرادة نهوض الشعب، وما ينبغي لهما.. فما من إنسان ينكر ذلك أبداً.

إذن ما سر الإبداع في هذا الذي أسمعنا إياه شاعرنا الكبير؟

إنها دولة الشعر أو عبقرية الشعر تستطيع وحدها أن تحيل ما يسمُونه "الحقائق العادية" إلى حقائق غير عادية.. وهي حينئذ أحرى أن تبدو للســامعين أو القارئين أكثر وضــوحاً وإشــراقاً، وأكثر روعة وقوةً ومن ثم أكثر تأثيراً في النفوس!

وهذا الذي يفصــح عنه شــاعر العرب –هو عينه ما طالما عبر عنه في مختلف المواقف، وهو نفســه ما لهج به في شــعره طوال الســنين، فالروح هي الروح علواً وسمواً، والنزعة هي النزعة، والهدف هو الهدف، من حيث اهتمام الشـــاعر بكل ما يمس حياة أمته العربية، اسمعه في أول قصائده في الجزء الأول من ديوانه، وهي بعنوان "آمال وآلام" يقول:

رفعت صوتي فهل من يشرئبُ له أم غفلة بعد هذا الصوت أم صممُ
لم أخش من جاهل يبدي نواجذه غيظاً وإن كلمته تلكمُ الكلمُ!
لكن أرى أمة في اللهو سادرة وخير ما يستفز اللاهي الألمُ!

وأقتل الداء ما نغضي مجاملةً عليه، والضعف يخفيه فينكتمُ
غداً يقولون "رجعي" وكل فتى في العُرب يرجو نهوضاً فهو مُتَّهمُ
ذرهم وإن جازفوا في الحكم وأفتأتوا فلست إلاّ إلى شيئين أحتكم
إلى الضمير الذي لم يغشه دنسُ إلى الفؤاد الذي لم يعره سقمُ

ففي هذه الأبيات الطليقة، والمتسمة بروح الحرية والصراحة والإخلاص المحض للأمة، وفي غيرها أيضاً مما سيأتيك، لن نرى من شاعرنا سوى ذلك الشاعر الأبي الغيور، ذي النزعة المتحررة، والذي لا يعنيه أن يحتكم لسوى ضميره النقي، وإلى فؤاده الصادق الحب لأمته العربية المسلمة، هذه هي روح الشاعر متجلية دائماً في كل ما أبدعه من شعره في الماضي والحاضر، وهذه هي نفس الروح المتوثبة في شعره الذي استمعنا إليه.

واستمع إليه في قصيدة أخرى من قصائد ديوانه الأول، يقول فيها مخاطباً قومه العرب:

فيا قوم هل للعُرب في الشرق نهضة فإني أخشى إن تجاوزنا غدا
وهل لعيوني قبل موتي أن ترى فتى عربياً يأنف الذُّل مقعدا

يرد على أم اللغات جلالها

ويجعل للمجد الطريق معبَّدا

وكأنما كان ذلك الداء العضـــال، داء الحزبية البغيض.. العقبة الكأدآء في طريق قومه العرب حتى في أول مراحل نضـــالهم.. ولعلّ هذا ما حدا بالشـــاعر أن يقول في نبرة واضـــحة من الألم والإشفاق:

ولي أمة حاولت ضم شتاتها

فلم ترد "الأحزاب" إلاّ تمردا

أهبت بهم أن يرفقوا فتفرقوا

وقد ضربوا لي ليلة الحشر موعدا

أرى العرب شعباً كلما غالب الكرى

سقته دهاقين السياسة مرقدا

وفي قصيدته الثائرة بعنوان: أين الأسطول وأين الرجال، تراه يقول:

لم يُغن تحذيرٌ ولا إغراءُ

فقد استوى الأموات والأحياء

أَنَّي صرخت فلم يكن إلاّ صدىً

مرت به الأرواح والأنواءُ

يا قوم ما هذا الجمود فحسبكم

إن الجمود إذا استطال "فناءُ"

الله أكبر هل جهلتهم أنكم نهب القوي وأنتمو ضعفاءُ
ساد التنازع في البقاء فلم يعد فيه لمن نبذ الجهاد بقاء

إلى أن يقول:

إن الرزيَّة أن تكون بلادكم بيد الغريب وأنتمو الغُرباءُ

وفي هذه القصيدة نفسها يشير إلى فكرة تعزيز السلام.. وأظنك ستقول بعد أن تتأمل الأبيات التالية إنه إنما قالها في هذه الأيام، أو هذه الأعوام، لأنها تصوير وأي تصوير للواقع الحاضر في عالم ما بعد الحرب.. ولأنها تدلنا على أن نغمة السلام، نغمة قديمة، ولأنها تزيدنا إيقاناً بالكلمة المأثورة: "التاريخ يعيد نفسه" وهذه هي الأبيات:

هتفوا بتعزيز السلام وإنما هي خدعة يرضى بها الجهلاءُ
أفلم تروا سُفناً تنوء بجهدهم ضاق الفضاء، وغصَّ منها الماءُ
ركبوا البحار فأدركوا ما أمَّلوا سيَّان أرض عندهم وسماءُ

ثم في قصيدة الامتيازات، يقول مخاطباً الشرق:

أيها الشرق أنت في خدمة الـ	غرب كما يخدم اليتيمُ الوصيَّا
فهو يمتص من دمائك ما شا	ء وقد عز أن تراه رضيا
إيه يا شرق حان أن تتفانى	في المعالي لا أن نكون دعيًّا
أفنجني منك القتاد.. ولكن	يجد الغرب فيك زهراً جنيًّا

وبعد فهذه لمحة.. وليست دراسة، كما يجب أن تكون الدراسة، عن شاعر العرب الشيخ فؤاد الخطيب.

وقد لا تكون هذه النماذج أجود ما حواه الجزء الأول من "ديوان الخطيب."

فهل آن الأوان لكي تحظى المكتبة العربية بديوانه الكامل؟ ذلك ما نرجوه ويرجوه القارئون جميعاً . [23]

---

(23) - كتب هذا الفصل قبل أن تظهر طبعة الديوان بجزأيه الأول والثاني .

محمَّد رضَا الشبيبي

من المعروف أن النصف الأول من هذا القرن العشرين يعتبر عصر الازدهار للشعر العربي الحديث!

وكانت اليقظة الفكرية في العالم العربي –أو في بعض أنحاء هذا العالم العربي على الأصح– من أهم العوامل التي سبقت هذا الازدهار.

لقد كان بعثاً جديداً حقاً.. لاحت أضواؤه منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي وكان البارودي في مصر، وروّاد آخرون قلائل في كلٍّ من الشام والعراق حاملي راية هذا البعث الجديد.

وليس من المغالاة أن نقول إنها كانت أشبه بالطفرة وثبة أولئك الروّاد الأولين بالشعر العربي.. فإنه من الواضح أنه إلى ما قبل عهدهم مباشرة كان الشعر بل الأدب العربي عامة، بل الحياة العربية والإسلامية من جميع نواحيها قد وصلت إلى نهاية الحضيض.

لقد بدأ العرب منذ أواخر القرن الماضي وأوائل القرن العشرين يشعرون حقاً بأنهم قد أقبلوا على عهد ناهض جديد، ومن ناحية الأدب والشعر خاصة بدأوا لأول مرة يقرأون شعراً ناضجاً قوياً يتميز بإشراق أسلوبه وجدِّية معانيه!

ومنذ ذلك العهد عرفوا لأول مرة إبراهيم اليازجي ناظم أول قصيدة سياسية في الأدب العربي الحديث.. وما هو إلاّ أن ظهرت بعده في الميدان أسماء أعلام النهضة الشعرية الجديدة: شوقي وحافظ إبراهيم وخليل مطران ومعروف الرصافي ومحمد رضا الشبيبي وبشارة الخوري وفؤاد الخطيب وغير هؤلاء.

وفي الحجاز كان شاعر آخر يتابع هذه الحركة، ويساير هذا الوثوب ولعلّك ستقول معي دون أي تردد إنه شاعرنا: شاعر المدينة المنورة المعروف إبراهيم الأسكوبي.

لقد أثبت شاعرنا الأسكوبي أنه خلافاً لمعاصريه من الشعراء الحجازيين شاعر متوثب، شاعر يعيش مع الأحداث، ولعلّ قصيدته السياسية وهي التي نظمها في أواخر عهد الدولة العثمانية، ناصحاً فيها تلك الدولة، والتي قام لها الحكّام العثمانيون وقعدوا يوم أن نشرتها إحدى صحف مصر الكبرى وأظنها "المؤيد" لعلّ قصيدته هذه من أقرب الأدلة على هذا الذي نقول.

وفي الواقع كانت الأمور في أواخر العصر العثماني مجالاً خصباً لشعر الشعراء وكان الوعي القومي السياسي قد أخذ في الظهور شيئاً فشيئاً إلى ما قبيل الحرب العالمية الأولى.

ولعلّ الرصافي والشبيبي والشيخ فؤاد الخطيب كانوا في طليعة الشعراء العرب ممن تصدوا لمناوأة أوضاع ذلك العصر التركي ونادوا بالحرية والاستقلال!

وكان لشاعر العراق محمد رضا الشبيبي –وهو موضوع الحديث هنا– مواقف في هذا المجال تستحق الإشادة والتنويه.

وللشبيبي في شعره ميزة خاصة بين باقي شعراء العربية من أنداده ومعاصريه تتركز في أسلوبه المشرق الرصين، أسلوبه الذي يذكر بشعر العصر العباسي الزاهر كما وصفه بذلك "أنطون الجميّل" في مجلته الزهور يوم كانت تصدر في مصر في تلك الأيام وسنجد مصداق هذا الوصف في سائر شعر الشبيبي.

ولا نذهب بعيداً فهذه إحدى قصائده بعنوان "في سبيل الشرق" وكانت نشرتها "الزهور" في عام 1331هـ –1912م وكما تقول الكلمة المصدرة بها هذه القصيدة في ديوان الشبيبي: "لقد توقع الشاعر في هذه القصيدة تمزق شمل الدولة العثمانية وانسلاخ القطار العربية عنها وذلك قبل الحرب العامة بعدة سنوات."

يقول الشبيبي في هذه القصيدة:

لم يبق لي إلاّ الشباب وإنه ديباجة ضمن الأسى إخلاقها
نزلت بحيرتي الهموم فلم يطق حتى نزلن بكاهلي فأطاقها
* * *
وكرهتها.. ومن العجائب إنني لشديد ألفتها كرهت فراقها!
أشتاق اطَّرح الهموم ويقتضي ظمأي إلى الآلام أن أشتاقها!

* * *

ولربما عرف المحبون التي
تجني الشقاء فأصبحوا عشاقها!

شأن الفراشة واللهيب فإنها
تغشاه وهو مُسَبِّبٌ إحراقها!

يشكو الصبابة كل يوم مُدَّعٍ
وأحقنا دعوى بها من ذاقها!

* * *

مرت بنا الأمم الطليقة وانثنت
أخرى تعالج أسرها ووثاقها!

هذي الجياد فمن تعاطى شأوها
يا شرق فيك؟ ومن أراد سباقها؟

يا مشرق الشمس المنيرة إنها
–وأبيك– شمسك فارقت إشراقها!

إلى أن يقول وهو هنا يشير إلى هدفه في وضوح:

وإذا أراد الله رقدة أمةٍ
–حتى تضيع– أضاعها أخلاقها

ملك الضلال زمامها فإذا حبت
أو أمسكت سبب المعالي عاقها

رأت العدالة لا تروق لعينها
فتلمسَت في الليل "ظلماً" راقها

عجلت على البلوى فساقت نفسها
للموت.. أو عجل البلاء فساقها

ما عذر طائفة أضاعت "مصرها"

أن لا تُضيع "شآمها" و "عراقها"

الخ.. الخ..

ولعلّك تلحظ في هذه القصيدة، وهي كما رأيت لم يرد الشاعر منها سوى أن ينقد تصرفات الأتراك.. لعلّك تلحظ أن الشاعر يبدو في شعره متحفظاً حتى أنه لم يذكر لفظة عرب أو لفظة ترك أو أي اسم من أسماء من يعنيهم، أو أية عبارة من العبارات المثيرة، وتلك إحدى سمات الشبيبي في شعره السياسي والوطني وبالأخص ما كان نظمه في عهد العثمانيين.

وفي قصيدته "الحب الطاهر" ترى مثالاً آخر لهذا الذي نقوله عن شعر الشبيبي، وهذه القصيدة هي –رغم عنوانها البعيد عن مادة ساس ويسوس– وإنما يشير الشاعر فيها إلى ما وصلت إليه البلاد أواخر حكم الأتراك العثمانيين وذلك سنة **1329**هـ–**1911**م من ناحيتي السياسة وتصريف الشؤون العامة كما هو نص الكلمة المصدرة بها هذه القصيدة في ديوانه أيضاً.. استمع إليه يقول:

أما لأسير في هواك جراحُ

وهل لتباريح الفؤاد براحُ

ثم يستطرد إلى أن يقول:

خليلي ما أحلى الغرام سجية

إذا كرمته عفة وصلاحُ

وما أخطر العشق الذي ليس دونه

على عاشق يأتي الهنات جناحُ

* * *

يقولون: إتيان الكبائر جائزٌ

وفعل الخطايا المنكرات مباحُ

أفي هذه الأخلاق للجنس نهضةٌ

وللبشر الآتين منه فلاحُ

* * *

يريدون للدنيا ضماداً وإنهم

بجثمان هذا الاجتماع جراح

ويعتبرون الناس مرضى كأنهم

–وهم كيفوا داء– النفوس صحاح

* * *

إنه نقد لاذع في الصميم لا يمكن أن يأتي شاعر بأشد منه تعنيفاً. ولكنه بطريقة تشبه الإيماء.

ثم تمر الأحداث سراعاً.

ويمضي العهد التركي بخيره وشره.. ولكن؟

ولكن سرعان ما رأى العرب أنفسهم، وقد تخلصوا من عهد الأتراك ليقعوا في شرك آخر جديد.. شرك آخر ما من شك في أنه أكثر سوءاً.. نستغفر الله فليس هنا للمقارنة مجال!

رأى العرب أنفسهم وجهاً لوجه في أعقاب الحرب العالمية الأولى أمام من كانوا لهم بالأمس أصدقاء. رأوا أنفسهم وجهاً لوجه أمام هؤلاء الأصدقاء، وقد لبسوا لهم جلد النمر.. رأوا أنفسهم وقد كشَّر لهم عن نابه استعمار إنجليزي، وآخر فرنسي.. يا لها من خيبة أمل! ويا له من إخفاق أليم!

خيبة أمل ما كان أشدها وأقساها، عندما أعلن المنتصرون في الحرب لمن وقفوا إلى جانبهم في الحرب بأنه لا وعود ولا عهود ولا مواثيق.. وإنما هي المطامع.. وقد شاءت مطامع المستعمرين حينذاك غير ما شاءته أمة العرب عندما حالفت أولئك المنتصرين.

لقد كان موقفاً مخزياً، وما أكثر ما سجله التاريخ، ولا يزال يسجله للآن لأولئك المنتصرين من أمثال ذلك الموقف المخزي!

بطبيعة الحال لم يكن في وسع الشعر إلاّ أن ينتقص، وإلاّ أن يثور!

وإذن فليعلنها شعراء ذلك الجيل حرباً ضروساً على الوضع الجديد. ليقاوموا الاستعمار فليس من ذلك بد. أو كما شاء المستعمرون أن يطلقوا عليه في ذلك الوقت "الوصاية" و "الانتداب".

وكالعهد بالسيد الشبيبي عندما كان يقارع الحكم التركي القديم.. هب من جديد يقارع عهد الوصاية والانتداب.

ولكنه في هذه المرة، يبدو شيئاً آخر.. شيئاً آخر غير ما عهدناه من قبل.

إنه يختلف في أسلوبه هنا عن أسلوبه هناك.

إنه هنا أكثر تحدياً وعنفاً، فلا هوادة، ولا مداورة، ولا تلميح ولا إيماء!

وليت شعري ما الذي يدعو شاعراً عربياً إلى أن يداور ويجنح إلى ما كان يجنح إليه بالأمس القريب من حرص شديد على روابط وصلات مهما قيل عنها، فهي على كل حال روابط وصلات لها سند من عقيدة واحدة كانت تجمع بين الحاكم والمحكوم!

والشبيبي وكل شعراء العربية إذ ذاك إنما كانوا يؤمنون بأنهم بالنسبة لأصحاب الوصاية والانتداب إنما يقاومون شيئاً اسمه الاستعمار مهما حاول أصحابه أن يجعلوه مقنعاً أو من وراء حجاب!

من أشهر ما قيل من الشعر في تلك الفترة. قصيدة الشبيبي الثائرة "الشرق الناهض" التي يقول فيها:

نفد الصبر فهبت جزعا **وأبى السيف لها أن تضرعا**
ودعا للذود عن أحسابها **شرفُ العرق فلبَّت إذ دعا**
أمة خرساء كم واشٍ وشى **بنواديها وكم ساعٍ سعى**
أزمعت أن لا يراها "حملا" **غاصب صال عليها "سَبُعَا"**

ثم يقول:

جاهدي يا أمم الشرق الألى **قتلونا، جاهديهم أجمعا!**

واذكري ما فعل الغرب بمن هذَّبوه، واصنعي ما صنعا

ثم يقول:

وثب "الريف" من الغرب بهم فأثار الشرق والغرب معاً!
وتعالى في العراقين صدى من بني الأطرش حتى أسمعا

وفي هذين البيتين الأخيرين يشير الشاعر الكبير إلى ثورة الريف التي قام بها الأمير عبد الكريم الخطابي في المغرب على الفرنسيين.. وإلى ثورة السوريين الكبرى على الفرنسيين أيضاً بزعامة سلطان باشا الأطرش في عام 1926م.

وللشاعر محمد رضا الشبيبي في أكثر الأغراض الشعرية جولات أخرى.. فلم يكن شعره الوطني أو القومي مجاله الوحيد!

وإنما في غيره من الأغراض أيضاً تراه صوالاً جوالاً وشاعراً من الطراز الأول! فليكن مسك ختام هذا الحديث أبياته هذه الذائعة وهي من قصيدة نظمها في أواخر إقامته في دمشق سنة 1339هـ-1920م وهي تعبر خير تعبير عن عاطفته العربية يقول:

ببغداد أشتاق الشآم وها أنا إلى الكرخِ من بغداد جم التشوقِ
فما أنا في أرض الشآم بمشئم وما أنا في أرض العراقِ بمعرقِ
هما وطن فرد وإن فرقوهما رمى الله بالتشتيت شمل المفرق!
* * *

شعراء من الجنوب[24]

من دواعي الغبطة أن نرى حركة الفكر لها جذور في كل ناحية من نواحي المملكة العربية السعودية..

أقول هذا بعد أن وصلت إلى يدي نسخة من كتاب جديد يحوي باقة من الشعر المعاصر لأربعة من شعراء الجنوب: (جازان). وهؤلاء الشعراء هم السيد علي بن محمد السنوسي، ومحمد بن أحمد عيسى، والسيد محمد بن علي السنوسي، وهو نجل السيد علي، ثم السيد أحمد عبد الفتاح الحازمي.

الأول شاعر عالم ولد في مكة –كما جاء في ترجمة حياته المدوّنة في هذا الكتاب– ثم سافر على اليمن يطلب العلم، ثم جاء إلى جازان عام 1334هـ ليتقلّد مناصب القضاء فيها، وقد ظل قاضياً لجازان حتى عام 1354هـ.

وشعر السيد علي جزل رقيق.. ويتسم بقوة العاطفة والحرارة وإن كان يجري على أسلوب القدماء في طريقته وأغراضه ومعانيه، فله في ذلك العذر كل العذر، وحسبه أنه أول شاعر من الجنوب يقرأ الناس له مثل هذا الشعر الغزلي.. من قصيدة بعنوان (كيف السبيل؟):

كيف السبيل إلى العذيب، فإنني شاهدت فيه البرق تحت لثامكِ
ولقد أحاول لثم خدك مرة فيصدني خجل برؤية خالكِ

---

24 - المنهل رجب 1386هـ.

سقيا لليلات الوصال وأنسها لهواً على الكاسات فوق بساطكِ
طوراً نمازجها، وطوراً نحتسي صرفاً على رشفات شهد رضابكِ

إلى أن يقول:

وأنا الهوى وخليله وزميله ودليله، والكل طوع بنانكِ
وأرى الهوان على هواك كرامة والذل إعزازاً برغم عداتكِ

ثم انظر إلى لطافة هذا البيت على ما فيه من سذاجة وقد جاء مسك الختام لهذه المقطوعة:

قالت وقد ضحكت: سلمت من الردى فأجبتها: شكراً، وأنت كذلك!

إنه شعر رقيق يزخر بالعاطفة، ويتسم بالحيوية، وليس ينقص من قيمته الفنية أنه شعر كلاسيكي.. كما يحلو لبعضهم أن يقول.

أما الشاعر الثاني في هذه المجموعة: (محمد بن أحمد عيسى) فقد نشأ وتلقى معلوماته في صبيا، ثم درس العلوم الدينية وعلوم النحو والصرف والبيان في جازان، وهو اليوم من كبار موظفي المالية هناك .[25]

([25]) - (المنهل) كان كذلك يومئذ.. أما الآن فهو مدير مكتب العمل والعمال التابع لوزارة العمل والشؤون الاجتماعية في جازان.

في شعر الشاعر نزعة تحررية، وشعور بالذات وجنوح إلى الموضوعات العامة، كما ترى في قصيدته المطولة وهي التي أنشدها في حفل عيد الأضحى لعام 1363هـ وفيها يشدو الشاعر بالوحدة العربية.. ودعوة الأقطاب –أقطاب السياسة في الحرب العالمية الثانية– لجلالة الملك عبد العزيز –رحمه الله– مشيراً إلى اجتماع جلالته بهؤلاء الأقطاب ثم دعوتهم للدول العربية في هيئة الأمم المتحدة، ويتغنى بالشعب العربي وما سجله التاريخ من المواقف قائلاً:

له مواقف في التاريخ شاهدة **بأنه لصروح السلم قد رفعا**
* * *
وأصغي إلى همسات قلب طامح **متوثب الإلهام والإدراك**

ثم ماذا؟

يتعشق الفجر الوضيء ويرتوي **إشعاع نور كواكب الأفلاك**
نشوان من خمر القريض يعب من **نبع تدفق بالرحيق الزاكي**
خضلت به دنيا الجمال فأخصبت **أسمى العواطف والشعور الذاكي**

أنا من علمت، ولا أقول مباهياً **قد صاغ من در البيان حلاك**

إلى أن يقول:

قلم هززت به يميني، فانبرى **كالبرق في متلاطم الأحلاك**
لمع يضيء على مشاعل نهضة **لطلائع الأجيال فوق ثراك**
وتر يرن لتسمع الدنيا له **نغم يردده الزمان وفاك**
ولقد نظرت إليك نظرة شاعر **سامي الخيال.. مدله بهواك!**
يرعى شواطئك الجميلة هاتفاً **ومغرداً.. بجمالها وصباك**

ثم يختتم القصيدة بهذين البيتين قائلاً:

إن لم أقدر فيك رغم تفوقي **ويكون حظ الناهين جفاك**
فلقد مضى.. أن النباهة في الورى **حفت –كمثل الورد– بالأشواك**

صدقت أيها الشاعر، وإن هذا الذي تشير إليه، لسوء حظ الإنسانية هو واقع الحال في كل مكان.

وفي قصيدته "بيرس شيلي" وهو الشاعر الإنكليزي المشهور ما ينبئ عن ثقافة شاعرنا.. وارتوائه من المناهل الغربية للأدب الحديث وهي سمة من سماته في نزعته التحررية التي أشرنا إليها.

يقول الشاعر في هذه القصيدة:

روح على الفن من إشعاعه ألق **يلوح في ومضات الشعر يأتلق**
وشعلة من ذكاء.. ظل يلهبها **قلب غدا بأوار الحب يحترق**
وجرس صوت من الإلهام منبعث **يرن في مسمع الدنيا ويندفق**
يضفي الرداء على الأفكار ينفحها **ريا الخلود، وفجر العمر مؤتنق**
*   *   *
تحدرت من سماء الفن هابطة **للأرض مجهشة الأنفاس ترتجف**
تعب ضوء بيان ثم تنفثه **شعراً تلألأ من إشراقه الصحف**

إلى آخر هذه القصـــيدة.. ويلاحظ القارئ نزعة الشـــاعر التحررية واضـــحة في عدم تقيده بالقافية الواحدة كما كان القدامى يتقيدون.

وقصيدة (قبس من أشعة الحق) هي الأخرى من روائع هذا الشاعر الموهوب، ولو أن الشاعر جعل عنوان قصـــيدته هذه: (من وحي عرفات) فأكبر الظن أنه عنوان أقرب إلى الروح الرفافة المتجلية في هذه القصيدة التي يقول فيها:

قبس من أشعة الحق قدسي يتجلى على المشاعر، يمسي
تتبارى فيه الملائك أطيا فاً، من النور بالتسابيح همس
جانحات بين المقام وجمع في رفيف نحو الحطيم ولمسِ
حين عج المكبرون وهلت ألسن القوم من فصيح وخرسٍ
أقبلوا مهطعين من كل فج وعنوا خانعين من كل جنسٍ
رددته الجبال.. والقمم الشم وفاض الخشوع في كل نفسٍ

إلى أن يقول:

وفضاء مقدس الساح طهر حرم لا يحل يوماً لرجس
لململمت ذيلها الرياح احتشاماً وسعى الدهر في ثراه بهمس
من ثنياته وشم روابيـ ـه أضيء الوجود والليل يغسي
وتعالت مطالع النور في الكو ن تنير الهدى لجن وأنس
بسنا (أحمد) وقد حل في الأ فق على عالم العقول بشمسٍ
فإذا الوحي سائغ الورد عذباً سلسلاً كالزلال للمتحسي
وإذا مشرع الشريعة قد فا ض على قادة العلوم بدرس
شرعة حقة، ودين حنيف دعم العدل والحقوق ببأس
ذاك بدر أنار والليل داج وضياء جلى به كل لبس

نهض الشرق في سناه وقامت دولة فوق قمة المجد ترسي
ملكت ساحل المحيطين.. قسراً واحتوت (قيصراً) وثنت بفرس

وأخيراً يتساءل الشاعر:

ليت شعري أينصف الدهر قوماً طالما سودوا على كل جنس
أسسوا في مشارق الأرض عرشاً عربياً.. وفي المغارب كرسي
كلما جال ذكرهم في ضميري كاد أن يغمر التخيل حسي

ثم يشير إلى الدولة التي أنشأها العرب والمسلمون في عصرهم الذهبي فيقول:

لم تشد مثلها على الدهر "روما" في علاها.. وما أُتيحت لرمسي

وهو يعني هنا "رمسيس" أحد ملوك مصر القدماء، كما نظن، وكما هو ظاهر، على أننا نلتمس أن يعذرنا الشاعر المفضال إذ أجزنا لنفسنا أن نتصرف تصرفاً نحوياً بسيطاً في بيته هذا فقلنا: (وما أتيحت لرمس).. وهو خطأ نحوي لم يكن له مسوغ.

* * *

أما الشــاعر (محمد بن علي الســنوســي) فقد ولد بجازان ودرس فيها العلوم الدينية، وهو ابن السـيد علي السـنوسـي الذي سـبق أن أشـرنا إليه. والابن هنا يجري على غرار أبيه.. مع ميل إلى التجدد، نتيجة لقراءته لشعر المعاصرين من أمثال (علي محمود طه) الذي يحييه الشاعر بقصيدة جميلة من قصائد هذه المجموعة ويقدم لهذه القصيدة بقوله:

"إلى تلك الروح المرفرفة في عالم الحقيقة، إلى ذلك "الملاح التائه" أقدم هذه الباقة الشـــعرية تحية إكبار وإعجاب."

ثم يقول واصفاً "الملاح التائه":

عبق يفعم النفوس شذاه	**ويثير الهوى عبير صباه**
شاع فيه الجمال واتسق الـ	**ـفن وفاحت بعطره دفتاه**

ثم يقول:

لحظة! شاعر الجمال أنا	**جيك بألحانك الرقاق العذاب**
ورويداً أجلو عليك صبا	**بات غرامي.. وذكريات شبابي**
قف أبث الهوى عواطفك الحرْ	**ى وأجلو عليك كأس شرابي**

أنت علمتني منادمة الرو	ض وأغريت بي هزار الروابي

وهكذا يستمر شاعر الجنوب في مناجاة شاعر النيل أو شعر الخيال وغريد المعاني وطيرها الصدّاح كما يقول:

إيه يا شاعر النجوم والليل وال	قمر.. سلاماً معطراً فواحا
لو ترى كيف أصبح الأفق السا	جي كئيباً وكان يندي سماحا
طويت بهجة السماء وغارت	أنجم كنت بدرها اللماحا

ما من شك في أن الشاعر محمد بن علي السنوسي متأثراً إلى حد كبير بعلي محمود طه كما يبدو ذلك –وفي هذه القصيدة على وجه الخصوص– واضحاً كل الوضوح.

وبعد.. فهذه إلمامة عن إخواننا في الفكر، وفي العروبة والموطن، شعراء الجنوب، لعلّها تكون تمهيداً نقرأ بعده من الدراسات لآثار هؤلاء المواطنين الأعزاء ما نرجو أن يكون أوسع بحثاً وأكثر تناولاً لجوانب أخرى من شعرهم ونثرهم.

مع القلائد

ما أروع الشعر يجيئنا تعبيراً صادقاً عن الشاعر في بيان ناصع، وفي أسلوب مشرق مبين!

أو بعبارة أخرى: "ما أروع الشعر –كما يقول صديقنا صاحب المنهل– ينبع من عاطفة شاعر متمكّن في اللغة، جامع لأعنة الأسلوب العربي الرائع مع سعة أفق وذهن، وإخلاص مبدأ، وصدق عاطفة، وصحة بيان."

نعم لأنه دون هذه الميزات كلها لا يمكن لأي كلام يسميه صاحبه شعراً أن يهزنا عند سماعه –على رأي الزهاوي– أو يترك في نفوسنا أي أثر، أو أي انفعال!

والشعر قبل كل شيء موهبة، تولد مع الشاعر دون أن يكون له في وجودها أي فضل، اللّهم إلاّ فضل التفوق والامتياز فيما بعد عن طريق الدرس، وعن طريق التأمل والمران!

الدرس والتأمل والمران، ثم شيء آخر أيضاً ما منه بد، وأعني به حرص الشاعر دائماً أن يكون صادقاً فيما يقوله للناس.

فمتى توفرت كل هذه الصفات لشاعر فما من شك في أنها ستجعل منه شاعراً ملحوظاً بحق، يحترمه القارئ ويستأهل التقدير!

ولئن كان الأستاذ الأنصاري قد قالها في المنهل في صدق ودون محاباة أن ما عناه من هذه الصفات قد احتشد كله في ديوان "القلائد" فإني أقولها لا مزيد عليها إن شاعرنا السنوسي قد أبدع في الكثير من هذه القلائد إبداعاً يستحق عليه التهنئة والإعجاب!

ولست أريد في هذه الكلمة أن أكرر ما سبق أن كتبه الكاتبون عن قلائد السنوسي، غير أنه لا بد من أن أشير هنا إلى أن ما ظفر به ديوان القلائد من إجماع الناقدين على التنويه بشأنه تنويهاً لم يحظ به غيره –فيما يبدو– هذا الإجماع أعتقد أنه وحده الدليل على أن شاعرنا محمد بن علي السنوسي قد اجتاز تجربة إخراج باكورة دواوينه للناس في نجاح بارع موفق مرموق!

وربما يسأل سائل: ما سر هذه الحظوة، وهذا الإقبال؟ وأنا لا أتردد في الإجابة هنا: إنه الصدق: صدق الشاعر في شعوره أولاً، ثم صدقه في تعبيره عن هذا الشعور!

ولعلّ أول سمة من سمات هذا الديوان إنك لا ترى في أية قصيدة من قصائده تكلفاً، أو تبدلاً، بل إنك لتجد نفسك بإزاء شاعر متمكن جامع لأعنة البيان، متحرر ومحافظ في آن.. متحرر في أفكاره، محافظ في أسلوبه العربي الأصيل!

ولقد ضم ديوان "القلائد" قصائد في المديح، إلى قصائد في الرثاء، ولكنك تقرأ هذه القصائد كلها فلا ترى في واحدة منها ما نعهده من مبالغات الشعراء في معظم ما ينظمونه في المديح والرثاء!

بل إنك على العكس تشعر بأن السنوسي سواء في مديحه أو رثائه إنما يعبر عن شعوره في صدق وإخلاص!

ومن أروع ما تقرأه في ديوان القلائد قصائد الشاعر حول القضايا العربية وما تعانيه هذه القضايا من تحكم الاستعمار، وإرهاب الاستعمار!

فقصائده "أم القرى" و "حطم المارد القيود" و "العالم العربي" و "لمحات من التاريخ" و "تأميم وتصميم" و "بطولة الجزائر" و "اليقظة العربية" و "جنكيزخان" كلها تفيض حماسة ووعياً.. وإخلاصاً في متابعة قضايا العروبة، وقضايا الحرية في نضالها المستميت مع أعدائها المستعمرين!

وهو في قصيدته "لمحات من التاريخ" يعود بنا إلى الماضي البعيد، للأمة العربية، مشيداً بما تميزت به بين الأمم من أخلاق الوفاء والبر بالعهد ولا ينسى أن ينوّه ببعض المواقف المشهورة في التاريخ العربي القديم مما يثبت بعض ما اتسمت به سجايا العرب من حب للخير، وميل إلى نصرة الحق أينما كان كحلف الفضول مثلاً.. ثم يهيب بأبناء قومه قائلاً:

بني العروبة إن الحادثات وإن
جلَّت هي الريح نستشري بها لهبا

و "القوة" اللغة الفصحى، وعصركمو
أصم لا يسمع الشعَّار والخطبا

هزوا الجزيرة من أركانها حرداً
وأشعلوا الشرق من أقطاره غضبا

ذودوا عن الحق، إيماناً بقوته
من غالب الحق عدواناً به غلبا

إلى أن يقول:

إن الحياة جهاد والجدير بها
من غالب العاصفات الهوج والنوبا
وفي الخضم لمن شدت سواعده
سبح يهون به التيار مصطخبا
واليأس أقتل داء دب في أمم
تعاورتها الليالي فانثنت نصبا

وفي قصيدة "تأميم وتصميم" وكان قد نظمها أثناء العدوان الثلاثي على مصر في سنة 1965م يندد الشاعر بالاستعمار والمستعمرين تنديد رجل يؤمن بعروبته وإسلامه إيماناً واعياً وعميقاً، ويرى في هذا العدوان الغاشم حرباً صليبيةً أخرى، أما عن إسرائيل فلم تكن سوى ذريعة لمن شنوا تلك الحرب الصليبية الأخرى!

ولم تك إسرائيل إلاّ ذريعةً
قد اتخذوا منها لأهدافهم جسرا!

أما قصيدته "بطولة الجزائر" فالحق أنها من أقوى ما نظمه شاعر عربي في هذا المجال.

فلنستمع إليه يقول فيها:

أهابت فغدا هادم وأهاب
ونادت فلباها شباً وشباب
تفجر واديها وفاضت جبالها
ودمدم بالموت الزؤام سحاب
وصاغت من النير الفرنسي صارماً
عنت منه للمستعمرين رقاب

ودارت على أرض الجزائر ثورة يشيب عليها الدهر وهي كعاب
كتائب فيها "خالد" وأسامة و "سعد" وفيها "خولة" و "رباب"
إرادة شعب كبل القيد ساقه فصمم لا يثني قواه عقاب
وكانت إرادات الشعوب ولم تزل أحد وأمضى، والحياة غلاب
أيستعمر الشرقي والشرق كله عرين يدوِّي بالأسود وغاب
لقد مات عصر الذل والخوف وانقضى وهيل على ذاك الزمان تراب
هنا جبهة التحرير والحق والهدى تخر النواصي عندها وتصاب
هنا العصبة الأحرار أما سماؤهم فرعد وأما بحرهم فعباب

إلى آخر هذه القصيدة الرائعة. وقد بلغت أبياتها سبعة وخمسين.

ولنستمع إليه مرة أخرى في قصيدته "اليقظة العربية" صارخاً في وجه دعاة السلام أو من يطلقون على أنفسهم وصف "دعاة السلام" يقول السنوسي:

يا دعاة السلام تلك فرنسا تتحدى مشاعر البشرية!

وأي تحدٍ أشد من تحدي هذه الدولة في حربها الظالمة ضد الجزائريين الأحرار، فيما يزيد عن ست سنوات إلى جانب دعواها المزعومة الباطلة: "الجزائر قطعة من فرنسا."

تحرق الأرض باللهيب وتشـ ـويها جهاراً، وتصلب الحريه!
وهي في ظلم تروح وتغدو أفلا تزجون تلك الشقيه!
أتقيمون مأتماً يملأ الكو ن ضجيجاً لكلبة روسيه!
يا لها دعوة يصلي لها الذئـ ـب إماماً بين الصفوف التقيه!
أين نزع السلاح يا أيها القو م؟ وأين المبادئ العالميه؟
أين حرية المصير وإقرا ر المواثيق والعهود الجليه؟
أفما آن للحقيقة أن تحـ ـيا حياة لا تعرف "البندقيه"؟
أفما آن للسلام المفدى أن يسود الورى ويلقي عصيه؟
يا إلهي ماذا؟ أينتحر المسـ ـلم على مذبح من المدنيه
الأساطيل والقنابل والألـ ـغام والطائرات والمدفعيه!
كل هذا على الجزائر ينصبْ وينقض بكرة وعشيه!
ودعاة السلام يلهون بالأ وراق فوق الموائد الدائريه!

وبعد فلأكتف بهذا الذي أوردته من شعر "القلائد" كأنموذج يدل على قيمته ونفاسته لا من ناحيته الفنية فحسب.. وإنما من ناحية محتواه الملتزم أيضاً.

*** * ***

قديم الأغاريد

صيحات من هنا وهناك، تتنادى بين حين وآخر بأن دولة الشعر. لم يعد لها في عصرنا هذا مكان..

صيحات.. تردد لفظة "العلم" وفي وهمها وخيالها أن العلم وهو ثمرة من ثمار العقل، ومن ثمار التجريب يرفض كل ما عداهما من ثمار الآداب والفنون.

ويبدو أن هؤلاء العلميين، أو التجريبيين، يتصورون أنه ليس في الإمكان أن يتلاقى الفن والعلم في صعيد واحد.

وفي رأينا أنهم مخطئون بلا شك..

مخطئون.. لأن الواقع العلمي في الحضارة الغربية الحاضرة.. يشجب –في إصرار– كل ما يقولون.

إن الحضارة الغربية، حضارة العلم، لم تتنكر للفنون!

بل لعلّ الحضارة الغربية –كما نشهد– تفوق كل ما سبقها من حضارات، في إعطائها المزيد من عنايتها بالأدب، وعنايتها بالشعر، وبسائر الفنون!

والواقع أن هذه الحضارة قد أظهرت من حفاوتها بالفنون عامة، والأدب منها بصورة خاصة، والشعر بصورة أخص.. ما لم يتوفر نظيره في أي عصر من العصور.

وبحسبنا في هذا المقام أن نذكر "جائزة نوبل للأدب" إلى جانب غيرها من عشرات الجوائز التقديرية أو التشجيعية للأدب والشعر في العالم الحديث.

إن الشعر –وهو في مكان الطليعة بين فنون الأدب– لا يمكن أن يخلو منه عصر.. مهما أوغلت فيه المادة.. أو طغى فيه التقدم العلمي.

ذلك لأن الشعر تعبير –بل هو أصدق تعبير– عن خوالج النفس البشرية.

الشعر هو أصدق تعبير عن المشاعر والأحاسيس.

إنه لغة العاطفة. يخاطب بها الشاعر عواطف الناس قبل أن يخاطب عقولهم.

إنه لغة القلب.. يترنم بها الشاعر في أعذب لحن وأشجى نغم، وفي أسلوب يهز النفس، ويؤثر في الوجدان.

أسلوب يتميز بذاتية الشاعر، وصدقه في الشعور والتعبير!

والصدق في الشعور، والصدق في التعبير هما أول سمات الشاعر الموهوب!

كذلك فإن الشعر فن ورسالة معاً، فليس شعراً، ولا يمكن أن يسمى شعراً، أي كلام مهما أبدع فيه القائل، إذا خلا من رسالة، أو تجرد من هدف أو مضمون.

ولقد مرت بشعرنا العربي -بعد عصوره الذهبية المجيدة- عصور من التخلف، كانوا يسمونها -بحق- عصور الظلام.

كانت عصور ظلام بصدق.. في العالم العربي كله، لا بالنسبة لمجال الشعر والأدب فحسب، وإنما بالنسبة لكل مجال من مجالاته الفكرية.

كانت عصوراً عاش فيها العالم العربي، أسوأ حالات التخلف الفكري.

بل في كل ناحية من نواحي الحياة، وفي كل جانب من جوانب النشاط سواء في السياسة أو الاقتصاد أو الاجتماع، كانت الشعوب الناطقة بالعربية خلال تلك الفترة الطويلة تغط في نوم عميق!

بينما كانت شعوب الغرب تمعن في نشاطها، وتواصل تقدمها!

ولقد كان من الطبيعي جداً أن يشمل هذا الركود الحياة الأدبية.

كان من الطبيعي ألاّ ينبغ طوال تلك الفترة المظلمة شعراء مبدعون من طراز أبي تمام -مثلاً- أو المتنبي أو البحتري.

وجاء العصر الحديث، في أعقاب غزوة نابليون للشرق العربي.

وابتدأ اللقاء بين أوروبا والشرق على أصوات المدافع منذ أن فكرت أوروبا في غزوها الاستعماري.

في غمرة هذا اللقاء المرير بين الغرب والشرق لم يكن بد من أن يتبدل كل شيء. وأن يصحو النائمون!

لقد بدأ اللقاء -إذن- وبدأت معه نقطة التحول في حياة الشعوب العربية.

بدأ هذا اللقاء، وبأسبابه كانت اليقظة، وبأسبابه أخذ ما نسميه اليوم "الوعي" ينمو بالتدريج.

وقد كان أول ما تجلى هذا الوعي -بما يشبه الطفرة تقريباً- في الحياة الأدبية والشعرية.

كانت كل العوامل، بما فيها حركة إحياء التراث القديم –تدعو إلى أن يكون الشـــعر هو السابق في ميدان النهوض.

واستمع الناس أول ما استمعوا إلى نغم جديد لم يألفوه في الشعر العربي.

استمعوا إلى البارودي رائد شعراء العصر الحديث! استمعوا إليه شاعراً من نمط جديد!

شاعراً عملاقاً. عملاقاً في أسلوبه. وأغراضه ومعانيه!

وتوالت الأنغام، وأخذ يظهر على التتابع شعراء البعث الجديد!

ظهر في مصر "شوقي" و "حافظ" و "مطران" وظهر "الرصافي" وزملاؤه في العراق.

وفي لبنان وســورية اســتمعنا إلى "إبراهيم اليازجي" و "الأخطل الصــغير" و "بدوي الجبل" و "فؤاد الخطيب" وغيرهم.

ولست أنسى المهجر في إشارتي هذه إلى الشعراء الروّاد في العالم العربي.

وهل يمكن أن ننســى "فوزي المعلوف" و "إيليا أبو ماضــي" و "الياس فرحات" و "ميخائيل نعيمة" و "نسيب عريضة" وعميدهم "جبران."

هؤلاء –إلى نوابغ من الشعراء عديدين– كانوا –في الحق– طليعة البعث الشعري في العصر الحديث.

هؤلاء هم روّاد النهضة الأوائل إلى جانب روّادها الآخرين في الميادين الأخرى.

هؤلاء هم الذين هزّوا النفوس، وغنوا على أوتار القلوب!

هؤلاء هم الذين كانوا في طليعة نضال شعوبهم، ضد كل رواسب التخلف، وضد كل رواسب الجهل وضد الاستعمار!

ونسأل –ولا بد من أن نسأل هنا:– ما هو نصيب بلادنا في هذا المجال؟

ما هو نصــــيبها في ميادين الإنتاج والإبداع، منذ أن شـــرعت بدورها تحاول اللحاق بالركب الحضاري؟

إنه من الحق أن نقول –تســـجيلاً للواقع– إن الحركة الأدبية الجادة في بلادنا –لأكثر من سبب– بدأت متأخرة عن سواها.

ومن الحق ثانياً أن نقول دون أن نغالي أو نبالغ إن المحاولات الأدبية الأولى ثم ما تلاها من محاولات –وخاصة في الشعر– لم يكن ينقصها النضج سواء من حيث الشكل أو من حيث المضمون.

وليس من الادعاء أن نقول إنه في كل موضوع من موضوعات الشعر الجديدة قد شارك شعراؤنا شيوخاً وشباباً بأوفى نصيب!

لقد شارك شعراؤنا سواء في الحجاز أو نجد أو الخليج أو الجنوب في كل موضوعات الشعر بما فيها الشعر السياسي والاجتماعي والتأملي والعاطفي، ولم يكن النضج ينقص هذا الشعر –كما قلت– شكلاً أو مضموناً.

وما أظننا ننسى أنه في شتى المواقف النضالية.. سواء ما كان منها بالنسبة للاستعمار وتحدياته للحركات الوطنية في الشرق عامة.. أو ما كان منها في مجالات النقد الذاتي، وغيره من المجالات. ما أظننا ننسى أن الكثيرين من شعرائنا قد أسهموا إسهاماً متميزاً في هذا المضمار، منذ أتيح لهم، أو أتيح لبلادهم أن تظفر باستقلالها السياسي في إطاره الكامل، وبالتالي منذ أتيح لبلادهم أن تنهض لتعود تمارس لغتها الفصحى من جديد –بعد فترة من الزمن طويلة– لتصبح هذه اللغة مرة أخرى: لغة "الدولة" أي "الإدارة" و "السياسة" و "التعليم!"

وحسبي أن أنوّه هنا بشهادات قيمة للشعر المعاصر في هذه البلاد أعلنها صراحة كثيرون من شيوخ الأدب في العالم العربي.

حسبي أن أنوّه هنا بما كتبه مثلاً كل من مارون عبود وطه حسين ومحمد مندور وزكي أبو شادي والخفاجي ومحمود تيمور وزكي المحاسني وغيرهم من أفاضل الكاتبين.

وإن كنت أرى أنه لا ينبغي أن ينسينا ذلك أن بلادنا ما زالت في المراحل الأولى من حياتها الأدبية.

*** * ***

ولا أحب أن أطيل، فحسبي هذه الإشارة لأنتقل إلى الحديث –في كلمة مجملة– عن شاعر من شعرائنا النابهين، شاعر طليعي بحق –أعني به– الأستاذ السنوسي صاحب هذا الديوان.

ولست أحاول في هذه الكلمة أن أعرف بالسنوسي شاعراً. فالسنوسي بشهرته غني عن أي تعريف!

إن للسنوسي مكانته بين شعرائنا البارزين.

فهو صاحب "القلائد" وقد كان لديوانه "القلائد" وما يزال صداه الطيب الجميل في أوساطنا الأدبية.

وأحسب أني لا آتي بجديد عندما أقول عن صديقي محمد السنوسي إنه أول شاعر من شعرائنا يترجم بعض من شعره إلى لغة أوروبية!

وتلك شهادة لا أظن السنوسي وحده يختص بها بل هي أحرى أن تكون شهادة لها مغزاها ولها مدلولها بالنسبة للشعر السعودي عامة.

والحق أن في شعر شاعرنا من سمات الشاعر الأصيلة ما هو خليق بأن يجعل من هذا الشعر شعراً يستأهل الإعجاب.

إن من أهم سمات شاعرنا السنوسي –في اعتقادي– أنه لا يحاول أن يتكلف، أو يظهر بغير حقيقته، أو يقول ما لا يعتقد، أو يمدح –مثلاً– من لا يرى أنه أهل لثناء ومدح.. وإنما هو في كل ما طالعته من شعره، لا أراه إلاّ حريصاً كل الحرص على التزامه لهذه السمة، سمة الصدق في التعبير!

ولعلّ من ميزات السنوسي، وهي ميزة أعتقد أن القليلين من شعرائنا يشاركونه فيها، لعلّ من ميزات السنوسي إكثاره من القراءة والاطلاع.

وللقراءة وللاطلاع أثرهما في شعر الشاعر، وأدب الأديب.

وليس من شاعر مشهور، سواء في أدبنا العربي قديمه وحديثه، أو في سائر الآداب العالمية في الشرق والغرب، إلاّ وعرف عنه إدمانه على القراءة وإكثاره من الاطلاع.

ويكفي أن أذكر هنا أبا الطيب المتنبي وأبا تمام وأبا العلاء المعري وأمثال هذه الطبقة من شعرائنا القدامى.

ومن شعراء العصر الحاضر: عباس العقاد وزميلاه شكري والمازني وغيرهم من أقطاب الشعر الحديث!

وأذكر أن الشاعر الكبير "الشيخ فؤاد الخطيب" كثيراً ما كان يتحدث في هذا المجال، منوّهاً بوجوب أن يكون الأديب أو الشاعر مثقفاً واسع الثقافة ومشاركاً في كل الفنون.

وأعتقد أن لثقافة السنوسي المتعددة الجوانب أثرها في شعره بصورة عامة إلى جانب موهبته الفنية المعطاء.. ولعلّه من هنا يبدو لنا ما نلمسه في شعره غالباً من نبض في الأسلوب، وحيوية في الألفاظ، وعمق في المعاني، وسمو في الأغراض.

* * *

وبعد فما أظن قارئ شعر السنوسي في ديوانه هذا الماتع الجديد في حاجة إلى مزيد من حديث عن الشاعر السنوسي وعن شعر السنوسي.. فحسب الشاعر أن شعره قد ظفر بإعجاب قارئيه جميعاً منذ صدر له أول ديوان. بل حسبه أن شعره قد ترجم إلى لغة أوروبية، كما سبق أن أشرت، وفي كل ذلك ما يغنيه ويغني شعره عن أي مزيد في الإشادة والتنويه.

تقديم وحي الفؤاد

الأخ الصديق الأديب الأستاذ فؤاد شاكر، أراد مني أن أدون هذه الخواطر أقدم بها لديوانه هذا الحديث.

ولم يسعني، تقديراً مني لشعوره الطيب، وحسن ظنه بي، سوى أن أمتثل لرغبته وأستجيب.

وسألت نفسي –أولاً: من أين أبدأ؟

أأبدأ بالحديث عن شعر الشاعر، وهو –كما نعلم– شاعر نابه معروف له من شهرته ما يغنيه عن أي كلام يقال عن شعره المقروء؟

أم أنه لا بد قبل أي حديث من تمهيد.. –ولو سريع– عن مرحلة من المراحل، يجتازها الشعر العربي في هذه الأيام؟

وكان جوابي: لا بد من مثل هذا التمهيد. على الأقل عن "ظاهرة" تبدو أكثر ضـــجيجاً وصخباً ودعاية منذ أواخر الحرب الأخيرة.

وما أظن قارئاً أديباً. إلاّ وقد عرف ما هي هذه الظاهرة؟ أو على الأصح ما هي هذه القضية ذات الأهمية، التي تواجه الشعر المعاصر؟

ما أظنه إلاّ وقد عرف أنها قضية النزاع القائم بين مدرسة في الشعر ترى في منتهى الإخلاص أن الشعر العربي هو الشعر العربي.. فلا بد –إذن– أن يظل مع ابتعاده عن أي جمود –عربياً في روحه، عربياً في مبناه.

ومدرســـة أخرى جديدة. خرجت تدعو إلى التطور، وليس التطور مذموماً لذاته، إلاّ أنها أوغلت في دعوتها وبالغت.. إلى أقصى الحدود.

هذا هو النزاع القائم في دنيا الشعر اليوم.

نزاع بين مدرستين من مدارس الأدب إحداهما –كما لا ينكر أحد– كانت رائدة التجديد في الشـــعر العربي منذ أوائل القرن العشـــرين. والأخرى على النقيض تنكر أي تجديد أحدثه تلك المدرسة.. بل أكثر من ذلك تراه تقليداً.. رجوعاً إلى الوراء.. خضوعاً للقديم..

مدرسة الشعر الحر، أو الحديث.. كما يسميها أصحابها لا ترى في تجديد خليل مطران أو تجديد شعراء الديوان.. أو شعراء المهجر سوى أنه تقليد ربما لسبب واحد فقط: هو أن كلاً من خليل مطران والعقاد والمازني وشـكري وإيليا أبي ماضـي وغيرهم ممن سـاروا على طريقتهم.. لم يحاولوا أن يثوروا على القديم.

لم يحاولوا أن يلغوا الطابع العربي الأصيل للقصيدة العربية.

لم يحاولوا أن يتحرروا من وحدة القافية في الشـــعر.. وبالتالي لم يحاولوا أن يتحرروا من أوزان الشعر في نمطها التقليدي المعروف.

وليس من شك في أنه سيستمر هذا النزاع ويستمر، شأنه شأن أي نزاع يحدث عادةً بين أي اتجاه واتجاه..

والحكم –في رأيي– يجب أن نتركه للزمن. فالزمن وحده كفيل بأن يقوم بمهمة الغربلة والتمحيص.

الزمن وحده كفيل بأن يثبت لأي من هاتين المدرستين المتنازعتين على دولة الشعر صلاحها للبقاء أم عدم صلاحها.

*** * ***

ومهما يكن من أمر.. أو مهما يكن من خلاف في الرأي في هذا المجال، أحب ألاّ يفوتني أن أشير هنا إلى حقيقة بارزة ليست بخافية، وهي أن الشعر العربي الأصيل أو المحافظ أو التقليدي كما يصفونه يعود إليه وحده الفضل في الوعي الفكري الحديث.

وقد كان أعلام هذا الشعر ابتداء من البارودي واليازجي وغيرهما من شعراء القرن التاسع عشر ثم شوقي وحافظ ومحرم والرصافي والشبيبي والخطيب والأخطل الصغير وغيرهم من شعراء القرن العشرين هم الذين هيأوا لهذا الوعي وما يزال شعرهم هو الأكثر سيرورة ورواجاً إلى يومنا هذا.

نعم ما يزال شعر هذه النخبة من شعرائنا العرب في هذا العصر هو الشعر الأكثر سيرورة ورواجاً في كل مكان.

لا لشيء إلاّ لأنه أصيل.

ليس فيه زيف. وليس فيه هزال.

أبرز شيء فيه أنه شعر عربي، يتسم بالطابع العربي، دون أي تزمت، ودون أي جمود، فهو من ناحية أغراضه ومعانيه متحرر كل التحرر، ومساير للتطور.. لكن دون أن يمس هذا التطور –من ناحية الشكل– القواعد الفنية للشعر العربي.

إن ميزته التي من أجلها سمي "تقليدياً" أن أصحابه أبوا أن يمحوا الطابع العربي للشعر. لكنه فيما عدا محافظته على عمود الشعر.. وفيما عدا احتفاظه بالصياغة العربية ومنها وحدة القافية في القصيدة.. فيما عدا كل ذلك. فإن هذا الشعر لم يتخل عن رسالة التجديد، بل لقد كان هذا الشعر، في الواقع، هو الذي أخذ ينشر الوعي ويوقظ الأفكار، بل حسب هذا الشعر طيلة هذه الفترة أنه هو الذي أوجد فكرة الكفاح ضد الاستعمار لدى الشعوب العربية.

لقد كان ملتزماً حقاً.. ولو أن كلمة التزام لم تدخل القاموس العربي في سوى الزمن الأخير.

فكما كان من ناحية الصياغة والشكل ملتزماً. كان ملتزماً أيضاً من ناحية المضمون. كان هو الموحي والموجه. والمعبر في كل المواقف، وتجاه كل الأحداث عن آمال العرب وآلامهم. لم يكن شعراً من أجل الفن –ومن أجل الفن فحسب– وإن كان هو في مجموعه الضخم في الذروة من الفن.

لم يكن ترفاً.. ولا ميوعة أو تصويراً لمشاعر جامحة، أو هوى مكبوت.

باختصار: لم يكن أعلام الشعر العربي المعاصر منذ أوائل القرن العشرين: شعراء أنانيين يعيشون في أبراج من العاج.

وبالطبع هذا لا يمنع الاستثناء.

* * *

نعم.. لم يكونوا شعراء أنانيين.

فهذا أحمد شوقي –على سبيل المثال– وأحرى به أن يكون هو وحده المثال.. نقرأ شوقياته في أجزائها الأربعة مع ما ظهر من شوقياته المجهولة.. فلا نجد في الشوقيات سوى الأثر الحي للعبقرية.. دون مراء.

في الشوقيات: نبضات شاعر عظيم، شاعر استطاع أن يرتفع بجناحي نسر.. شاعر كان يحس من أعماق وجدانه أنه ابن الأمة التي يحيا فيها، والزمن الذي يعيش فيه.

لقد كان شوقي بحق –شاعر العصر الحديث.

كل قطر من أقطار العروبة كان ينظر إلى شوقي على اعتبار أنه شاعر العربية الأول.

ولم يكن ذلك إكباراً لشاعرية شوقي وحدها.. وإنما كان ذلك لأن شوقي نفسه إنما كان يعبر في شعر رائع مؤثر عن مشاعر العرب أجمعين.

*** * ***

في حفلة تكريمه في عام 1926م وقف شوقي يحيي المحتفلين ويشكرهم، وقف يحييهم ويشكرهم بأروع شعر يصدر عن شاعر.. ولم ينس شوقي وهو في موضع الحفاوة، وفي مقام التكريم.. لم ينس شوقي أن يترنم بالشرق.. وأن يشيد بالعرب وأن يتحدث في ألم وفي أمل من أسمى مشاعره وأمانيه. في حفلة تكريمه.. وفي أجمل قصيدة ألقيت في الحفل استمع الناس إلى شوقي يقول:

كان شعري الغناء في فرح الشرق، **وكان العزاء في أحزانه**
قد قضى الله أن يؤلفنا الجر **ح، وأن نلتقي على أشجانه**

كلما أن بالعراق جريح **لمس الشرق جنبه في عمانه**
وعلينا كما عليكم حديد **تتنزى الليوث في قضبانه**
نحن في الفكر بالديار سواء **كلنا مشفق على أوطانه**
*** * ***

وفي نفس العام وقعت نكبة دمشــق على أيدي الفرنســيين أثناء الثورة الكبرى التي قامت بها ســورية إذ ذاك.. فكانت أروع قصــيدة قالها شــاعر عربي حول هذه النكبة –على كثرة ما نظم الشعراء من شعرهم يومذاك– هي قصيدة شوقي.

وفي هذه القصيدة يقول:

سلام من صبا بردى أرق **ودمع لا يكفكف يا دمشق!**
ومعذرة اليراعة والقوافي **جلال الرزء، عن وصف يدق**

ثم يقول:

لحاها الله أنباء توالت **على سمع الولي بما يشق**

تكاد لروعة الأحداث فيها تخال من الخرافة وهي صدق
وقيل: معالم التاريخ دكت وقيل: أصابها تلف وحرق

إلى أن يقول:

رباع الخلد ويحك. ما دهاها أحق إنها درست؟ أحق؟

ثم يقول، وكأنما هو يخاطبنا الآن:

وللمستعمرين، وإن ألانوا قلوب كالحجارة، لا ترق

ثم يقول:

وحررت الشعوب على قناها فكيف على قناها تسترق؟
"نصحت.. ونحن مختلفون داراً ولكن كلنا في الهم شرق"
"ويجمعنا إذا اختلفت بلاد بيان غير مختلف، ونطق"

إلى أن يقول:

وللأوطان في دم كل حر يد سلفت.. ودين مستحق
"ولا يبني الممالك كالضحايا ولا يدني الحقوق، ولا يحق"
"ففي القتلى لأجيال حياة وفي الأسرى فدى لهمو وعتق"
"وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق"

إلى آخر هذه القصيدة المدوية.. الطائرة الصيت.

* * *

من شعر شوقي أيضاً هذه الأبيات يخاطب فيها المستعمر:

إن ملكت النفوس فابغ رضاها فلها ثورة وفيها مضاء
يسكن الوحش للوثوب من الأ سر فكيف الخلائق العقلاء؟
يحسب الظالمون أن سيوْدْ ون وإن لن يؤيد الضعفاء

والليالي جوائر مثلما جا
روا وللدهر مثلهم أهواء

ولنلاحظ أن شوقي قال هذه الأبيات في عام 1894م والاحتلال الإنكليزي جاثم فوق أرض الكنانة والسلطان عبد الحميد كان ما يزال سلطاناً، وأميراً للمؤمنين.

* * *

شاعر آخر من رصفاء أحمد شوقي.. إنه "معروف الرصافي" الذي يقول في إحدى قصائده الساخرة "القوة تصف الحرية" بأسلوب كله تهكم:

يا قوم لا تتكلموا
إن الكلام محرم
ناموا ولا تستيقظوا
ما فاز إلاّ النوم
وتأخروا عن كلما
يقضي بأن تتقدموا
ودعوا التفهم جانباً
فالخير أن لا تفهموا
وتثبتوا في جهلكم
فالشر أن تتعلموا

من شاء منكم أن يعيـ ـش اليوم وهو مكرم
فليمس لا سمع ولا بصر لديه ولا فم
لا يستحق كرامة إلاّ الأصم الأبكم

وما أكثر هذه "الرصـــافيات" التي لم تكن إلاّ تنديداً بالمســـتعمر.. رصـــافيات لو قالها غير الرصافي آنذاك، لما كان يحظى إلاّ بالسجن أو ما هو أشد من السجن أو النفي والتشريد.

ولنسـتمع إلى شـاعر آخر أيضـاً.. شـاعر من لبنان.. إلى الأخطل الصـغير.. في قصـيدة من قصائده يحيي فيها جهاد فلسطين –والتاريخ اليوم يعيد نفسه– يقول فيها:

يا فلسطين التي كدنا لما كابدته من أسى ننسى أسانا
نحن يا أخت على العهد الذي قد رضعناه من المهد كلانا!
شرف للموت أن نطعمه أنفساً جبارة تأبى الهوانا
انشروا الهول وصبوا ناركم كيفما شئتم، فلم تلقوا جبانا

غدت الأحداث منا أنفساً

لم يزدها العسف إلاّ عنفوانا

* * *

ومن هذه البلاد.. نقرأ لشاعر من الحجاز "محمد صبحي" هذه الأبيات من قصيدة نظمها معارضاً بها قصيدة الشاعر السوري "سليمان الأحمد" –بدوي الجبل– والتي ورد فيها هذا البيت:

ليس في الأرض للضعيف حقوق

طمع الأقوياء غال السلاما

يقول "محمد صبحي" شاعرنا المنسي:

ما أخف الشكوى وأحلى الملاما

لو يكونان يطفئان الأواما!

ما أحب العتاد لو كان ينجي

من هموم ويبرئ الأسقاما

ما أعز الرجاء لو رد حقاً

والتمني لو حقق الأحلاما!

ذهب اليوم كل حق إذا لم

يصطحب ذابلاً ويشحذ حساما

"ليس في الأرض للضعيف حقوق إنما الحق للقوي استداما
طمع الأقوياء بز حقوقاً "طمع الأقوياء غالَ السلاما"

إلى أن يقول:

يا بني أم والحوادث تترى سانح الوقت لا يكون دواما
يا بني أم ليس يجدي التواني لا ولا يثمر "الخلاف" وئاما
فاتركوا العتب والشكاية وامشوا لمجال الوغى، وخلوا الكلاما!
فاجعلوا من دم العدو مداداً واجعلوا من رماحكم أقلاما

ثم يمضي شاعرنا قائلاً:

أيها المسلمون قد وضح الأم ـر، فخلوا الجفا، وخلوا الخصاما
وتعالوا للاتحاد، ولبوا داعي الحق، والزموا الاعتصاما

واستفيقوا فقد دهتنا الليالي إن فيها من الأمور عظاما

ومن نظم شـاعر مكي ناشـئ [26]في تلك الأيام هذه الأبيات من قصـيدة، يخاطب فيها طغاة الاستعمار بعد أن أعلنوا غدرهم بالعهود المعطاة منهم للعرب وشنوا عليهم إرهابهم:

نحن لسنا نخشى المهالك حتى ترهبونا بالقوة الناريه
نحن قوم نهوى المعالي فلا نر ضى سواها، وغيرها أمنيه
نحن قوم، على الإباء جبلنا وفطرنا على الندى والحميه
خبرونا يا ساسة الغرب، يا من قد تمادوا في الظلم والهمجيه
خبرونا. أين العدالة في الأحـ ـكام؟ أين الإنصاف والحريه؟
خبرونا. أين التفاخر بالـ ـعلم؟ وأين الصياح بالمدنيه؟

ومنها:

---

(26) - هو مؤلف هذا الكتاب.

حسبوا أن أمة العرب لا تف هم سير السياسة العصريه
فتغاضوا عما لها من حقوق ورموها بالجهل والوحشيه
وتغنوا بالأمس في مجلس الصلح بتلك المبادئ الولسنيه
أكثروا في مديحها وأطالوا من حديث "الجمعية الأمميه"
هم أرادوا خداعنا، غير أنا قد فهمنا أسرار تلك القضيه
وعلمنا بأن غايتهم، إن هي، إلاّ رهاق للبشريه
أين "ولسون" أيها القوم بل قو لوا لنا: أين راحت "الجمعيه"

ومنها:

ليس في الغرب ما يسمى نظاماً ليس فيه عدل ولا حريه!

إنما هذه معانٍ وألـ   **ـفاظ لديهم، وأسطر شعريه**
*** * ***
أيها الظالمون، أفسدتم الأر   **ض، وأرهقتمو جميع البريه**
قد طغيتم على الأنام ودنسـ   **ـتم نظام الطبيعة الكونيه**
فأخبرونا: هل انتهى الغرب من   **تمثيل تلك الرواية الهزليه**

*** * ***

ولم ينته الغرب طبعاً.

بل في وسعنا أن نقول:

ما أشبه الليلة بالبارحة!

وما أشبه اليوم بالأمس!

ما أشـبه أحداث السـاعة التي نعيشـها الآن.. بأحداث جسـام، مرت بالأمة العربية. وبالعالم الإسلامي. طيلة النصف الأول من القرن العشرين!

ولئن كان قد بلغ من عنف هذه الأحداث أنها أوجدت توتراً وقلقاً في النفوس إلى حد اليأس أحياناً فهي، من ناحية أخرى –قد أوجدت شيئاً آخر أوجدت تصميماً وإصراراً –إلى أبعد مدى –على المقاومة والتحدي!

وقد كانت الأحداث بالنسبة للشعر –مصدر قوة، وباعث يقظة، وينبوع إلهام! لقد أثرت هي في الشعر، وأثر هو –بدوره– فيها!

ولم يحل بينه وبين أن يجاري الأحداث ولم يحل بينه وبين أن يساير روح العصر أيضاً –ويماشي التطور، ويتولى الريادة، ويحمل راية النضال إنه شعر محافظ –كما اصطلحوا أن يقولوا ليوحوا بذلك إلى الأجيال الصاعدة إنه شعر عتيق. لم يعد يصلح لعصر الفضاء!

على أن القافلة –مع ذلك– ما زالت تسير.

وما زال الشعر.. الذي هو الشعر.. هو الذي نصغي إليه فنطرب، أو نتلوه في صفحة من كتاب، فيبعث فينا أسمى العواطف ويهز نفوسنا!

* * *

ونسأل –بعد ذلك– ما دور الشعر في بلادنا؟

إنه من الواضح أن ليس من السهل أن نردد من الآن.. إن الشعر في بلادنا قد بلغ المدى في متابعة حركة الشعر في العالم العربي.

لكنه، لا يسوغ أيضاً أن يتجاهل متجاهل أنه برغم العوائق –وغالبها تاريخية– أن الشعر في هذه البلاد قد أخذ –منذ أن بدأت تستيقظ– يتابع الطريق..

فإذا كانت بعض البلاد الأخرى، قد سبقتنا إلى النهوض، وإذا كانت عوامل التطور والتقدم قد تهيأت لها أكثر.. وساعد ذلك على انطلاقة الشعر هناك، فإن الشعر في مسيرته هنا، لم

يتخلف على أي حال، وإن كان يمكن ألاّ ننكر مع ذلك أنه لم يصل –في مجموعه– إلى المستوى المنشود!

على أن ذلك لا يمنعنا من القول إن نفراً قليلاً من شعرائنا اللامعين استطاعوا أن يصلوا إلى قريب من هذا المستوى، وأن يبدعوا في أكثر من ناحية.

ويهمني أن أركز هنا على ناحية من النواحي، وأعني بها ناحية الشعر الوطني، والعربي، والإسلامي وحديثي الآن –كما ترى– هو عن هذا الديوان.

ومن الحق أن أقول إن الشعر في هذا الديوان نجد فيه صورة ذات ملامح، ولها سمات عن الشعر في بلادنا. في هذا الديوان نلتقي مع شاعر يحرص على أن يثير من ذكرياتنا، وأن يستلهم من ماضينا ومن حاضرنا، ومن كل حدث مثير، كل ما يستحث العزائم ويدفع إلى النهوض!

إنها الحياة، لا معدى لشاعر اليوم من أن ينفعل بها، وأن يجعل من شعره صدى لكل ما يضطرب فيها من أحداث ومآس.. وما يدور فيها من صراع!

وشاعرنا –مع ذلك– كما هو ظاهر وواضح، لا تقل عنايته بالشكل –أعني بالصياغة والأسلوب– عن عنايته بالمضمون!

صياغة محكمة، وعبارة سهلة ومعنى رصين.

سمات وخصائص نلحظها في غالب القصائد في هذا الديوان.

وإن كانت السمات أو الخصائص الأكثر بروزاً هي ما ألمعت إليه من عناية شاعرنا عناية أكثر بالمضمون، ثم عنايته أكثر من أي شيء آخر بالقضايا القومية والإسلامية وما يجري في الحياة!

وهذه هي في اعتقادي ميزة الشعر!

أن يكون شعراً نابعاً من الحياة.. من صميم الحياة.. وأن يكون بالإضافة إلى ذلك. من أجل الحياة..

ميزته أن يعيش الشاعر "شاعراً" بأحاسيس المجتمع متجاوباً معه في كل قضاياه! ولن تعوزنا الشواهد في هذا الديوان.

إن عناوين بعض القصائد فيه تكفي للتدليل على مضمونها.. وأولى هذه القصائد –وغيرها على غرارها قصائد أخرى– قصيدته في "مصارحة البغاة المعتدين" أولئك الذين فرضتهم المطامع الاستعمارية فرضاً وبكل ما تضمره من عداء للأمة العربية.

ألقى الشاعر قصيدته هذه بين يدي المغفور له الملك عبد العزيز في عام 1948م عام نكبة فلسطين.

وكما سبق أن قلت: ما أشبه الليلة بالبارحة فإن الشعر المتأجج في عام 1948 هو نفسه –في مضمونه الثائر على البغاة المعتدين– دائماً نتمثله ونستوحيه.

والشاعر هنا إنما يعبر لنا في هذه القصيدة عن قضية الشعب العربي في ذلك العام ضد العدوان الصهيوني الدنيء.. وهو يصور لنا في نفس الوقت طبيعة اليهود: تلك التي عرفها الناس عنهم في القديم والحديث، يقول شاعرنا:

لحا اللّه قوماً، ناصبونا عداءهم وكل امرئ منهم غوي وفاجر
لهم من صفات اللؤم كل دنيئة فكل امرئ منهم زنيم وساخر
عهودهمو غدر العهود ودأبهم نكوص على الأعقاب بالويل دابر

وما الحلم في معنى الهوان، وإنما رويداً فما في العرب للعهد غادر

نعم هؤلاء هم اليهود قد تعروا من كل صفات الرجولة والشرف.. كل صفاتهم هي اللؤم وكل عهودهم: غدر للعهود..

في عام 1948 أيضاً عندما تم تقسيم فلسطين بقرار من هيئة الأمم المتحدة.. نظم الشاعر قصيدة ثائرة أخرى يندد فيها بالأمم المتحدة، ومجلس الأمن، أو "مجلس اللا أمن" ويقول في هذه القصيدة:

من مبلغ وله أجر ومحمدة عني إلى الكون صوت الثائر الصخب
يا مجلس الأمن، أين الأمن ننشده وأنت بين لظى الأهوال في لهب؟
يا هيئة الأمم الكبرى، وواهفي عليك من هيئة في كف مغتصب!
ويا سراة الورى من كل محتلم يرى الورى داره المشدودة الطنب
هنئتمو يا قضاة الظلم فالتمسوا الحق في عرفه ضرب من اللعب!

هل استرحتم إلى التقسيم ويحكمو **وهل نجوتم به من وصمة الوصب**
هنئتمو يا قضاة الظلم فالتمسوا **نتائج الظلم بين الويل والحرب**

إلى أن يقول –وكأنما مر بخاطره هنا طيف صاحبه أبي الطيب المتنبي:

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسهم **وغير مجلسهم في كل منسرب**
سيعلم الكون في شتى مساربه **في مسبح الحوت، أو في مسرح الشهب**
ليست فلسطين أرضاً نهب مقتسم **لكل ذي سطوة، أو كل ذي نشب**
لكنها من قلوب العرب قاطبة **تعيش محمية في معقل أشب**
عاشت فلسطين في عز، ممنعة **وعاش أعداؤها في الذل والعطب**

نعم.. عاشت فلسطين، وستعيش فلسطين، وسيعود الحق إلى نصابه بإذن الله مهما طال الزمن واستمر الكفاح.

ستعيش فلسطين، ولن يهدأ العرب والمسلمون حتى تعود الأرض المقدسة لأصحابها الشرعيين.

لقد رأينا وشاهدنا في المحنة الأخيرة، كيف أعلنت الدنيا بأسرها سخطها المدمر العنيف ضد العدوان الصهيوني الغاشم ومن وقفوا وراءه من المستعمرين.

ولئن كانت القوى الجبارة قد اختارت لنفسها أن تتستر وراء عدوان صهيون وأن تغدق عليه من سلاحها الفتاك بلا حدود بل ومن خداعها الشرير ما قد أحال هذه الملحمة من نصر كبير كنا معه على موعد لا شك فيه، إلى هزيمة لم تكن منظورة فلم يكن ذلك، ولن يكون، سوى حافز جديد كأقوى ما تكون الحوافز في الحياة الأمم والشعوب... حافز جديد، لا يأس فيه أبداً ولا قنوط، لمتابعة النضال.

وما من ريب في أن قضية فلسطين، وهي القضية الأولى للعرب والمسلمين –دون جدال– قد كان لها في نفس الوقت أثر وأي أثر في بعث الفكرة الإسلامية من جديد في الشعوب الإسلامية، الفكرة الإسلامية في مدلولها الشامل العميق.

الفكرة الإسلامية الناصعة، في دعوتها الدائمة إلى تلاقي المسلمين، وإلى وحدة المسلمين.

ولم يكن عقد المؤتمر الإسلامي في "أم القرى" عام 1964 إلاّ ثمرة من ثمار هذا البعث في أوساط المسلمين.

في ذلك العام شهدت وفود المسلمين لأول مرة بعد فترة من الزمن، ذلك الحفل الكبير تقيمه رابطة العالم الإسلامي ويرأسه جلالة الملك، في البلد الأمين.

ذلك الحفل الكبير لثاني مؤتمر إسلامي ينعقد في هذه المملكة بعد المؤتمر الأول عام 1344هـ في هذا الحفل الإسلامي الكبير نستمع إلى الشاعر صاحب هذا الديوان يلقي قصيدته على العهد به في كل موقف مهيب.. وفيها يقول:

مرحباً بالوفود في كنف الله أهلت، وفي رحاب الخلود
عقد الحب بينها، فتواصى كل قلب بكل عطف وجيد
ما رأى الكون وحدة تتجلى مثلها اليوم أمة في صعيد

ولنمض مع شاعرنا أيضاً في قصيدة أخرى لا أحب أن أختم كلمتي هذه.. قبل أن أنقل هنا بعض أبياتها. إنها قصيدة "دعوة الحق" ألقاها في حفل افتتاح الإذاعة اللاسلكية للمملكة العربية السعودية في شهر ذي الحجة من عام 1369 هجرية، وقد رأس هذا الحفل سمو الأمير فيصل – جلالة الملك– نيابة عن جلالة والده الملك عبد العزيز.

في هذه القصيدة –كغيرها من قصائد الديوان– روعة تأخذ بمجامع النفوس حقاً يقول فيها:

حدثينا عن القرون الخوالي ما الذي كان يا هضاب الجبال؟
حدثينا ففي الحديث حياة هي للمبصرين أجدى مثال
ما الذي كان منذ فجر بعيد أشرقت منه ساطعات اللآلي؟

يوم هبت من دعوة الحق تترى صرخات تدك صم الجبال
يوم نادى "محمد" بالذي نا دى إليه من رفعة وكمال!

إلى أن يقول:

ومضت دعوة الهدى في بلاغ وتعالى بالحق صوت "بلال!"
رددي يا شعاب مكة طوعاً صيحة الحق من وراء الجبال!
وابعثي يا شعاب مكة للآ فاق بالنور مشرقاً بابتهال!
حدثينا أليس حقاً وصدقاً ما روته لنا القرون الخوالي!
حدثينا، ورددي في اتئاد ما سمعناه من فم الأجيال!
كيف أصغت للمجد من كل صوت نفحات النفوس دون اختيال!

إلى أن يقول:

ذاك عهد مضى، وولى حميداً هو فخر لنا، وفخر الأوالي
زعم الناس والمضلون كثر أن حلم الماضي بعيد المنال!
ذاك عجز.. فما لحاضر قوم أي فخر بغير ماضٍ مثال!
فانظر اليوم وارجع الطرف واسأل أي حال تبدلت بعد حال؟
واسأل اللّه في خشوع وذل أن يقي المسلمين سوء المآل

أبيات فرائد.. لا أشك في أن القارئ يشاركني الرأي في سموها وإبداعها.

إنها تثير فينا كل معاني الطموح

بل تثير فينا العزم وتثير فينا الإقدام

تثير فينا: إرادة الحياة قوية عزيزة كريمة. وتهيب بنا أن نثق بأنفســـنا وأن نؤمن بوجودنا وأن نستلهم من ماضينا المجيد كل الحوافز للعمل وللبناء.

نعم.. وهذا هو الشعر الذي نريد.

أن يكون –كما أسلفنا– نابعاً من حياتنا. ومن أجلها! أن يكون مهمازاً لنا وحافزاً!

أن يكون الصدى لكل ما تهجس به نفوسنا. ونتوق إليه من معالي الأمور.

لقد أصبحنا في زمن كله صراع وتنازع على البقاء. زمن لم يعد يحتمل حياة الضياع.

زمن لم يعد فيه أي مجال لشعر اللهو، أو شعر الترف، أو شعر الفراغ.

زمن.. لم يعد فيه أي مكان لضعيف. أو متواكل أو "متقوقع" سادر في الأحلام.

زمن.. لم يعد فيه المجتمع الحديث –كما يقول أحد الباحثين– يرضى للشعر أن يكون كالآنية المرصعة تسر الناظرين برونقها، وتثير إعجابهم بعجيب صنعها. فالعربي اليوم، يطمح إلى أن يجد في الأدب صدى وجدانه وحياته وواقعه. ويأمل أن يقع في الفن على ما يغذي روحه ويتجاوب مع أفكاره ومنازعه، ومع آلامه وآماله باعتباره إنساناً قبل كل شيء.. ومواطناً ينتسب إلى شعب هو منه كالخلية من الجسم، كما لم يعد بوسع الأدب العربي أن يستمر في عزلته المديدة عن المجتمع وما يضطرب فيه دون أن يساير الحياة، وأن يؤثر فيها ويتأثر بها.

وبعد فيا قارئي العزيز: أراني قد أطلت.

ترى أيشفع لي في ذلك إغراء الموضوع، وانفساح مجال القول فيه وتعدد نواحيه؟

مهما كان الأمر فإني لا أخفي ولا أستطيع أن أخفي أني لم أوف بعد في كلمتي هذه ما أردته لها من استقصاء وشمول:

وقد كنت أحرص ما أكون على أن أخص العديد من القصائد في هذا الديوان ببعض الحديث فما استطعت. ومن هذه القصائد –على سبيل المثال "الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة" وقصائده عن نسورنا الأبطال من جنود المظلات –وإنشاء الجامعة الأهلية، وتحيته للفتاة السعودية، وتحيته لأول صحيفة سعودية –وأنشودة الحج –والراحمون –وسائلوا نجداً –ونهضة الشرق –وجمال بلادي –ومجد الوطن –وثورة سياسية –ومهلاً أغادير –ومن وحي بغداد – ووقفة على أمجاد القيروان –والشعر في حقيقته –وملحمة الحرب الكبرى وغيرها.

فإن يكن فاتني ذلك، لأن الموضـــوع أوســـع من أن تســـتوعبه مقالة.. فمعذرة لك وللأخ الصديق الشاعر صاحب "وحي الفؤاد" تحيتي.

عن الشاعر حافظ إبراهيم[27]

دعوة الإصلاح في شعر حافظ إبراهيم، شاعر مصر المشهور، موضوع هام ولا شك، وهادف في نفس الوقت.. يعود الفضل في اختياره، لجامعتنا الفتيَّة، جامعة الملك عبد العزيز.

وليس من شك في أنَّ الجامعة حين اختارت هذا الموضوع قد أحسنت الاختيار حقاً، أولاً من ناحية الشاعر نفسه، فهو علم من أعلام الشعر في هذا العصر، جدير بأن يتجه نحوه البحث، وأن يُعنى به النقاد، وثانياً من ناحية الموضوع، إذ المعروف عن الشاعر حافظ إبراهيم –يرحمه الله– أنه كان أكثر شعراء مصر في زمنه التفاتاً إلى نواحي الاجتماع والإصلاح، إلى جانب عنايته البالغة بقضايا أمته السياسية بصورة عامة، إن لم أقل، بقضايا الشرق، وقضايا المسلمين.

ومن أجل هذا كله، كان حافظ أدنى إلى قلوب مواطنيه، ومن أجله كرَّموه –كما نعلم– بأكثر من لقب.. فهو شاعر النيل، وهو شاعر الشعب، وهو شاعر مصر الاجتماعي، وشاعر الوطنية.

وليس من خلاف في أن حافظ إبراهيم، حريٌّ وخليق بكل هذه الألقاب.

لقد كان حافظ لسان أمته الناطق، وصوتها الجهير.

كان حافظ المعبر عن آمالها وآلامها، وشؤونها وشجونها.

وهو –بشهادة معاصريه وكما سبق أن نوَّهت– أكثر شعراء مصر والشرق، اهتماماً بمصر والشرق.

كان حافظ يشكو ويئن.. وما أكثر ما كان يشكو ويئن.. من جمود الفكر، في عهد ساد فيه جمود الفكر، ومن تخلف أمته، وتخلف شعوب الشرق جميعاً في شتى الميادين.

---

[27] - بحث ألقاه المؤلف في المؤتمر الأول للأدباء السعوديين المنعقد في مكة المكرمة عام 1394هـ.

كان أصـــدق الشـــعراء حباً لوطنه، وبرأيه، هذا ما قاله عنه الدكتور "محمد حســـين هيكل" الأديب السياسي المعروف.

ويقول عنه "سامي الدهان" أحد الباحثين السوريين: "ما أعرف شاعراً من شعرائنا خص شعره بأمته وأحداثها في العصـــر الحديث، كما فعل محمد حافظ إبراهيم، كان جريدة مصـــر الناطقة، ولسانها المبين، وشاعرها الاجتماعي، وترجمان بؤسها وآلامها."

هذا هو حافظ شاعر الشكوى والأنين، وشاعر البؤس والألم، ليس من أجل نفسه فحسب.. وإنما في صورة أنصع، من أجل الناس الآخرين.

ومن الحق أن أقول إن أمته الوفية، قد عرفت له كل هذا. عرفت له صدق حبه لها. عرفت له إخلاصه في كل ما كان يشكو منه ويئن، وفي كل ما كان يدعو إليه من إصلاح ونهوض.

عرفته له مصر.. بل وعرفته له شعوب الشرق، فأولاه الجميع حباً بحب وأعطوه من تقديرهم وإكبارهم، ما لم يحظ به –فيما أعلم– أي شاعر آخر من شعراء جيله الكبار.

وقد كان حافظ، يقســـو –أحياناً– في نقده لمواطنيه، كان يقســـو إلى درجة التأنيب، وله في ذلك أبيات روائع –ومع هذا.. كان مواطنوه جميعاً، يتقبلون منه هذه القسوة برضىً وارتياح.

يقول عنه صديقه "حفني محمود" كانت شخصية حافظ من أحب الشخصيات إلى الناس.. ثم يضـــيف إلى ذلك قوله: ".. وهو في كثير من الأحيان، يكون قاســـياً في صـــراحته، ولكن روح الإخلاص البارزة في شعره كفيلة بأن تسيغ صراحته، وتجعلها شهيَّةً مُحببةً."

ولنستمع إليه في أبيات له مشهورة.. صبَّ فيها جام غضبه على قومه، آنذاك نذكرها كمثال من قسوة حافظ، ومن عنفه في نقده الاجتماعي، عندما يشتد به ألمه.

يقول حافظ وهو يُندد بفئات من الناس، قد لا يخلو منهم زمن، ولا مكان، قصارى همهم أن يفخروا بمن سبقهم:

وذي إرث يُكاثرها	بمالٍ غير مُكتسب
وفي الرومي موعظة	لشعب جد في اللعب

إلى أن يقول:

فقل للفاخرين أما	لهذا الفخر من سببِ؟
أروني بينكم رجلاً	ركيناً واضح الحسبِ
أروني نصف مخترعٍ	أروني ربع محتسبِ
أروني نادياً حفلاً	بأهل الفضلِ والأدبِ

ثم يقول:

فهبوا من مراقدكم	فإن الوقت من ذهب
فهذي أمة اليابا	ن.. جازت دارة الشُّهُب

فهذا مثال من شـــعر حافظ إبراهيم، عندما كان يقســـو في نقده للمجتمع.. مهيباً به إلى النهوض، ليجاري أمماً جازت دارة الشهب، وكانت اليابان في ذلك الوقت قطعت شوطاً كبيراً في نهضتها.. ولفتت إليها الأنظار، حينما خاضت حرباً عنيفةً مع القيصرية الروسية، خرجت منها منتصرة!

إن حافظاً في شـــعره هذا القاســـي العنيف، إنما يعبر -في الواقع- عن صـــدق حبه لوطنه، وإخلاصه له، وغيرته عليه.

وهو في صـــدقه، وإخلاصـــه، وغيرته، ليس له من مأربٍ ســـوى الإصـــلاح، ولا شـــيء غير الإصلاح.

وهو قلما كان يقسو، وقلما كان يشتد، وأنى للمحب الولهان، أن يقسو ويشتد.. إلاّ في أندر الأحيان!

وإذا كان حافظ، قد تميَّز -كما هو ملحوظ- بأنه كان أكثر شعراء عصره -ومنهم شوقي- مناداة بالإصـــلاح، وإمعاناً -لهذا الســـبب- في اللوم والتقريع، إلى جانب ما كان يترنم به في جُل شعره "في حب مصر كثيرة العشاق" على حد تعبيره في إحدى قصائده الذائعة.. فالسر في ذلك -كما يذكر كل من ترجموا لحياته- يعود إلى ظروف حياته الخاصـــة والعامة.. فقد ولد حافظ ونشأ في أوساط الشعب.. بعيداً عن أي جو يوصف بالأرستقراطي.. يضاف إلى ذلك أنه أحس بالحرمان منذ صـــباه، وربما في أكثر حياته.. وكان طبيعياً في ظروف كهذه الظروف، أن يلتصـــق حافظ بأفراد الشعب أكثر، وأن يمتزج بكل طبقة من طبقاته على اختلافها، ومن هنا كان تعاطفه أصيلاً معها.. وإحساسه متجاوباً مع إحساسها، لقد أدرك ما يعانيه الشعب يومذاك.. عرف سر الداء، فلا غرو إذن -أن يتميَّز أكثر من غيره، من أقرانه ومعاصريه، بأن يصبح شاعر الشعب، المصور لآلامه وهمومه، والمنادي بالإصلاح.

ويذكر عنه مترجموه أن ظروفه هذه لم تمكنه من بلوغ أقصى مراحل التعليم، غير أنه استعاض عن ذلك بسعة اطلاعه على الأدب العربي، وبكثرة محفوظة من عيون الشعر، لقد كان لحافظ من اسمه نصيب حقاً ومن هنا كانت ثقافته الأدبية، وعلمه الواسع باللغة، مضرب الأمثال.

وكان لهذا كله أثر ملحوظ في شعره، فأسلوب حافظ ولا شك هو أجود الأساليب، لقد اشتهر حافظ بأسلوبه القوي، بأسلوبه الرائع، وكان لذلك، إذا قال شعراً، لا يلبث أن تتناقله الأفواه، وتتلمَّظ بحلاوته الشفاه، كما يقول الأستاذ عبد القادر المغربي، عالم اللغة الكبير، ونائب رئيس المجمع العلمي بالشام. أيضاً يقول الأستاذ المغربي:

"شعر حافظ يمتزج بالعاطفة فيولد فيها رقة الشعور، ويمتزج بالنفس فيولد فيها ذوق اللغة، ويمتزج باللسان فيغرس فيه ملكة الفصاحة.

مدارسة كتب الأدب، واستظهار الفصيح من نوادر اللغة لا يمنح النفس واللسان ملكة الفصاحة بقدر ما يمنحها شعر كشعر حافظ.. نقيُّ اللفظ، منسجم الأسلوب، مشرق الديباجة، يُعبِّرُ عن خوالج النفس الوطنية الثائرة، فيحفزها نحو مطامحها العظمى، وينير أمامها الطريق إلى مثلها الأعلى."

هذا الأسلوب الذي عُرف به حافظ إبراهيم، بين شعراء عصره، وارتفع به إلى ذروة البيان، وأصبح به واحداً من شعراء ثلاثة كبار، هم أشهر شعراء العربية في الثلث الأول من القرن العشرين: شوقي وحافظ وخليل مطران.. هذا الأسلوب المؤثر الجميل، كان في الواقع، ثمرة ثقافة غير عادية في الأدب العربي، واللغة العربية.

فإذا ما التفتنا إلى ناحية أخرى من نواحي شخصية هذا الشاعر الفريد، أو من نواحي ثقافته العامة، ومنابع هذه الثقافة.. وجدنا مواطنه الأستاذ أحمد أمين يشير إلى مصدر من مصادر ثقافته، في مقدمته لديوانه.. فيقول:

"كان من مصادر ثقافته، تجاربه الواسعة، فقد أتاح له بؤسه الامتزاج بغمار الناس، ومجالستهم ومشاركتهم في الخير والشر، ومطارحتهم النكات والنوادر، كما مكن له ظرفه وأدبه، أن يتصل بسادة الناس وقادتهم، يسمع لحديثهم، ويسمعون لأدبه، وأن يتصل برجال النهضة الوطنية، فيأخذ عنهم، ويلتهب حماسة من حماستهم، ويمتلئ وطنية من وطنيتهم."

وشيء آخر –يقول الأستاذ أحمد أمين– "يُعدُّ مصدراً كبيراً من مصادر ثقافته، وهو كثرة غشيانه لمجالس العلماء، وقادة الرأي في الأمة، فقد اتصل بالأستاذ الشيخ محمد عبده، وعدَّ نفسه فتاه.. وكان يحضر بعض دروسه التي يلقيها على نخبة من الفضلاء في منزله بعين شمس، ويجلس في مجالسه، وقد يصحبه في أسفاره، ثم يغشي مجالس أمثال سعد زغلول ومصطفى كامل ونحوهم، وكانت مجالسهم مدارس من أرقى المدارس، تطرح فيها المسائل العلمية، والمعضلات السياسية، والمشكلات الاجتماعية، وتعرض فيها الحلول المختلفة، وتبسط فيها أدواء الأمم، وكيف عولجت، وما إلى ذلك.. وحسبك بمدارس –يقول الأستاذ الأمين– كان المعلم فيها أمثال "محمد عبده" و "سعد زغلول" و "مصطفى كامل" ولعلَّ هذا كان أكبر منبع استقى منه حافظ أفكاره التي صاغها في شعره."

هذا ما يرويه لنا عن حافظ أوثق من كتبوا عنه من كبار الباحثين، المرحوم الأستاذ أحمد أمين، ومنه نستخلص أن حافظاً شاعر النيل، وشاعر الوطنية، وشاعر مصر الاجتماعي، وشاعر البؤس والألم، والشكوى والأنين.. ما كان يقول الشعر، لمجرد رغبته في القول، أو لمجرد عشقه للشعر، أو ليملأ الدنيا، ويشغل الناس، وإنما كان حافظ في أكثر شعره، وخاصة في المجال الاجتماعي، شاعر عقيدة، شاعر مبدأ، شاعر وجدان، أو كما نقول –في لغة اليوم– شاعر التزام!

وطبيعي أن من أسباب ذلك، هو أولاً: ظروف حياته الخاصة، وأهمها –كما سبق أن أشرت– نشأته في الوسط الشعبي، ثم كثرة اختلاطه بالناس، معايشته لهم.. امتزاجه بهم امتزاج حب ومشاركة وجدانية، كل هذا جعل منه إنساناً متعاطفاً مع الناس، مُتحسِّساً لأحاسيسهم، ملمًّا بشؤونهم، مدركاً لهمومهم، فلا غرو، وهذا جانب من جوانب حياته الخاصة، أو العامة إن شِئنا

أن يجيء شعره تصويراً لحياتهم، أو تعبيراً عنها.. إن حافظاً هو في الحق "شاعر الناس" كما يقول طه حسين.

شاعر الناس!

أجل.. ما أبلغه وصفاً موجزاً، معبراً وموحياً.. يصفُ به عميدُ الأدب في مصر، شاعر بلده حافظ إبراهيم.

رافد آخر أيضاً.. أتاح لهذا الشاعر الكبير أن يكون شعره تصويراً لحياة الناس، أو تعبيراً عنها.. وأن يكون –بالإضافة –إلى ذلك –شعراً قوياً، يهز النفوس!

هذا الرافد، هو ما ذكره الأستاذ أحمد أمين، عن كثرة غشيانه لمجالس العلماء، وقادة الرأي في الأمة، واتصاله بهم، وخاصة: محمد عبده، ومصطفى كامل، وسعد زغلول.

هؤلاء الرجال الثلاثة، لا خلاف في أنهم نخبة من ظهروا في مصر، بين قادة الرأي في العصر الحديث.

وكان من حسن حظ حافظ –ولا جدال– أن التقى بهم، وصاحبهم، وتتلمذ لهم، واستفاد من حضوره مجالسهم، واستماعه لما يدور فيها من مناقشات، سواء في العلم، أم الأدب، أو السياسة والاجتماع.

لقد كانت صلة حافظ بهؤلاء الأقطاب، على ما كان بينهم جميعاً، من خلاف في السياسة، وفي الرأي، مما هو ليس بمجهول.. كانت صلته بهم كأقوى ما تكون صلة.. وولاؤه لهم، كأعظم ما يكون ولاء.

وليس أدل على ذلك، من قصائد رثائه فيهم، وهي أصدق وأجود قصائد رثاء، قيلت في هذا العصر، ووُصف حافظ من أجلها، بشاعر الرثاء!

وغير هؤلاء أيضـــاً، من رجال الفكر، كان حافظ وثيق الصـــلة بهم، ولقد أعانه على ذلك خصـــال اجتمعت فيه.. فهو ألوف ودود، سمح متواضـــع، مرح إلى أقصـــى حدود المرح، عذب الحديث، كثير النوادر.. يقول زكي مبارك في وصـفه لأحاديث حافظ: "إن الدنيا كلها لا تساوي لحظة في حضرة حافظ إبراهيم.. فيا رحمتا لمن صرفتهم الشواغل أو المقادير عن أحاديث حافظ إبراهيم، فإن هؤلاء حُرموا من خير كثير.. إلى آخر ما يقوله المبارك.

فليس غريباً وهذه هي نشـأة حافظ وظروفه، وهذه هي صـلاته الودية بالناس، وبينهم علماء كبار وساسة وقادة فكر وزعماء وطنيون، وزعماء إصلاح، مع ما توفر فيه من خصال، تحببه إلى كل هؤلاء.. أقول: ليس غريباً وهذا هو حافظ أن يكون نسيجاً وحده، شاعراً وطنياً، اجتماعياً، يهيب بأمته أن تنهض، ويدعو في بلاده إلى الإصلاح.

كانت مصـر منذ أواخر القرن التاسـع عشـر، قد وقعت فريسـةً لاحتلال بغيض، اسـتمر إلى زمن قريب، وقد نشأ عن هذا الاحتلال الأجنبي الوافد إلى مصـر.. ما لا بد أن ينشأ، وما لا بد أن يكون!

نشأت في نفوس الناس، بسبب هذا الاحتلال المداهم، حالة يأس مريرة، كادت تستبد بهم.. هذا إلى جانب ما وصلت إليه البلاد من تخلف شاملٍ، في أكثر من ميدان.

وهذا التخلف الذي وصلت إليه مصر، وأحس به أبناؤها، كان في الواقع سائداً في كل أقطار المسلمين.

ومن مكر الاحتلال الأجنبي في مصر –كما هو ديدنه في كل مصر– تخطيطه الخبيث للإبقاء على التخلف، ومقاومته للإصلاح.

وليس من مجال هذا البحث، تسـجيل ما قد نجم عن هذا الاحتلال من أسـوأ الآثار في البلد الشقيق.

غير أنه من الواجب الإشارة إلى ما قد نشأ من رد الفعل في أعقاب الاحتلال.

كان من آثار هذا الاحتلال أنه أيقظ الوعي العام.

وفي هذه الفترة بالذات كانت هناك صحف تندد بالاحتلال!

وكان الزعيم الشاب "مصطفى كامل" زعيم الحزب الوطني –وبتأييد من الخديوي في بادئ الأمر– على رأس المقاومين للاحتلال.

والمعروف عن مصطفى كامل أنه كان في سياسته وفي نضاله الوطني إسلامي النزعة، وكان ينادي بوجوب ارتباط مصر بالدولة العثمانية، على اعتبار أن سلطان العثمانيين هو خليفة المسلمين، وهو الرمز الباقي للوحدة الإسلامية.

والحق أن مصطفى كامل، له فضل في النضال الوطني، إلى حد بعيد، وفي تجسيد مقاومة المحتلين، وكانت خطبه الحماسية ومقالاته النارية في جريدته اللواء.. تلهب المشاعر، وتثير النفوس.

وكان لهذا كله، أثره في نفوس الشعراء الوطنيين، ومنهم، بل في مقدمتهم حافظ إبراهيم.

في ميدان آخر.. كان الأستاذ الشيخ محمد عبده مفتي مصر في ذلك الوقت يتابع نضاله ومعه تلاميذه في مجال الإصلاح الديني.

كانت دعوة الشيخ محمد عبده، دعوة سلفية –كما هو معروف– وكان على رأس أتباعه السيد رشيد رضا.

كان يدعو إلى العودة بالدين إلى ما كان عليه سلف هذه الأمة، وتنقيته مما دخل عليه في عصور التخلف من بدع وخرافات.

وانتشرت أفكار كل من مصطفى كامل، ومحمد عبده، وظهر الكثيرون من أصحاب الأقلام يشاركون بحماس وإخلاص، في الميدانين، ميدان مقاومة الاحتلال، وميدان الدعوة إلى الإصلاح.

في ميدان الدعوة إلى الإصلاح، ونتيجة لتبدل الأفكار، ونمو الوعي.. استجدت هنالك أمور وأمور، منها ما يتعلق بالتعليم، وباللغة العربية، ومنها ما يتعلق بالمرأة، إلى آخر ما هناك.

وانبرى كل صاحب رأي وفكر، وكل صاحب قلم، يسهم بدوره في كل هذه المجالات، أو في بعضها، سواء عن طريق الكتب، أم عن طريق الصحافة، أم عن طريق المحاضرات.

وكان بديهياً أن يكون للشعر، نصيب الأسد –كما يقول المثل– في كل مجال من مجالات الرأي، حول هذه الأمور.

كان الإصلاح هو الهدف، وكانت الدعوة إليه قوية وسليمة بعد أن أيقن الوطنيون، أن لا بد من إصلاح مهما كان من تعنت المحتلين، في مقاومتهم للإصلاح.

ونسأل ونحن ندخل في صميم البحث: ما هو دور الشعر –بصورة خاصة– في هذا النضال منذ أخذ ينمو بإطراد في مصر في أوائل القرن العشرين؟

وما هو دوره فيما أوجده هذا النضال من حركة في الأفكار؟

ثم –أخيراً وليس آخراً– ما هو دوره في الدعوة إلى الإصلاح؟

من الواجب أن نؤكد أن دور الشعر في هذه الفترة، كان بارزاً بروزاً واضحاً، بل ليس من المبالغة إن قلنا إن دور الشعر كان أكثر بروزاً ووضوحاً.. ربما أن السبب في ذلك أن الشعر كان السابق في النهضة، والسابق في الازدهار.

لقد نبغ في مصر في تلك الفترة أشهر شعرائها إلى اليوم.

كان هناك أحمد شوقي وحافظ وإسماعيل صبري وحفني ناصف، وخليل مطران بعد أن استوطن مصر.. ثم السيد البكري وأحمد محرم ومحمد عبد المطلب وغيرهم، وغيرهم.

وقبل هؤلاء جميعاً.. ظهر في مصر محمود سامي البارودي، وهو الذي يعتبرونه بحق، رائد البعث الشعري الحديث.

وغني عن البيان أن لكل واحد من هؤلاء الشعراء الكبار، دوره في الحركة الفكرية، وإسهامه في دعوة الإصلاح.

لأن تلك النهضة الشعرية نفسها إنما تميزت وأينعت، بإسهام شعرائها في تلك الحركة، وفي ذلك النضال!

كان لكل منهم أثره في الميدان.. كان لكل منهم شعر يعبر عن اهتمام بالمجتمع، وإن كان اهتمام كل منهم يختلف.. ويبدو لي أن ثلاثةً منهم، كانوا أوفر نصيباً، وأغزر إنتاجاً من بقية زملائهم.. وأعني بهم: شوقي وحافظ وأحمد محرم..

والحق أن شوقي، برغم مركزه الرسمي –وللمركز الرسمي في كل الأحوال ظروفه– ما كان ليدع أية مناسبة ذات صلة بقضايا المجتمع وشؤون الإصلاح إلاّ ويدلي فيها بدلوه، ويشارك فيها بروائع من شعره ما تزال تُحفظ إلى اليوم.

وكان أحمد محرم وهو شاعر الحزب الوطني أكثر انطلاقاً وتحرراً بطبيعة الحال من أحمد شوقي!

أما بالنسبة لحافظ إبراهيم فلا شك أن الأمر هنا يختلف. نعم فإنه إذا قيل إن شوقي مثلاً.. لا يسبقه حافظ في دولة الشعر، وربما –في رأي البعض– لا يجاريه.. إلاّ أنه مما لا اختلاف فيه أن ميزة حافظ تبدو منفردة وحدها بالسبق عندما ننظر إليه من ناحيته الشعرية الخاصة، وهي تفوقه وإبداعه –أكثر من سواه– في الميدان السياسي والاجتماعي، وفي الدعوة إلى الإصلاح.

لقد كان حافظ، كما سبق القول، هو الذي وُصف بشاعر الوطنية، وشاعر الشعب، وواضح أن حافظاً لم يصل إلى هذه المنزلة في نفوس مواطنيه، إلاّ لأنه كان أكثر اتصالاً بنفوسهم.. وأكثر تعبيراً عن شؤونهم وشجونهم.. وأكثر تغنّياً بحب الوطن، وأجهر صوتاً في دعوة شبابه وشيوخه إلى التيقظ والنهوض.

فعن وطنيته يحدثنا عبد الرحمن الرافعي، فيقول:

"تتجلى الروحِ الوطنية، ويتألق نورها في شعر حافظ، ولقد وجدت الحركة الوطنية في قصائده البديعة قوة تستمد منها الحماسة والصمود في الجهاد، والثورة على الاحتلال."

كان شعره معيناً لا ينضب من الكفاح الوطني، وكان حبه للوطن يملك عليه شغاف قلبه، ويلهمه الذود عن حريته واستقلاله، ولقد عبّر عن هذه العاطفة الملتهبة بقوله من قصيدة له سنة 1900:

متى أرى النيل لا تحلو موارده
لغير مرتهب للّه مُرتقب
فقد غدت مصر في حال إذا ذكرت
جادت دموعي لها باللؤلؤ الرَّطِبِ
كأنني عند ذكرى ما ألَمَّ بها
قَرْمٌ تردَّد بين الموت والهرب
إذا نطقت فقاع السِّجن متَّكأٌ
وإن سكتُّ فإن النفس لم تطب
أيشتكي الفقر غادينا ورائحنا
ونحن نمشي على أرضٍ من الذَّهبِ؟

وقوله في قصيدة سنة 1910:

كم ذا يكابد عاشق ويلاقي

في حب مصر كثيرة العشاق؟

إني لأحمل في هواك صبابة

يا مصر قد خرجت عن الأطواق

لهفي عليك متى أراك طليقة

يحمي كريم حماك شعب راق

كَلِفٌ بمحمود الخلال مُتَيَّمٌ

بالبذل بين يديك والإنفاقِ

ذلك ما يقوله ويستشهد به، مؤرخ مصر الحديثة، حول وطنية حافظ إبراهيم.

ونحن إذ نردد هذا القول، عن وطنية حافظ.. فإنما نردده لأن فيه أبلغ دلالة على ما سبق أن ذكرناه عنه وأكدناه.. ولأن هذه الوطنية المخلصة، كانت في الواقع هي الدافع والحافز وراء شدة هيام حافظ بالإصلاح، ومتابعة دعوته لقومه في كل مناسبة تسنح.. وعند كل حادث يقع.. إلى إثبات وجودهم في الحياة، وإلى محاربة كل عوامل الضعف والتخلف.. وكان من رأيه ورأي غيره من الوطنيين أن الاحتلال البغيض من أهم أغراضه الإبقاء على هذا الضعف، والوقوف في وجه كل صلاح، شأنه في كل بلاد أخرى أتيح له أن يسيطر عليها.

ولقد كان من خطط الاحتلال، ومن أبعد أهدافه، أن يقضي على أهم مقومات الأمة، وطبعاً ليس أهم هذه المقومات، بالنسبة لمصر.. وبالنسبة لكل أمة عربية أخرى سوى لغة القرآن: اللغة العربية الفصحى، وعبثاً حاول المحتلون أن يتحقق لهم ذلك، حاولوه بأكثر من أسلوب.. حاولوه أولاً بفرض لغتهم في التعليم، وحاولوه ثانياً بإيعازهم لبعض موظفيهم وأتباعهم، بإثارة قضية لم تكن ذات موضوع، ولم يكن لها من مبرر سوى الرغبة المبيَّنة في تحقيق واحد من أهدافهم.

أثاروا قضية اللغة العربية.. وكأنها مشكلة المشكلات، أثاروها لا لشيء.. إلاّ لغرض محوها.. بإحلال اللغة العامية مكانها.

في سنة 1900م هبط مصر، واحد من رجالهم، يُدعى "ويلمور"، ماذا فعل مستر ويلمور هذا؟ إنه بمجرد وصوله، أو هبطوه، أخذ يذيع دعوته في الناس. دعوته إلى اللغة العامية، ظل الرجل يكتب ويخطب، ويحاور ويناظر، دون كلل أو فتور.. ولم يكفه ذلك.. بل أضاف إليه أنه ألَّف كتاباً ونشره بين المصريين يدعوهم إلى فكرته، وهو يأمل أن يقنعهم بها.

واضطرب المصريون أمام هذه الدعوة، وجزعت لها نفوسهم، وتبارت الأقلام في الصحف: تندد بهذه الدعوة وتنكرها.. وكان فريق من أتباع، الوافدين إلى مصر في ذلك العهد.. يقفون إلى جانب "ويلمور."

وفي هذا الصدد، يقول الأستاذ عبد القادر المغربي، في كلمة له عن هذه القضية:

"ومما يؤسف له أن يجد "ويلمور" أنصاراً له من الشعوبيين شايعوه على رأيه، وأقاموا ضجةً في القطر المصري، اهتزت لها البلاد العربية قاطبة، وكادت تكون لويلمور وأشياعه الغلبة لو لم تصدمهم نهضة حماة اللغة الفصحى، وفي طليعتهم.. حافظ إبراهيم، فيرفع صوته في وسط تلك الضجة، منشداً قصيدته الخالدة على لسان اللغة الفصحى تخاطب أبناءها وتسألهم نصرها وإغاثتها، وتقول:

أيطربكم من جانب الغرب ناعب **ينادي بوأدي في ربيع حياتي؟**
ولو تزجرون الطير يوماً علمتو **بما تحته من فرقة وشتات**

ثم تلوم الصحف على خوضها في هذا الموضوع، فتقول:

أرى كل يوم في الجرائد مزلقاً	من القبر يدنيني بغير أناةِ
وأسمع للكتَّاب في مصر ضجَّةً	فأعلم أن الصائحين نُعاتي

ولقد كانت قصيدة حافظ هذه، من أروع ما قيل يومها.. واشتهرت في سائر أنحاء مصر والعالم العربي، واستقبلها كل ناطق بالضاد بالإكبار والإعجاب. وفيها يقول حافظ على لسان اللغة:

سقى اللَّه في بطن الجزيرة أعظُما	يعز عليها أن تلين قناتي!
حفظن ودادي في البلى، وحفظته	لهن بقلب دائم الحسراتِ
* * *	
أيهجرني قومي عفا اللَّه عنهمو	إلى لغة لم تتصل برواةِ؟
سرت لوثة الإفرنج فيها كما سرى	لُعاب الأفاعي في مسيل فراتِ
فجاءت كثوبٍ ضمَّ سبعين رقعة	مُشكَّلة الألوان مختلفات

ثم يقول:

وَسِعْتُ كتاب اللّه لفظاً وغاية
وما ضِقتُ عن آي به وعظات:
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة
وتنسيق أسماء لمخترعاتِ؟
أنا البحر في أحشائه الدر كامن
فهل سألوا الغواص عن صدفاتي؟

هذه القصيدة الحافظية الفريدة، لا شك في أنها رائعة كل الروعة، رائعة في بلاغتها وصدقها، وموضوعها –كما نرى– إنها تدعونا وتغرينا بأن نتابع إيراد أبيات أخرى منها، تقول اللغة العربية، أو يقول حافظ على لسان اللغة العربية، مشيراً، إلى أن الغربيين إنما نالوا ما نالوه من عز، حين عزت لغاتهم:

ها هي ذي الفصحى تقول:

أرى لرجال الغرب عزاً ومنعةً
وكم عز أقوام بعزِّ لغات!
أتوا أهلهم بالمعجزات تفنناً
فيا ليتكم تأتون بالكلمات!

وفي ختام القصيدة توجه دعوتها إلى الكتَّاب، قائلة في نُصح:

إلى معشر الكتاب والجمع حافل	بسطت رجائي بعد بسط شكاتي
فإما حياة تبعث الميت في البلى	وتنبت في تلك الرموس رفاتي
وإما ممات لا قيامة بعده	ممات –لعمري– لم يُقس بمماتِ

وما بنا من حاجة إلى القول إن هذه القصيدة الشاكية.. كان لها أجمل وقع، وأعظم صدى، بل كان لها أيضاً أثرها الإيجابي في إخفاق دعوة مستر ويلمور وسائر أتباعه ومشايعيه، وعاد الرجل إلى بلاده بعد أن ذاق مرارة الخيبة.. وانتصرت لغة القرآن!

* * *

وفي سنة **1908** عندما هبت مصر لتحقيق فكرة الجامعة المصرية، بعد جدل طويل أُثير حول هذه الفكرة، وكان هناك معارضون لفكرة الجامعة بتحريض من المحتل.. زاعمين أن مصر آنذاك ليست في حاجة إلى جامعة، بقدر ما هي في حاجة إلى الإكثار من نشر التعليم الأولي إلى آخر ما كانوا يذيعون، وقد باءت مزاعم المعارضين بالخيبة هي الأخرى، وتنادى المخلصون من سائر أنحاء القطر إلى وجوب تعضيد هذا المشروع، وانهالت تبرعات الأثرياء لتمويله، وكان حافظ في طليعة المنادين بتعضيده، فنظم قصيدة، قال فيها:

حياكم الله أحيوا العلم والأدبا	إن تنشروا العلم، ينشر فيكم العربا

فلا حياة لكم، إلاّ بجامعة تكونُ أُماً لطلاب العلا وأبا!
تبني الرجال، وتبني كل شاهقةٍ من المعالي، وتبني العز والغلبا
ضعوا القلوب أساساً لا أقول لكم ضعوا النضار، فإني أصغر الذهبا!
وابنوا بأكبادهم سوراً لها، ودعوا قيل العدو.. فإني أعرف السببا!
لا تقنطوا إن قرأتم ما يُزوِّقُه ذاك العميد.. ويرميكم به غضبا
وراقبوا يوم لا تغني حصائده فكل حيٍّ سيُجزى بالذي اكتسبا
وجاوبوه بفعل لا يُقوِّضُه قولُ المفند أنى قال أو خطبا!
لا تهجعوا.. إنهم لن يهجعوا أبداً وطالبوهم.. ولكن أجملوا الطلبا

* * *

وفي سنة 1910م نُشرت له قصيدته الشهيرة، التي يحث فيها على إعانة إحدى مدارس البنات، وفيها يقول:

إني لتطربني الخلال كريمةً
طرب الغريب بأوبةٍ وتلاقي
وتهزني ذكرى المروءة والندى
بين الشمائل هزة المشتاقِ
فإذا رزقت خليقة محمودة
فقد اصطفاك مقسم الأرزاقِ
فالناس هذا حظه مال، وذا
علم، وذاك مكارم الأخلاق
والمال إن لم تدخره مُحصَّناً
بالعلم.. كان نهاية الإملاق
والعلم إن لم تكتنفه شمائل
تُعليه.. كان نهاية الإخفاق
لا تحسبن العلم ينفع وحده
ما لم يُتوَّج رَبُّه بخلاق!

ثم يقول:

من لي بتربية النساء فإنها
في الشرق علَّةُ ذلك الإخفاقِ
الأم مدرسة إذا أعددتها
أعددت شعباً طيب الأعراق
الأم روض.. إن تعهَّده الحيا
بالرَّيِّ أورق أيَّما إيراق
الأم أستاذ الأساتذة الأُلى
شغلت مآثرهم مدى الآفاقِ

إلى أن يقول:

ربوا البنات على الفضيلة إنها
في الموقفين لهن خير وثاق

وفي قصيدة أنشدها في حفل أقامته مدرسة مصطفى كامل لتوزيع الجوائز على المتقدمين من تلاميذها، يقول مشيراً إلى ما سمعه في الحفل من أشعار وخطب تنوه بالتعليم وبالعلم:

سمعنا حديثاً كقطر الندى
فجدَّد في النفس ما جدَّدا
فأضحى لآمالنا مُنعشاً

وأمسى لآلامِنا مُرقدا
فديناك يا شرق لا تجزعن
إذ اليوم ولى فراقب غدا
فكم محنةٍ أعقبت محنةً
وولّت سِراعاً كرجع الصَّدى
فلا يُيْئِسَنَّكَ قيل العُداةِ
وإن كان قيلا كحز المُدى
أتودع فيك كنوز العلوم
ويمشي لك الغرب مسترفدا؟
وتُبعثُ في أرضك الأنبياء
ويأتي لك الغرب مسترشدا؟

ويمضي فيها إلى أن يقول:

أيجمل من بعد هذا وذاك
بأن نستكين وأن نجمدا؟
فيا أيها الناشئون اعملوا
على خير مصر وكونوا يدا
ستظهر فيكم ذوات الغيوب
رجالاً تكون لمصر الفِدا

فيا ليت شعري من منكمو
إذا هي نادت يُلَّبي النداءَ؟

وكثيراً ما كان حافظ يخاطب الشـــباب، يســـتنهض منهم الهمم، ويحثهم على الجد في طلب العلوم، وانتهاج مكارم الأخلاق، ومن قصائده التي ضمَّنها هذا الموضوع، قصيدته في تحية العام الهجري، عام 1328هـ وقال فيها:

أهلاً بنابتة البلاد ومرحباً
جدَّدتم العهد الذي قد أخلقا
لا تيأسوا أن تستردُّوا مجدكم
فلرب مغلوبٍ هوى ثم ارتقى
مدَّت له الآمال من أفلاكها
خيط الرجاء إلى العلى فتسلقا
فتجشموا للمجد كل عظيمة
إني رأيت المجد صعب المرتقى
من رام وصل الشمس حاك خيوطها
سبباً إلى آماله.. وتعلَّقا
عار على ابن النيل سبَّاق الورى
مهما تقلَّب دهره أن يُسبقا

ثم يقول:

فتعلموا فالعلم مفتاح العُلا لم يبق باباً للسعادة مغلقا
ثم استمدوا منه كل قواكمو ن القويَّ بكل أرض يُتَّقى
وامشوا على حذرٍ فإن طريقكم وعر.. أطاف.. به الهلاك وحلَّقا

وفي قصيدة أنشدها بمناسبة افتتاح ملجأ الحرية يقول:

يا رجال الجد هذا وقته آن أن يعمل كل ما يرى
ملجأ.. أو مصرفاً.. أو مصنعاً أو نقابات لزراع القرى
أنا لا أعذر منكم من ونى وهو ذو مقدرة أو قصَّرا
فابدأوا بالملجأ الحر الذي جئت للأيدي له مستمطرا
واكفلوا الأيتام فيه واعلموا

إن كل الصيد في جوف الفرا

أيها المثري ألا تكفل من

باتَ محروماً يتيماً مُعسِرا

أنت ما يدريك لو أنبتَّه

ربما اطلعت بدراً نيِّرا!

ربما أطلعت "سعداً" آخراً

يُحكم القول ويرقى المنبرا

ربما أطلعت منه "عبدَه"

من حمى الدين وزان الأزهرا

ربما أطلعت منه شاعراً

مثل "شوقي" نابهاً بين الورى

ونلاحظ إشارته في الأبيات الثلاثة الأخيرة إلى سعد زغلول ومحمد عبده وأحمد شوقي.. الرجلان الأولان كان حافظ –كما سبق أن نوّهت– من أشد المعجبين بهما. أما أحمد شوقي فقد كان الشاعر الأول النابه بين الورى.. ورغم ما كان بين الشاعرين من منافسة طبيعية.. إلاّ أن كلاً منهما كان يكنُّ للآخر إعجابه وتقديره.. وقد رأينا حافظاً يعلن مبايعته لشوقي في حفل تكريمه سنة 1926م ورأينا شوقي لما مات حافظ قبله بشهرين يرثيه أبلغ رثاء، ويقول في مطلع رثائه له:

قد كنت أوثر أن تقول رثائي

يا مُنصف الموتى من الأحياء!

وفي قصيدة أخرى يخاطب فيها حافظ الشباب يقول:

رجال الغد المأمول إنا بحاجةٍ
إلى قادة تبني، وشعب يعمِّرُ

رجال الغد المأمول إنا بحاجةٍ
إلى عالم يدري، وعلم يُقرَّرُ

رجال الغد المأمول إنا بحاجةٍ
إلى حكمة تُملى، وكفٍّ تحرِّرُ

رجال الغد المأمول إن بلادكم
تناشدكم باللَّه أن تتذكروا

عليكم حقوق للبلاد، أجلُّها
تعهُّدُ روض العلم، فالروض مقفرُ

قصارى منى أوطانكم أن ترى لكم
يداً تبتني مجداً، ورأساً يفكر

فكونوا رجالاً عاملين أعزَّةً
وصونوا حمى أوطانكم وتحرَّروا

* * *

ويتمنى حافظ لأمته أن يراها تباري غيرها من أمم الحضـــارة: علماً ووثباً إلى العلا، ونضـــالاً.. كما نرى في قصـــيدةٍ له أنشـــدها في حفل أقامته كلية البنات الأمريكية موجهاً فيه الخطاب إلى أمريكا.. يقول فيها:

أي رجال الدنيا الجديدة مهلاً
قد شأوتم بالمعجزات الرجالا
وفهمتهم معنى الحياة، فأر
صدتم عليها لكل نقصٍ كمالا
وحرصتم على العقول فحرَّ
متم عصيراً يراه قوم حلالا

وواضـح أنه هنا يشـير إلى قانون لتحريم المسـكرات، كانت أمريكا أصـدرته في ذلك الحين.. ثم يقول حافظ:

وقدرتم دقيقة العمر حرصاً
وسواكم لا يقدُرُ الأجيالا
قد طويتم فراسخ الأرض طيًّا
ومشيتم على الهواءِ اختيالا
ثم سخَّرتم الرياح فسمتم
حيث شئتم جنوبًا والشمالا

إلى أن يقول:

ثم حاولتم الكلام مع النـ	ـجم فحَمَّلتُمُ الشعاع مقالا
ومحا "فُوردُ" آية المشي حتى	شرعَ الناس ينبذون النِّعالا!
وأقمتم في كل أرض صروحاً	تنطحُ السُّحب شامخات طوالا
وغرستم للعلم روضاً أنيقاً	فوق دنيا الورى.. يمدُّ الظلالا

ثم يقول:

ليت شعري متى أرى أرض مصر	في حمى الله تنبتُ الأبطالا
وأرى أهلها يُبارونكم علـ	ـماً ووثباً إلى العلا.. ونضالا!

* * *

ولا ينســى حافظ أن يدعو أمته إلى توحيد كلمتها، وإلى نبذ التخاذل، والدعوة إلى توحيد الكلمة، ونبذ التخاذل، ليست بعيدةً عن دعوة الإصلاح وأيُّ إصلاح يمكن أن يتحقق إذا لم تكن الأمة متحدة متضامنة.. يقول الحافظ:

ويد الإله مع الجماعة فاضربوا بعصا الجماعة، تظفروا بنجاحِ
كونوا رجالاً عاملين، وكذِّبوا -والصبحُ أبلجُ- حامل المصباحِ
ودعوا التخاذل في الأمور فإنما شبحُ التخاذل أنكر الأشباح
والله ما بلغ الشقاء بنا المدى بسوى خلافٍ بيننا وتلاحي

وعلى نحو ما كان حافظ -رحمه الله- يدعو إلى توحيد الكلمة ونبذ الاختلاف، وعلى نحو ما كان يدعو إليه من نشر التعليم، مع مساواة المرأة بالرجل في هذا المجال. وعلى نحو ما كان يدعو إليه من تعضيد لمشروع الجامعة الأهلية وغيره من مشاريع الإصلاح.. كان حافظ أيضاً يدعو إلى مواساة البائسين والمنكوبين، إن مجال الإصلاح عند هذا الشاعر لا يختص بنواحٍ دون أخرى.. فكل أمر يرجى منه الخير للأمة، أو لفريق من الأمة.. أو بدفع ضرراً أو شراً.. هو جزء من مخطط الإصلاح.. وقد كان لحافظ صوته المدوِّي كلما وقع حدث، أو وقعت مأساة لا في بلده مصر وحدها بل في أي بلد من بلاد الله.

عند كل مناسبة لإنشاء مشروع خيري.. نجد حافظاً أول الداعين إلى تعضيده في قصيدة أو أكثر.. من ذلك قصائده في الحفل الذي أقامته جمعية رعاية الأطفال في الأوبرا سنة **1910**م وجمعية إعانة العميان سنة **1916**م وجمعية الطفل سنة **1928**م.

وعندما تقع مأساة.. نجد حافظاً لا يقر له قرار، ولا يرتاح له ضمير.. فإذا به يهزُّ الناس هزاً بشعره الباكي الحزين، يصور المأساة تصويراً تهلعُ له النفوس، وتدمع له العيون، يستصرخهم أن يتسابقوا للبذل في سبيل إغاثة من لفحتهم المأساة بنارها، ووقعوا ضحية لها.. ولم تكن قصائد حافظ في هذه المواقف الصارخة تذهب سدى.

في سنة 1902م شبت النار في مدينة ميت غمر من أعمال الدقهلية وبقيت تأكل كل ما تأتي عليه في هذه المدينة، وظلت هذه الحالة أسبوعاً ومات بسببها كثيرون، ودُمِّر الكثير من المنازل.. ولعظم هذه النكبة تألفت جماعة من الأعيان لتخفيف ويلات هذا المصاب.

سائلوا الليل عنهمو والنهارا
كيف باتت نساؤهم والعذارى؟
كيف أمسى رضيعهم فقد الأمَّ
و كيف اصطلى مع القوم نارا؟
كيف طاح العجوز تحت جدارٍ
يتداعى، وأُسقُف تتجارى؟
ربِّ إن القضاء أنحى عليهم
فاكشف الكرب وأحجب الأقدارا
ومُرِ النار أن تكفَّ أذاها
ومرِ الغيثَ أن يسيل انهمارا
أين طوفان صاحب الفُلك يُروي

	هذه النار، فهي تشكو الأوارا!
أشعلت فحمة الدياجي فباتت	تملأ الأرض والسماء شرارا
* * *	
أكلت دورهم فلما استقلَّت	لم تغادر صغارهم والكبارا
أخرجتهم من الديار عُراة	حذر الموت يطلبون الفرارا
يلبسون الظلام حتى إذا ما	أقبل الصبح يلبسون النهارا
حُلَّةً لا تقيهمُ الحرَّ والبر	د، ولا عنهمو تردُّ الغبارا

ثم يقول:

أيها الرافلون في حُلل الوشـ	ـي يجرُّون للذيول افتخارا
إن فوق العراء قوماً جياعاً	يتوارون ذلةً وانكسارا

إلى آخر هذه القصيدة المشجية.. وقد كان لها صداها في دفع أغنياء البلاد، وغيرهم من أهل اليسار إلى التبرع السخي إغاثة منكوبي حريق ميت غمر.

وبنفس هذه الروح، وانطلاقاً من هذه المشـاعر الدفاقة كتب قصـيدته الذائعة الصـيت في وصف زلزال مسينا بإيطاليا وفيها يقول:

ما لمسين عوجلت في صباها
ودعاها من الردى داعيان
ومحت تلكمُ المحاسن منها
حين تمَّت آياتُها آيتان
خُسِفَت، ثم أُغرقت، ثم بادت
قُضي الأمر كلُّه في ثواني
وأتى أمرها فأضحت كأن لم
تك بالأمس زينة البلدان
ليتها أُمهلت فتقضي حقوقاً
من وداع اللَّدات والجيران
لحة يسعدُ الصديقان فيها
باجتماع ويلتقي العاشقانِ
بغت الأرض والجبال عليها

وطغى البحر أيَّما طغيانِ

ثم يقول:

رُبَّ طفل قد ساخ في باطن الأ رض ينادي: أُمي! أبي؟ أدركاني!
وفتاة هيفاء تُشَوى على الجم رِ تعاني من حرِّه ما تعاني
وأب ذاهل إلى النار يمشي مُستميتاً تمتدُّ منه اليدانِ
باحثاً عن بناته وبنيهِ مسرعَ الخطوِ مستطير الجنان
تأكل النار منه، لا هو ناجٍ من لظاها.. ولا اللَّظى عنه واني
غصَّت الأرض، أتخم البحر مما طوياه من هذه الأبدانِ
وشكا الحوتُ للنسور شكاة ردَّدتها النسور للحيتان
أسرفا في الجسوم نقراً ونهشاً

ثم باتا من كظَّةٍ يشكوانِ

* * *

وكثيراً ما كان حافظ إبراهيم في قصائده السياسية الثائرة.. يشكو من عنت الاحتلال.. يشكو من جوره وعسفه.. يشكو من وقوفه معارضاً لكل إصلاح.. وما كان يبالي أن يوجه خطابه بين آونة وأخرى، إلى عميده: عميد الاحتلال "كرومر" بمثل هذه الأبيات:

لقد كان فينا الظلم فوضى فهذبت
حواشيه.. حتى بات ظلماً منظما
تمنُّ علينا اليوم أن أخصب الثرى
وأن أصبح المصري حرًّا منعَّما!
عملتُم على عزِّ الجمادِ.. وذلنا
فأغليتمو طيناً.. وأرخصتمو دما!
إذا أخصبت أرض.. وأجدب أهلها
فلا أطلعت نبتاً، ولا جادها السَّما

والمعروف عن كرومر، أو اللورد كرومر.. غروره وعجرفته الشديدة..

ولقد كان يفخر بجراءة عجيبة بما يزعمه لنفسه من إصلاحات تمت في عهده. منها أن الزراعة تقدمت في مصر وهو بهذا يتجاهل أنَّ نكبة مصر، لا.. ولا يمكن أن يعوَّض عنها أي تقدم من هذا القبيل.. خاصةً وهو تقدم إنما تمَّ لأن المحتلين الغاصبين هم المستفيدون منه أولاً.

وعندما يستقيل كرومر ويُزمع على مغادرة البلاد.. في سنة 1907م يودعه حافظ أو يشيِّعُه بقصيدةٍ تهكمية لاذعة.. يقول فيها:

فتى الشعر هذا موطن الصدق والهدى فلا تكذب التاريخ.. إن كنت منشدا
لقد حان توديع العميد وإنه حقيق بتشييع المحبين والعِدا
فودِّع لنا الطود الذي كان شامخاً وشيع لنا البحر الذي كان مُزبدا

ثم يخاطبه بقوله:

يناديك قد أزريت بالعلم والحجا ولم تبق للتعليم "يا لورد" معهدا
وأنك أخصبت البلاد تعمداً وأجدبت في مصر القول تعمدا!

وهذا هو السر.. أو هذا هو الهدف من وراء إخصاب البلاد.

ثم يقول:

قضيت على أم اللغات وإنه قضاء علينا أو سبيل إلى الردى!

نعم.. لقد تعمد الاحتلال القضاء على اللغة العربية، أولاً بتقريره وجوب جعل دراسة العلوم في أكثر المدارس باللغة الإنكليزية.. وثانياً بدعوته الآثمة والفاشلة إلى إلغاء الفصحى.. وإبدال العامية بها.

ثم يقول الشاعر:

وأودعت تقرير الوداع مغامزاً
رأينا جفاء الطبع فيه مجسَّدا
غمزت بها دين النبي، وإننا
لنغضب إن أغضبت في القبر أحمدا

ويشير الشاعر هنا إلى آخر تقرير قدمه كرومر لحكومته حمل فيه على المصريين حملة شعواء وتعرض فيه للإسلام بمطاعن لا تصدر إلاّ عن جاهل بحقيقة الإسلام، أو متعصب.

وقد كان معروفاً عن حافظ شدة تدينه، وغيرته على الإسلام ولم يكن هذا غريباً من حافظ، وهو تلميذ محمد عبده ومصطفى كامل –على ما أشرت إليه من قبل– وكلاهما كان مشهوراً – ولا سيما محمد عبده– بدعوته الإسلامية الإصلاحية.

فإذا ما رأينا حافظاً في هذا البيت الأخير يستشيط غضباً تجاه حملة كرومر على الإسلام، وعلى النبي (صلى الله عليه وسلم) فإنما يُعبِّر بذلك عن عقيدة وإيمان وعن غيرة إسلامية لا تشوبها شائبة.

* * *

ويسوقنا الحديث هنا إلى أن نذكر بعض أبيات فرائد لحافظ مما لا يخرج بنا عن صُلب هذا البحث. منها قوله عن دعاء المظلوم:

دعوة البائس المعذَّب سور
يدفع الشر عن حياض الكرامِ
وهي حرب على البخيل، وذي الـ

غي.. وسيف على رقاب اللئام

ومنها قوله في حكمة الزكاة:

لو وفى بالزكاة من جمع الما	ل، وأهوى على اقتناء الحطامِ
ما شكا الجوع مُعدمٌ أو تصدى	لركوب الشرور، والآثام!

ومنها قوله في التنديد بمدنية الغرب حينما اندلعت نار الحرب العالمية الأولى:

لا هُمَّ إن الغرب أصبح شعلةً	من هولها أمّ الصواعق تفرقُ
العلم يُذكي نارها وتثيرها	مدنية خرقاء.. لا تترفَّق
ولقد حسبت العلم فينا نعمة	تأسو الضعيف ورحمة تتدفق
فإِذا بنعمته بلاء مرهق	وإذا برحمته قضاء مطبق
إن كان عهد العلم هذا شأنه	فينا.. فعهد الجاهلية أرفق!

وبعد فإن الحديث عن حافظ شاعر الناس.. لا شك.. سيطول لو أردنا أن نصل في هذا الحديث إلى غاية مداه.

أظن أنه يحسن الوقوف عند هذا الحد.. بعد أن تناول البحث أكثر النقاط ذات الصلة بحياة الشاعر من ناحية.. وبشعره الاجتماعي والوطني، ودعوته إلى الإصلاح من ناحية أخرى.

لكني لا أحب أن يختم هذا البحث قبل الإشارة إلى قصيدة من قصائد حافظ إبراهيم، تعتبر ذروة فريدة بين سائر درره الشعرية.. قصيدة ذات تاريخ.. قصيدة ربما يراها الكثيرون أروع قصائد حافظ في مجال الوطنية والاجتماع.

قصيدته: "مصر تتحدث عن نفسها" وكان قد نظمها سنة 1921م على أثر قطع مفاوضات جرت بين رئيس حكومة مصر عدلي يكن ووزير خارجية إنكلترا لورد كيرزون وانتهت بالفشل.. في هذه القصيدة يشيد الشاعر بوطنه مصر وبتاريخها بأسلوب رائع جميل، أجرى فيه حديثه كله على لسان مصر.. على غرار ما صنعه في قصيدته عن اللغة العربية.

مصر في قصيدة حافظ هذه.. تناشد أبناءها وهي تروي لهم ألواناً من أمجاد ماضيها أن يحتذوا هذا الماضي.. ثم تهيب بهم أن يتعاونوا على التمسك بحقهم كاملاً حتى يبلغوه.

أجل ومهما كان من أمر الغاصبين فلا بد لأبناء مصر وهم طلاب حق يناضلون في سبيله دوماً.. لا بد لهم مهما طال الزمن من حصولهم عليه.

وها هي مصر تناشد أبناءها أن يمهروها بالروح، ويردوا بها منازل العز ويرفعوا دولتها على العلم والأخلاق، ويتواصوا بالصبر.. وهو أهم ما ظل حافظ ينادي به طيلة حياته في دعوته الإصلاحية:

تقول مصر:

قد وعدت العُلى بكل أبيٍّ من رجالي.. فانجزوا اليوم وعدي
أمهروها بالروح فهي عروس تنشأُ المهر من عُروض ونقدِ
وردوا بي مناهل العز حتى يخطب النجمُ في المجرَّة وُدِّي
وارفعوا دولتي على العلم والأ خلاق فالعلم وحده ليس يُجدي!
وتواصوا بالصبر.. فالصبر إن فا رقَ قوماً فما له من مَسَدٍّ!

ثم تدعو مصر.. أو يدعو شاعِرها إلى توحيد الكلمة ونبذ الشقاق فيقول:

إن في الغرب أعيناً راصدات كحَّلتها الأطماع فيكم بسُهدِ
فوقها مِجهرٌ يريها خفايا كم.. ويطوي شعاعُه كلَّ بُعدِ
فاتقوها بِجُنَّةٍ من وئام غير رث العُرى.. وسعي وكدِّ
نحن نجتاز موقفاً تعثُر الآ

راء فيه.. وعثرةُ الرأي تُردي!

ثم يقول:

فقفوا فيه وقفة الحزم، وارموا

جانبيه بعزمة المُستَعيدِّ

إننا عند فجر ليلٍ طويلٍ

قد قطعناه بين سُهدٍ ووجدِ

غمرتنا سود الأهاويل فيه

والأمانيُّ بين جزر ومَدِّ!

وتجلى ضياؤه بعد لأي

وهو رمز لعهدي المسترد

فاستبينوا قصد السبيل وجدُّوا

فالمعالي مخطوبة للمجدِّ!

* * *

نعم.. هذا هو حافظ إبراهيم، في هيامه بوطنه مصر.. وفي ندائه إياه في كل مناسبة تسنح إلى توحيد الكلمة.. وتركِ الخلاف.. وفي دعوته له دائماً إلى النهوض والإصلاح.

هذا هو حافظ إبراهيم، شاعر مصر والشرق في الثُلثِ الأول من القرن العشرين.

هذا هو حافظ إبراهيم، شــاعر الناس، الذي أحبَّ الناس.. وأحبه الناس وكان أقرب شـعراء جيله وللآن.. إلى قلوب الناس.

هذا هو حافظ، صديق الجميع، صديق الكبراء والزعماء، وصديق الشعب. الذي كان يألف ويؤلف.. وكان بسماحة نفسه، وبسجاحة خُلقه، وبسحر حديثه، وبجاذبية شخصيته الودود المرحة.. يملأ النوادي والمجالس، أُنساً وبهجةً وفكاهةً.. وفي نفسه من الهمِّ والشجن.. وفي حياته من البؤس والشظف، ما نلمسه لمساً، في شعره الحزين عندما يشكو ويئن..

هذا هو حافظ.. الذي كان شعره مرآة نفسه.. ومرآة حياته.. ومرآة عصره.. وكان في شعره الهادف إلى الإصلاح: الرائد الذي لا يكذب أهله، والناصح الأمين.

وأخيراً –لا آخراً– هذا هو حافظ الذي لم يُرد أن يجعل من شعره وسيلة لهو وترف.. وأداة كسب وانتفاع.. أو مجرَّد طريق "عُبور" إلى الشهرة.. أو فناً من أجل الفن.. وإنما آثر الطريق الصعب.. آثر أن يكون شاعر نضال وكفاح.. آثر أن يكون شاعر قومه في المقام الأول.. يبُثهم شكواه منهم.. وغيرته عليهم.. وإخلاصه لهم.. ويدعوهم بلسان الشاعر الملهم، وبأسلوب الفنان العبقري، إلى النهوض والتقدم والإصلاح.

ومع أن العصر الذي عاش فيه، كان عصر انبعاث الشعر، وكان يحفل بشعراء فحول عمالقة.. إلاّ أنه هو وزميله شوقي كانا وحدهما الطائرين المحلِّقين.. وكانا وحدهما شاعري مصر.. وشاعِري العصر.

ولم يبالغ الدكتور طه حسين، عندما قال عنهما في كتابه "حافظ وشوقي."

.."هما أشعر أهل الشرقِ العربي، منذ مات المتنبي وأبو العلاء، من غير شك، هما ختام هذه الحياة الأدبية الطويلة الباهرة.. التي بدأت في نجد.. وانتهت في القاهرة، وعاشت خمسة عشر قرناً أو أكثر، والتي ستستحيل وتتطور، وتستقبل لوناً جديداً من ألوان الفن، وضرباً جديداً من ضروب المُثل العُليا في الشعر."

مقالات صحفية

مشروع القرش حجر أساس النهضة الاقتصادية

مشروع القرش

حجر أساس النهضة الاقتصادية [28]

الآن وقد ظهر هذا المشـــروع الوطني الكبير إلى حيز الوجود بعد أن كان إلى عهد قريب، فكرة من الأفكار؛ نظرية من النظريات؛ وحلماً من الأحلام.

الآن وقد ظهر مشروع القرش وعملت سنة التطور عملها المحمود في خلقه وإبرازه إلى ميدان العمل والتنفيذ.

الآن وقد أصـــبح موضـــوع المشـــروع موضـــوع تفكير في خير الطرق وأنجع الوســـائل لاســـتغلاله والاستفادة منه –فقد أصبح لزاماً أن يساهم في هذا التفكير كل من يرى في نجاح هذا المشروع الحيوي الجليل رمزاً من رموز القوة والمنعة لهذا الوطن المحبوب وتحقيقاً لأمنياته السعيدة وآماله القومية الكبرى!

فأولاً، ما هي الغاية المتوخاة من مشـــــروع القرش هذا؟ أهي مجرد التطوع لجمع القروش في الأعياد والمناســـبات المقررة لذلك؟ لا ليســـت هذه هي الغاية من هذا المشـــروع كما نفهم ذلك جميعاً –وإنما غايته الوحيدة هي خلق النهضة الاقتصادية لهذا الوطن والسعي لجعلها قوية ناضجة شاملة لكل فروع الاقتصاد الصناعية والزراعية والتجارية، لكي تصل هذه البلاد إلى تلك النتيجة التي سبق أن وصلت إليها ســـائر البلدان الناهضـــة الأخرى، ولكي لا تظل –ونعني هذه البلاد– عالة إلى الأبد –كما هو الحال الآن– على اقتصـاديات الخارج ومحصـولات الخارج ومنتوجات الخارج، ولكي تسـتطيع أن تقف على قدميها مرفوعة الرأس موفورة الكرامة مسـتغنية عن سـواها في كافة حاجياتها لا فرق في ذلك بين ما هو ضروري وبين ما هو كمالي من هذه الحاجيات.

---

[28] - المصدر :جريدة صوت الحجاز في يوم الثلاثاء 5 ذو الحجة سنة 1355.

هذه الغاية الإصلاحية الكبرى هي غاية مشروع القرش الذي طالما قرأنا عنه في صحفنا شتى التفاصيل، وهذه الغاية نفسها هي غاية كل الأمم وكل الشعوب، بالأخص في هذا العصر الحديث الذي ما أحرانا أن نسميه (عصر الاقتصاد) فقد أصبح الاقتصاد فيه شغل الأمم الشاغل، وأصبح الاقتصاد فيه محو كل الحوادث والشؤون، بل أصبح الاقتصاد الطابع الوحيد الذي يتسم به هذا العصر العجيب، وحقاً ليس هذا بالأمر الشاذ وليس هو بالشيء الغريب؛ فلم لا يكون الاقتصاد كذلك وهو مدار الحياة! ولم لا يكون الاقتصاد كذلك وهو (ترمومتر) القوة ومعيار العظمة والجهاز العصبي لجميع الأعمال؟

إن الأمة متى تستطيع أن تنتج كل ما تحتاج إليه أو أكثر ما تحتاج إليه، هي الأمة الغنية القوية والناجحة، ثم هي بعد ذلك وفوق ذلك الأمة المحترمة المرموقة من جميع العالم بكل نظرات الإعجاب.

وهذا ما وصلت إليه أمم أوروبا اليوم وسابقها في تلك الأمم النائية في العالم الجديد وراء الأتلنتيك وتكاد الأمة الشرقية الفريدة الفائزة في هذا المضمار هي (اليابان)، أما أمم الشرق الأخرى وفي طليعتها مصر والعراق وتركيا وإيران فجميعها اليوم على الأبواب.. وجميعها اليوم تبذل كل جهودها الجبارة من أجل الوصول إلى هذا المطمع والحصول على الفوز في ميدان السباق الاقتصادي إن صحَّ هذا التعبير.

أما نحن فقد بقينا مع الأسف الشديد في مؤخرة كل هذه الأمم وإلى الآن لا تزال حياتنا الاقتصادية كما كانت منذ القديم؛ إلى الآن ما زلنا عالة على سوانا في كل شيء كما سبق التنويه؛ فلا زراعتنا تطورت عما كانت عليه وأدخل عليها ما أدخل على زراعات العالم من مختلف وسائل التحسين والتنويع، ولا صناعتنا ظهرت في عالم الوجود.

على مذبح "الذاتية..." [29]

بين القوة والعدل صــــراع وجدل، وبين الظلم والعدل تنافس وتقارع، بين الغرب الطامع المتغلب، وبين الشرق المتحفز المغلوب، هذا التقارع والتنافس، وذاك الجدال والصراع.

* * *

صراع، هو بين الإنسانية الصارخة المعذبة، وبين شبح الاستعمار الهائل! أنهار من الماء تسيل، وأشلاء من الجثث تُرمى. ولكن فيم؟ وعلام؟ في سبيلك أنت يا منفعة كل هذا..

أنت أنت أيها الجبارة!

إنها الحرب العوان.. هي ذي مستمرة بإصرار –ولكن..؟

ولكن على مذبح الذاتية!!

* * *

الحق والعدل، يطلبان حقاً وعدلاً!

ولكن القوة ترفض ذلك، والظلم يأباه!

والشرق والإنسانية ينشدان اليوم وسينشدان إلى الأبد: حياة للشرق، وحياة للإنسانية.

ولكن الغرب، هو ذا يكره أن يسمع، وأن يفهم.. وشبح الاستعمار، هو ذا يرغي ويزبد!

أي نعم، أي نعم، إنها الحرب العوان، مستمرة بإصرار –وعلى مذبح الذاتية!!

---

(29) - المصدر :صوت الحجاز 1351/6/9هـ.

من أبطال الإسلام

عبد الرحمن بن عوف

عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبد بن الحرث بن زهرة، من أشهر رجالات الإسلام الأولين، وأحد العشرة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين شهد لهم بالجنة، وأحد أعضاء الشورى الستة الذين عهد إليهم الخليفة عمر بن الخطاب عند وفاته بانتخاب خليفة للمسلمين..

ولد بعد عام الفيل بعشر سنين؛ وكان اسمه في الجاهلية "عبد عمرو" أو "عبد الكعبة" فسماه الرسول "عبد الرحمن."

كان من أوائل من دخلوا في الإسلام؛ هاجر إلى الحبشة، ثم إلى المدينة؛ وشهد بدراً، والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

كان تاجراً عبقرياً بارعاً؛ وسياسياً، ولقد كانت حياة قريش في الجاهلية: حياة تجارة وكفاح.. ولذا قلما تجد بين رجالها البارزين إلاّ تاجراً ناجحاً، أو سياسياً نابهاً، أو قائداً موفقاً من قواد الحروب!!

وأول ما هاجر إلى المدينة آخى الرسول بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري أسوة ببقية المهاجرين الذين آخى الرسول بين كل واحد منهم وواحد من الأنصار، قال سعد بن الربيع لعبد الرحمن بن عوف:

–أنا أكثر أهل المدينة مالاً.. فانظر إلى شطر مالي فخذه.. ولي زوجتان. فانظر إلى أيهما أعجب إليك.. فأطلقها لك!. فقال له عبد الرحمن: بارك الله لك، ولكن إذا أصبحت فدلوني على سوقكم!. فلما أصبح غدا إلى السوق فباع واشترى وربح، وعاد في المساء ومعه سمن واقط.. ثم أقبل ذات يوم على الرسول وعليه ثياب مزعفرة، فلما سأله الرسول عن ذلك؛ قال: تزوجت فقال له الرسول: فما أصدقت؟ قال: (وزن نواة من ذهب) فقال له الرسول: فأولم ولو بشاة.

وظل في المدينة بعد هجرته إليها، يمارس التجارة؛ ويساهم في الجهاد، فما هو إلا أن أصبح بعد قليل، من كبار الأغنياء؛ وكان يقول: (لقد رأيتني وما أرفع حجراً إلاّ ظننت أني سأجد تحته ذهباً أو فضة!).

كان عبد الرحمن بن عوف أغنى قريش حقاً!

كان يعرف كيف يجمع المال.. ولكنه كان يعرف أيضاً كيف يسخو بإنفاق المال في وجوه الخير، وفيما يعود للمسلمين بالفائدة العامة!

كانت تجارته تجارة الرجل الحكيم، الذي ينظر إلى المال على أنه وسيلة.. وليس غاية.. وسيلة لأن يحيا صاحبه حياة رجولة وكرامة.. ثم وسيلة لإسداء البر والإحسان..

وما أكثر ما أحسن عبد الرحمن بن عوف!. وما أكثر ما أسدى من بر!. جاء في "الإصابة" أنه تصدق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بشطر ماله.. ثم تصدق بعد بأربعين ألف دينار، ثم حمل على خمسمائة فرس، في سبيل الله وخمسمائة راحلة..

وكان دائم البر لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم. ولأقربائه وأصهاره من بني زهرة وغيرهم ولعامة المسلمين..

صاهر كثيراً من القبائل، وتزوج من قريش، وتزوج من الأنصار وهنا نذكر رأياً للدكتور طه حسين في هذا الصدد، أورده في كتابه (الفتنة الكبرى) يرى الدكتور: أن إصهار عبد الرحمن بن عوف إلى أكثر القبائل كان خليقاً أن يساعده -لو أنه نهض بالأمر بعد عمر- على أن يجمع حوله عصبيات كثيرة، وأن يلائم بين هذه العصبيات ملاءمة حسنة.. يقول طه حسين أيضاً: (وكان خليقاً كذلك لو نهض بالأمر بعد عمر أن يقوم على الأموال العامة.. كما كان يقوم على أمواله الخاصة، فيدبرها ويثمرها ولا يعطى منها إلاّ بالحق.. وقد وضعه عمر في الشورى وميزه من سائر أصحابه حين قال: (إن كان ثلاثة وثلاثة فاختاروا صنف عبد الرحمن بن عوف) وكان بين أصحاب النبي من يرشحه للخلافة؛ ويرى في استخلافه اتقاءاً لكثير من الشر.

والحق أن عبد الرحمن بن عوف كان قميناً أن يتولى الخلافة.. لا لأنه يجمع حوله عصبيات كثيرة فحسب.. بل لمزاياه النادرة؛ ومواقفه المشهودة، وسداد رأيه وإجماع أغلبية المسلمين على حبه وإكباره. ولكنه -وقد عرف كل هذا- ما أسرع ما أخرج نفسه من المرشحين للخلافة، وقام بأمر الشورى، وانتخاب الخليفة الثالث على النحو الرائع المدوّن في كتب التاريخ..

لقد كان عبد الرحمن بن عوف بطلاً عظيماً من أبطال الإســلام في عهده الأول وكانت حياته مثالاً لحياة الرجل البر الكريم، حياة الرجل العامل بحق؛ والمجاهد بحق؛ حياة الرجل الزعيم ذي الكلمة المسموعة والرأي النافذ.. وقد توفي رضي الله عنه في المدينة سنة 31هـ وقيل سنة 32هـ بعد أن عاش 75 عاماً وصلّى عليه عثمان؛ وقيل الزبير بن العوام..

المصادر:

1-الإصابة في طبقات الصحابة -لابن حجر.

2-الاستيعاب في تمييز الأصحاب -لابن عبد البر.

3-الفتنة الكبرى -لطه حسين.

خداع العناوين [30]

بقلم ابن رشيق [31]

-1-

للمرحوم المنفلوطي الأديب المصـــري المشـــهور كلمة مأثورة عن (خداع العناوين) ذكر فيها بعضاً من مشاهير الكتّاب والشعراء الذين عرف كل منهم بنباهة الاسم وسيرورة الذكر، وليس لهم من الآثار في الكتابة أو الشعر إلاّ كل ما هو مثال للركاكة والسخافة أو على الأقل ليس لهم من ذلك ما يضاهي الشهرة الاسمية التي نالوها بين ثنايا الكتب التاريخية.

وقد أورد الأديب المشار إليه جملة أمثلة على قوله، وشاء أن يتكلم عن بعض الكتب المعروفة بأسمائها الجميلة الخداعة والمملوءة بكل شـــيء إلاّ من المعاني التي يتصـــورها القارئ حينما تذكر أسماؤها، ذكر لنا المنفلوطي –رحمه الله– من القسم الأول (ابن النبيه) و (الشاب الظريف) الذين اشتهرا بين الشعراء، ومن القسم الثاني كتابي (جواهر الأدب) و (بدائع الزهور).

-2-

طالعت في العدد الأســبق الصــادر بتاريخ 1351/7/22هـ، من جريدة (صــوت الحجاز) الغرّاء مقالاً عنوانه (ابن رشـــيق وكلمته في النقد –رأي اعتراضـــي) مذيلاً بإمضـــاء (ملاحظ). فطربت والحق أقول في بادئ الأمر، طربت جداً، وقلت ها أنذا ســأتلقى آراء إن لم تكن جديدة فهي على كل حال آراء لها قيمتها باعتبار أنها صادرة من كاتب ملاحظ!!

والملاحظة كما هو مفهوم من معناها قريبة من النقد، تمتُّ إليه بأوثق الصلات والروابط، إن لم يكن هو إياها.

---

(30) - المصدر :صوت الحجاز، 1351/8/14هـ.

(31) - المصدر :ابن رشيق لقب مستعار كان يكتب به الأستاذ محمد سعيد العامودي بعض مقالاته.

لقد عرفت بعد أن تصفحت المقال المذكور أني ما كنت إلاّ سارياً غرة قمر.. وأدركت أني لم أكن إلاّ واهماً لأني لم أجد آراء اعتراضية ولا شبهها.. بل رأيت وماذا رأيت، رأيت مجموعة كلمات مصفوف بعضها فوق بعض، الأمر الذي ذكرني بأيام المدرسة –رعى الله عهودها– حيث كنا نتسابق في كتابة مواضيع الإنشاء، وكان قصاري الواحد منا بحكم طبيعة التعلم أن يقتبس من هنا وهناك ألفاظاً وكلمات نحاول أن نوجد منها موضوعاً يروق في نظر الأستاذ، ونسمع منه في النهاية عبارات العطف والتشجيع والاستحسان!

لا أنكر القارئ أني عجبت أخيراً لا من المقال وما فيه.. بل عجبت أولاً من ذلك العنوان الضخم (ملاحظ) يا الله ما أعظم خداع العناوين! إنها الساحرة في جاذبيتها، وإنها لبليغة في تأثيرها كالكهرباء!

-3-

يشكو الناس كثيراً –وكثيراً جداً في أسلوب بعضهم– من داء الغرور، يشكون من هذا الداء العضال، وينحو فريق منهم باللائمة على من يبتليهم الله بهذا الداء، ويميل آخرون إلى تسخيفهم والتشهير بهم، أما أنا فلي –بعد الاستئذان من الأخ ملاحظ طبعاً– (رأي اعتراضي) على هؤلاء وأولئك، فقد لا يستحق المغرورون ذلك التسخيف، بل هم أيضاً ليسوا جديرين بأي لوم ولماذا؟ لأن الغرور ما دام أنه مرض من الأمراض فهو ليس إرادياً بل من الأشياء القهرية، هو أمر طبيعي لا ناقة لإرادة الإنسان فيه ولا جمل، فطرة الله التي فطر المغرورين عليها، ولعمري ليس على المريض من حرج.

-4-

هناك أيها القارئ مثالٌ من الغرور:

يقول أخونا ملاحظ في آخر مقاله الطويل "نحن نعرف منذ لابسنا حياة الأدب، وعرفنا كل ضروبه أن النقد ضروري وأنه إلى هذا يجب أن يكون بريئاً متنصلاً من الأغراض، بعيداً عن كل نزعات النفس الذاتية."

(وعرفنا كل ضروبه) هكذا يقول ملاحظ، لقد عرف أخونا كل ضروب الأدب.. أليست هذه مبالغة في الادعاء!؟ أليست هذه أنانية متناهية؟! وبعبارة أخرى أليس هذا غروراً بكل معنى كلمة الغرور؟!

أنا لا أبخس الناس حقوقهم، ولا أستنكر وجود أديب يعرف كل ضروب الأدب فمثل هذا كثيرون.. ولله الحمد، وفي مصر وفي الشام من أمثال العقاد وهيكل وأحمد ضيف والريحاني وكرد علي والأمير شكيب من هم حقيقة يجوز أن يكونوا عرفوا كل ضروب الأدب، أو على الأصح أدركوا الشيء الكثير منها.. ولكنا لم نسمع ولم نقرأ أن أحداً من هؤلاء الأعلام وأمثالهم قال عن نفسه (إنه يعرف كل ضروب الأدب) كلا كلا إنهم أجل من يصلوا إلى مثل هذا الإسفاف ولهم من ثقافتهم الناضجة وأخلاقهم العالية مندوحة عن مثل هذا الغرور والادعاء!

أنا وأنت يا صاحبي لم نصل بعد إلى هذه الدرجة العالية، ولم ندرك بعد كل ضروب الأدب (أستغفر الله) بل نحن لم نزل مبتدئين.. ومن يدري فقد نكون أنا وأنت (في السبيل) وقد نصل إلى تلك الدرجة السامية قريباً أو بعيداً وما ذلك على الله بعزيز.

-5-

إذا عرف القارئ الكريم أن أخانا (ملاحظ) عفى الله عنه إنما هو شاب لما يزل بعد في ميعة الصبا وإنه لم يبلغ العشرين ربيعاً بعد وإذا عرف فوق ذلك أنه خرج من إحدى مدارسنا قبل أن يصل في أقسامها الابتدائية إلى سنواتها النهائية... أقول إذا أدرك القارئ كل ذلك لا شك أنه

ســيزول من فكره كل عجب واســتغراب، وبدلاً من أن يســتســخف كلمته تلك، لا ريب أنه سيعطف عليه كثيراً، ويتمنى له من هذا الداء العياء! داء الغرور والادعاء، العافية والشفاء!

إني أتمنى له ذلك من صــميم قلبي، وأرجو له مســتقبلاً مجيداً حافلاً في عالم الأدب فهو كما يظهر من كتابته ذو ملكة واستعداد لا بأس بهما، والدراسـة المسـتمرة وتجاريب الزمن، كل ذلك كفيل بإصــلاح ما قد يكون في كل إنســان من نقائص وعيوب، والله هو الموفق وهو الهادي إلى سواء السبيل.

الحج مؤتمر إسلامي كبير[32]

قال الله تعالى في كتابه المجيد :وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، لِّيَشْهَدُواْ مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيۤ أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ ٱلأَنْعَامِ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ، ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ، ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ (الحج: 27–30).

وبهذا لأمر الكريم تلقى نبي الله وخليله سيدنا إبراهيم الأذان في الناس بالحج، منذ أن أتم هو وولده سيدنا إسماعيل –عليهما السلام– بناء البيت الحرام، امتثالاً لأمر الله، ليكون هذا البيت المطهر مثابة للناس وأمناً.. إليه يتوافد المؤمنون، وفي جواره يؤدون شعائر الله.. يطوفون به، ويحجون إلى عرفة، ويقومون بسائر المناسك، ويلتمسون من ربهم وخالقهم، المعبود وحده دون سواه، العفو والغفران.

إلى بيت الله يتوافدون، وفي رحابه يتعبدون، لا يشغلهم سوى الذكر والدعاء، والتهليل والتكبير، تتصاعد ألسنتهم بالتلبية، صادرة من أعماق قلوبهم: "لبيك اللَّهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك."

وكانت دعوة الخليل –قبل ذلك– لربه عندما أزمع على الرحيل من مكة تاركاً فيها ولده إسماعيل وأمه هاجر، كما جاء في الذكر الحكيم، رَبَّنَآ إِنِّيۤ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (إبراهيم: 37).

أجاب الله دعاء الخليل، وأضحت مكة منذ ذلك الحين، بلد الله الأمين، إليها تشدّ الرحال، وعلى أرضها المشرّفة، يتلاقى الوافدون...

(32) - المصدر :مجلة قافلة الزيت -العدد 12- المجلد -18- ذو الحجة 1360هـ.

ويمضي الزمن.. وتتوالى العصور، ويظل الحج لمئات ومئات من السنين يؤديه الوافدون على نهج إبراهيم...

ومع مضي الزمن، ومع تتابع العهود والعصور، تتغير أمور، وتجيء الوثنية.. إلى أرض الطهر.. فيتبدل الوضع حينئذ.. ويضيف الوثنيون على أعمال الحج زيادات غيرت من أصولها، وشوهت من صورتها.. زيادات ما أنزل الله بها من سلطان، من شرك، ومن عبادة لغير الله، إلى غير ذلك من ألوان التبديل والتحريف.

لقد دام ذلك فترة من الزمن في عهد الجاهلية العربية.. فعاد الحج شيئاً آخر.. شيئاً يختلف عما كان عليه في عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

وجاء الإسلام الحنيف، وأشرق نوره في الوجود. جاء ليحيي دين الحنيفية الحق، ويقضي على الشرك، ويقاوم كل أنواع الانحراف، وليعيد إلى الحج صورته الأولى.. ليعيد إليه التزاماته وأصوله وأسسه.

جاء ليجعل من الحج إلى بيت الله الحرام، الركن الخامس من أركانه الخمسة، جاء ليفرضه مرة في العمر على كل من استطاع إليه سبيلاً. قال تعالى :وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (آل عمران: 97).

أنزلت هذه الآية الكريمة في السنة التاسعة من الهجرة. وفي هذه السنة أمر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، أبا بكر أن يحج بالناس، ثم بعث في إثره علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ليتلو على الناس سورة براءة، ثم كانت حجته صلوات الله عليه وسلامه، في السنة العاشرة وهي حجة الوداع وأول حجة في الإسلام قادها الرسول صلى الله عليه وسلم.

وفي حجة الوداع، وفي ذلك اليوم المشهود، يوم الحج الكبر، خطب الرسول، عليه الصلاة والسلام، خطبة الوداع، بيّن فيها الأسس التي يقوم عليها الإسلام، وأعلن فيها حقوق الإنسان لأول مرة في تاريخ الإنسان!

كانت خطبة الوداع دستوراً شاملاً للمسلمين، دستوراً مستمداً من القرآن، كانت نبراساً يسيرون على ضوئه، ليحظوا بذلك بسعادتي الدنيا والآخرة، ويكونوا –كما أراد الله لهم –كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ.

أرشدهم فيها رسولهم الكريم إلى احترام الحقوق، ونهاهم عن الربا، وهو من أعظم الموبقات، وأوصاهم بالمرأة، وأوضح ما لها من حقوق، وما عليها من واجبات، وأكد على وجوب صيانة روابط الأخوة بين المؤمنين، على أساس من المساواة والعدل، ودون نظر إلى عنصر أو لون.

فأية عدالة هذه؟ بل أية مثالية هذه في حسن المعاملة، وصيانة الحقوق؟

إنها عدالة الإسلام، ومثالية الإسلام.

مثالية لا يمكن أن تسمو إليها في عدلها الإلهي، أية قوانين من صنع البشر، أو أية فلسفات!

مثالية تحقق بها الخلود للإسلام. فأصبح ديناً للإنسانية في كل زمان ومكان، ديناً للعبادة والحياة، للقوة والنماء، والتقدم في كل ميدان.

فرض الله الحج، عبادة من أشرف العبادات، ووسيلة للتعارف، ووسيلة لاتحاد المسلمين.

وفي كل هذا الذي يؤديه المسلمون في الحج، على صعيد واحد، وفي أيام معلومات، من عبادة لخالقهم، بعيدين عن أهلهم وديارهم، وفيما يظفرون به مضافاً إلى ذلك، من تعارف وتقارب، في كل ذلك من شهود المنافع –كما جاء في القرآن الكريم– ما يفوق الحصر، ولا تحده حدود!

أجل.. ففي أيام الحج يتعارف المسلمون، فتنمو روابطهم، وتقوى صلاتهم، ويتأكد المعنى الجليل لوحدتهم الإسلامية.

في يوم عرفة.. يوم الحج الأكبر، يكون هناك لقاء، ويا له من لقاء! لقاء تتمثل فيه الوحدة، كأروع وأجمل ما تكون!

إنه لقاء العبودية لله، والأخوة في الله، لقاء المساواة في كل مظهر، وفي كل خطوة وكل حركة وكل اتجاه.. فلا كبير ولا صغير، ولا غني ولا فقير، ولا سائد ولا مسود، بل الكل سواء، في خضوعهم لربهم، يلتمسون رضاه، ويرجون منه المغفرة.

وفي هذا اللقاء. أو في هذا الالتقاء، كما يقول الكاتب الإسلامي السيد أبو الحسن الندوي: "في هذا الالتقاء الديني الروحي الذي لا نظير له على وجه الأرض... وفي هذا الضجيج من الدعاء والذكر والتلبية والاستغفار، ما يعيد الحياة إلى القلوب الميتة، ويحرك الهمم الفاترة، وينبه النفوس الخامدة، ويشعل شرارة الحب والطموح التي انطفأت أو كادت تنطفئ، ويجلب رحمة الله."

إن هذا اللقاء.. أو هذا الالتقاء، خليق به أن يصفه واصفوه، أنه المؤتمر الأكبر لأمة الإسلام.

إنه، لا شك، أكبر مؤتمر، في تمثيله لسائر الجنسيات، ولجميع البلدان.

وتلك أعظم منافع يشهدها الحجيج، ويشارك فيها معهم كل المسلمين.

يشهدونها في مهد الإسلام، ومركز الدائرة في العالم الإسلامي.

ثم إنه من الواضح أن من سمات هذا المؤتمر أنه بعيد عن تقاليد الرسميات، وبعبارة أوضح عن تقاليد المؤتمرات، فلا جدول أعمال فيه، ولا تصدر عنه قرارات أو توصيات.. وإنما كل ما فيه هو التعارف والتعاطف.. والحفاظ على الوحدة...

يتواصى ضيوف الرحمن فيه، بأن يتعاونوا على الخير، وأن يحرص المسلمون دوماً في سائر أوطانهم على أن تظل فيما بينهم رابطتهم الكبرى هذه: بنيانها شامخ، ولواؤها مرفوع.. وأن يأخذوا بأسباب التقدم، ويذودوا عن إسلامهم وكيانهم، موحدي الكلمة والرأي لا يعتدون على أحد، كما لا يقبلون أن يعتدي عليهم أحد.. ينشدون السلام للجميع على أساس من الحرية للجميع، والعدالة للجميع.

على هامش حوادث فلسطين [33]

ما أظن حوادث فلسطين الأخيرة بعد أن تطورت هذا التطور السريع على أثر قرار التقسيم المعروف... ذلك القرار الذي كان أكبر وصمة في جبين أولئك الذين لم يتورعوا عن أن يعلنوه في العالم، ما أظن حوادث فلسطين بعد أن تطورت هذا التطور، وبعد أن جاء هذا التطور في أروع مظهر قومي... إلاّ وهو: "اتحاد كلمة العرب" ووقوفهم جميعاً صفاً.. لأول مرة في تاريخهم منذ بضع مئات من السنين.. ما أظن هذه الحوادث إلاّ فيصلاً بين عهدين يختلفان كل الاختلاف بالنسبة لهذه الأمة، فأما أولهما فهو عهد الخنوع والذل والاستسلام أمام القوة العاتية الجبارة، قوة الاستعمار، والرغبة في التحكم، والميل إلى الانفراد باستغلال خيرات الأرض.. كل هذا بدعوى أن العلم والحضارة قد احتكرتهما أوروبا وأمريكا، فهما وحدهما القوامتان على الشعوب، وهما وحدهما من يجب أن يختصا بأن يحكما هذا العالم، سواءً بالذات كما سجل هذا تاريخ العهد الحديث، أو بالواسطة كما يراد اليوم أن يتجمع متشردو اليهود من شتى آفاق الأرض، لكي ينشئوا دولتهم الفاشلة في قسم كبير من أراضي فلسطين..

وأما العهد الثاني، فهو هذا العهد الجديد: عهد الشعور والإحساس والوعي، وابتداء اكتمال النضج السياسي والقومي، والإدراك العام بأن الحياة بدون الحرية لا قيمة لها، وخير منها الموت في ساحة النضال، وبأن الأمة المهانة في أوليات حقوقها لا يمكن أن تعتبر أمة ذات كيان، أو حتى ذات كرامة أو حتى ذات وجود!

أما بعد، فماذا كان من مظاهر حوادث فلسطين الأخيرة؟ وماذا كان من نتائجها؟ وماذا ينتظر أن يكون من نتائج تتابع تطوراتها على هذا النحو.. سواء من الوجهة السياسية، أو من الوجهة العسكرية أو من الوجهة الاقتصادية؟

---

(33) - المصدر :مجلة الحج، ذو القعدة، 1367هـ.

لقد كان من مظاهر هذه الحوادث "اتحاد كلمة العرب" كما قلنا، وهو أكبر وأروع مظهر بدون جدال، وليس خافياً على أحد ما كان يتهامس به أعداء العرب من عدم إمكان تحقيق أي اتحاد من هذا القبيل..

ومن مظاهر هذه الحوادث أيضاً –وهو مظهر له مغزاه الخاص أن العرب أثبتوا واقعياً ما كان يظنه أقطاب الاستعمار، وأذنابهم من اليهود، مستحيلاً أو قريباً من المستحيل.. أثبت العرب أنهم أمة ما زالت محتفظة بخصائصها العسكرية وما يتبع هذه الخصائص من شجاعة وإقدام، وعناد في المواقف الحاسمة وثبات أمام الصعوبات، وقد كان القائلون بأن الشرق شرق، والغرب غرب، يعتقدون كل الاعتقاد بأن العرب قد فقدوا هذه الخصائص بعد أن غزت بلدانهم جحافل الاستعمار، وبعد أن تعودوا عادات الطاعة للحكم الأجنبي، وبعد أن حطمت من أعصابهم وأزالت من نفوسهم "طبائع الاستبداد."!

وكان من نتائج هذه الحوادث ما قدمته الجيوش العربية جميعها من برهان عملي على صدق جهادها وقوة روحها المعنوية، واتساع مدى فعاليتها.. وأخيراً كان من نتائج كل ما ذكر أن أولئك الذين "سودوا" قرارهم الجائر المعروف بدأوا للمرة الأولى يفتحون عيونهم على الحقائق الساطعة –لقد بدأ المتآمرون في هيئة الأمم المتحدة بعد أن كانوا– إلى بضعة شهور ينظرون بمنظار الهزء والسخرية إلى موقف العرب أصحاب البلاد الشرعيين، من اليهود النازحين إليها من أطراف الأرض، بدأ هؤلاء المتآمرون يفهمون –ولكن مع الأسف بعد أن فضحهم قرارهم الطائش وبعد أن دلل هذا القرار على مقدار رصيدهم من المزايا الإنسانية– بدأوا يفهمون أن موقف العرب من قضية بلادهم "فلسطين" موقف جد لا هزل فيه.. بل هم يرونها قضية حياة أو موت بالنسبة إليهم، إن قضية فلسطين، إنما هي قضية "حق صراح" أراد أصحابه أن ينالوه بوسائط السلم، وبأساليب الدبلوماسية، فلما تبيّن لهم أخيراً أنهم كانوا مخدوعين، بل مخطئين في استخدامهم لهذه الوسائط، وإنتاجهم لهذه الأساليب؛ وإن الحق في كل زمان ومكان يؤخذ ولا يعطى.. اجمعوا أمرهم على أن يأخذوا هذا الحق، بالطريق المعقول؛ وبالأسلوب العملي، وقد أثبتوا أنهم أكفاء

للقيام بهذا الجهاد المقدس أثبتوا ذلك في خلال بضعة أسابيع فقط.. ولولا الهلع الذي ساور نفوس من يعطفون على اليهود، إزاء ما أبداه العرب خلال هذه الأسابيع من ضروب البسالة والتفوق، أقول ولولا خوفهم على مصير الدولة الإسرائيلية الوليدة، وعلى مصير تل أبيب، وعلى مصير قضية الصهاينة من أساسها.. فيما إذا استمرت معارك الفريقين على الشكل الذي كانت تبدو فيه. لولا هلعهم وخوفهم وإسراعهم إلى توقيف الحرب باللجوء إلى الهدنة الموقوتة أولاً، ثم إلحاحهم إلى أن تستمر هذه الهدنة أيضاً، وما بدى من تسامح الحكومات العربية في قبول هذه الهدنة، حتى يعرف العالم مبلغ ميل العرب إلى السلم ونزوعهم إلى حلِّ قضاياهم بالتفاهم –ما أمكن إلى التفاهم سبيل!– لولا كل ما ذكر لكان الأمر قد انتهى.. ولكان ما يسمونه "قضية اليهود" قد أصبح في وديعة التاريخ!

ولكننا نعلم أنه على الرغم من استمرار هذه الهدنة؛ وعلى الرغم من طول الصبر، وطول الانتظار وعلى الرغم من التهديد والوعيد؛ وعلى الرغم من هذه الأساليب العنيفة الملتوية في محاولة تحقيق ما لا يمكن أن يتحقق، على الرغم من كل ذلك، فإن العرب قد صمموا على أن يواصلوا قتالهم فإما حياة حرة شريفة لأهل فلسطين واستقلال تام لا شائبة فيه لبلادهم بسائر حدودها الطبيعية المعروفة قديماً وحديثاً، وإما حرب إلى النهاية، ودفاع إلى النهاية؛ إلى أن يحق الله الحق ويزهق الباطل.

*** * ***

هذا ما جاءت به، وأوحته حوادث فلسطين من ناحيتها السياسية والعسكرية، وأما من الناحية الاقتصادية –وهي ناحية أصبحت لها أهميتها في الوقت الراهن فلم يعد محلاً للشك، إن الشعوب العربية قد بدأت من وقت ليس بقليل، ترسم خطتها لإقامة بنيانها الاقتصادي على أساس اكتفائها الذاتي.. فهي تعمل الآن على أن تستغني بنفسها بطريق استغلال كافة أراضيها زراعياً إلى أبعد مدى... وليس هذا فحسب، بل إن الخطة الاقتصادية للشعوب العربية أصبحت ترمي أيضاً إلى تعميم الإحياء الصناعي في شتى عواصمها وبلدانها؛ فالمواد الخام لا تنقص هذه

الشعوب والوقود وهو الجهاز العصبي للصناعة أصبح معروفاً من أين يأتي.. إن البلاد العربية والشرق الأوسط جميعه هما مصدر البترول.. وإذن فما أحرى البلاد العربية! وما أحرى الشرق الأوسط أن يستغلا هذا البترول كما ينبغي أن يستغل، وأن يستفيد منه في إحياء ما يحتاج إليه أقوامه من مختلف الصناعات؛ ولا نشك في أن انتشار التعليم الفني في هذه الشعوب؛ واتساع مدى هذا التعليم، وإطراد التقدم المشهود في سائر أنواع التعليم الأخرى، سيكون أكبر معوان على نجاح الخطة الاقتصادية العتيدة للشعوب العربية وعلى تحقيق ما ترمي إليه من أهداف!

لقد كانت قضية فلسطين؛ وما زالت إلى اليوم "مشكلة المشاكل" لا أقول في العالم العربي وحده، بل في العالم أجمع.. ولكنها وقد اشتدت الآن... ولكنها وقد وصلت في حرارتها إلى درجة الغليان... فلن يكون هذا إن شـــاء الله بعد أن أثبت العرب أنهم "العرب الأحياء" إلاّ فاتحة الخير!.

لحظات مع الشاعر محمود غنيم في ديوانه الأول:

صرخةفي واد ... [34]

الشـــاعر الذي أريد أن أتحدث عنه في هذا المقال؛ وأســـتعرض شـــيئاً من شـــعره في القومية والسياسـة والاجتماع، هو شـاعر مرموق؛ من شعـراء مصـر، حاملة لواء النهضـة الفكرية في عالم العروبة والإسلام.

محمود غنيم.. شاعر معاصر من شعراء مصر؛ ومصر خليقة بكل إعجاب وإكبار، بمن أنجبت ولا تزال تنجب منذ أوائل عصـر النهضـة الحديثة في العالم العربي؛ من قادة للفكر، وأسـاطين في العلم والفن، ونوابغ في الشعر والبيان.

وحقيقة، قد يمكن أن يقال إن محمود غنيم، ليس أشـعر شـعراء مصـر اليوم، وحقيقة، قد لا يعده بعضـــهم في الرعيل الأول.. وقد يقول فيه بعض نقاد المدرســـة الشـــعرية الحديثة، أشـــياء وأشـــياء.. ولكن الذي يبدو أنه لا خلاف فيه؛ هو أنه شـــاعر مصـــر الاجتماعي الأول، في هذا الأوان، أو هو –بحقّ– خليفة شـــــاعر النيل "حافظ إبراهيم" كما قال عنه ذلك كاتب عربي مهجري، معروف في الأوساط الأدبية، هو الأستاذ توفيق ضعون.

ولست أبعد، إذا قلت، إن شهرة محمود غنيم كشاعر؛ وعلى الخصوص فيما هو خارج حدود مصـر من الأقطار العربية؛ هذه الشـهرة قد بذت غيرها.. ولعلّ مرد ذلك هو إلى انفراد الشـاعر بمزيتين، أولاهما: ميله الواضـح إلى الوضـوح، مع قوة في الأداء؛ وارتفاع في الأسـلوب، وحسـن انتقاء للألفاظ.. إلى جانب صـدق العاطفة والإحســاس وعدم إهمال الفكرة، أو الإغضـاء عن وحدة الموضوع..

وطبيعي أن يتواءم مع هذا الميل إلى الوضـــوح، ابتعادها عن الرمزية... وما الرمزية إلاّ بدعة شـعرية، نشـأت أول ما نشـأت في الغرب، ووفدت إلى هذا الشـرق العربي، أول ما وفدت؛ في

---

(34) - المصدر :مجلة الحج، ربيع الأول والثاني، سنة 1368هـ.

مطلع القرن العشـــرين، ولكنه أُتيح لها أن تبقى في ربوعه إلى اليوم، وإن كانت هي في وطنها الأوروبي الفرنسي –كما يظهر– لم يبق لها الآن، ما كان لها بالأمس من قيمة أو احتفال.

أما ثانية هاتين المزيتين للشـــاعر محمود غنيم، فهي شـــعره الاجتماعي والقومي، إذ الواقع أن هذا الشـــاعر يكاد ينفرد بين شـــعراء الجيل الجديد في مصـــر، بأنه أكثرهم اتجاهاً إلى مواضـــيع الاجتماع، وإلى المواضيع القومية؛ فإذا كان ما يحدثه شعر الشاعر من أثر قوي في النفس، دليلاً على صـــدق الشـــاعر في تعبيره الشـــعري، كان لنا أن نقول عن شـــعر محمود غنيم الاجتماعي والقومي؛ إنه شـعر صـادر عن إحسـاس عميق، وعاطفة جياشـة؛ وإيمان بما يقول.. فلا تعمل ولا افتعال.

وديوان محمود غنيم "صـرخة في واد" وهو الديوان الذي نال جائزة الشـعر الأولى في مسـابقة مجمع فؤاد الأول للغة العربية لعام **1947**، كما أنه الديوان الأول للشاعر –حافل بمجموعة من أجود الشعر.. وهذه المجموعة لا أظنها كل ما نظمه الشـاعر، وإنما يبدو أنها مختار شـعره من أول عهده بالشعر؛ حتى عام **1947**م.

ولعلّ طابع المحافظة.. –وهو ما يحاول شـعراء المدرسـة الحديثة في مصـر أن يلصـقوه بالشـاعر محمود غنيم– يبدو جلياً في طريقة الشاعر في القسيمة لديوانه، إلى أبواب تسعة.. في "الحرب" و "الاجتماع" و "الوصـف" و "المرأة" و "عبرات" و "تحيات" و "زفرات" و "دعابات" و "أشتات" وهذه الطريقة هي الموسومة بها مدرسة حافظ وشوقي في مصر، والرصافي والشبيبي في العراق.

وليس الغرض هنا، أن نتحدث حديثاً شـاملاً عن هذا الديوان؛ فقد يكون لهذا الحديث مجاله الآخر.. وإنما نريد أن نلقي نظرة على شـــيء من شـــعره الاجتماعي وبخاصـــة ما كان منه في الصـميم.. من المواضـيع الشـرقية والإسـلامية والعربية وما يمس النضـال بين الشـرق والغرب؛ والحرية والاستعمار وما يتصـل بالحرب والسـلام؛ واصـفاً فيه أهوال الحرب؛ وآلام الإنسـانية من فعلها الوحشي الرهيب وآمال الإنسانية في السلام، أو في سـراب السـلام... انظر إلى الشاعر،

كيف يخاطب "السـلام" في قصـيدته "فجر السـلام" وهي التي أنشـأها عندما وضـعت الحرب العالمية الأخيرة أوزارها، فيقول:

أدرك بفجرك عالماً، مكروباً **عودت فجرك أن يكون كذوبا!**
يا أيها السلم المطل على الورى **طوبى لعهدك، أن يحقق، طوبى!**
ما بال وجهك بعد طول حجابه **يحكي وجوه العاشقين شحوبا**
رحماك طال الليل واتصل السرى **حتى تساقطت النفوس لغوبا**
نفحت لظى الحرب الوجوه فطف بها **كالزهر نفحاً، والنسيم هبوبا**
لم يبق في مجرى الدماء بقية **شكت العروق، من الدماء نضوبا**
طحنت فريقيها الحروب بضرسها **لا غالباً رحمت. ولا مغلوبا**

على هذا النسق يمضي الشاعر في تصويره الدقيق لما جرته تلك الحرب من أهوال على العالم بأسره، أفراداً وجماعات إلى أن يصل إلى... إلى يوم النصر! فيتساءل في مرارة عميقة، وألم دفين، عن أعراس هذا اليوم أين نقيمها؟

أعراس يوم النصر أين نقيمها؟
المدن صرن خرائبا، ولهيبا
هيهات أن تنسى البلاد حدادها
أو تسترد جمالها المسلوبا!
تعدو الحضارة.. وهي داء فاتك
وتسير في خطو الكسيح طبيبا

إلى أن يقول:

أمم بنت ركن الحضارة عالياً
ما بالها؛ لم تأله تخريبا!
الأوصياء القيمون على الورى
تركوا الورى بدمائهم مخضوبا
فرض القوي على الضعيف رقابة
من ذا يكون على الرقيب رقيبا؟
من للرعيل ومن لقادته لقد
ضل الجميع مسالكاً ودروبا!

خلوا مقاليد الشعوب لأمة **عزلاء؛ تقنع بالكفاف نصيبا**
القوت عنوان الحياة فماله **أمسى يبيد ممالكاً وشعوبا؟**

وهكذا يعجب الشاعر من أمم بنت ركن الحضارة عالياً؛ ولكنها ما تنفك تعمل على تخريبه... ومن أوصـياء جعلوا من أنفسـهم تطوعاً واحتسـاباً؛ قيمين على الشـعوب؛ ناسـين أنهم تركوا الشعوب مخضوبة بالدماء. ومن قوي فرض رقابته على ضعيف.. ثم يسأل في سخرية ممضة – وأكبر الظن أنه نسـي في هذه اللحظة الشـعرية هيئة الأمم المتحدة، إنه يسـأل؛ ويسـأل: من ذا يكون رقيباً على الرقيب؟؟!

*** * ***

وأنت لا ترى الشاعر إلاّ ضارباً على هذا الوتر؛ وكلما عرض في شعره لقضية الحرب والنصر والسلام، ففي قصيدته "لاح الهلال" يقول:

الغرب أولع بالدماء؛ فما ترى **إلاّ قراعاً فيه إثر قراع**
يبتاع بالعمران نصراً زائفاً **حضرت لعمرك صفقة المبتاع**
لا حربه؛ أبقت؛ ولا بسلامه **خفيت لنا كبد من الأوجاع**

ويح السلام جنى القوي ثماره وكوى الضعيف بجمره اللذاع
ما بال من أبدى الشجاعة في الوغى خاض السلام.. فكان غير شجاع

إلى أن يقول:

خطوا الوثائق؛ في المحيط؛ فحينما أمنوا العدو.. رموا بها في القاع
مضت الحروب بقدسها؛ فإذا بها في السلم بضعة أسطر ورقاع
كتب الشقاء لأمة مهضومة تجري وراء سرابها الخداع

* * *

وفي قصيدته بعنوان "جنازة السلام" ينعى هذا السلام وينعى معه أوروبا؛ ويتحرق أسفاً على:

طفل بريء ذاق من سأمه كأس الحمام

وليست أم هذا الطفل البريء؛ إلاّ أوروبا التي يقول عنها:

وضعته أوروبا لنا يا ليت أوروبا عقام!

ثم يستمر في وصف هذا الطفل البريء؛ ويقول:

لهفي عليه ممزق الأوصـ	**ـال منتثر العظام!**
عصفت به ريح الوغى	**عصفاً وغطاه القتام**

إلى أن يقول:

ليس السلام بسائد	**ما دام في الدنيا حطام!**
وما الناس إلاّ الناس في	**عصر الضياء أو الظلام**
سيان من سكن القصور الشـ	**ـم أو سكن الخيام**
بسوى الدم المسفوح لا	**يروى لظامئهم أوآم**
وأحب ما وقعت عليه	**عيونهم جثث وهام**
وهو ابن آدم ينتشي	**من خمرة الدم والمدام**

الذئب كالإنسان لو **يتعلم الذئب النظام!!**

أما قصيدة الشاعر "ثورة على الحضارة" فلعلّها من أروع ما قيل في موضوعها فكرة وأسلوباً؛ فاسمع:

ذرعتم الجو أشباراً وأميالاً **وجبتم البحر أعماقاً وأطوالا**
فهل نقصتم هموم العيش خردلة؟ **أو زدتمو في نعيم العيش مثقالا؟**

إلى أن يقول:

إني أرى الناس ما زادوا رفاهية **في العيش؟ زادوه تعقيداً وأشكالاً**
تجاوز العرف والعادات حدهما **فأصبحا في رقاب الناس أغلالا**
يا طالما حدثتني النفس قائلة **أنحن أنعمُ أم أجدادنا نالا**

ولك أن نتأمل بعد.. في هذا التصوير الصادق لمعائب الحضارة.. هذا التصوير الذي يتسم بسمة الشاعر الأصيلة في الميل إلى الوضوح.. ولكنه الوضوح الذي يتسامق على أصحاب الرمزية، وأنصار الغموض على اعتبار أن الرمزية والغموض لديهم، هما معيار التجديد، ومقياس الفن، وميسم الجدة.. وعلامة المستقبلية.. فأي تصوير بليغ مانع، يجعلك تتمثل أمامك ما تحسه

في نفسك وتطالعه صباحاً ومساء، من مثالب حضارة القرن العشرين المادية، كالذي تراه في هذه الأبيات:

تحضر الناس حتى، ما لمكرمة
قدس لديهم، ولكن قدسوا المالا
في كل مملكة حرب منظمة
تضم جيشين: ملاكاً، وعمالا
يد السياسة.. بالأخلاق قد عبثت
وقوض العلم صرح الدين، فانهالا
البدو أكرم أخلاقاً.. وأحسبهم
لله أكبر تقديساً وإجلالا
قالوا: تألق نور العلم، قلت لهم:
بل ناره أصبحت تزداد إشعالا

ثم يقول:

ابن الحضارة، جسم دون عاطفة
يكاد يحسبه رائيه تمثالا
رسالة الغرب، لا كانت رسالته
كم سامنا باسمها خسفاً وإذلالا

تغزو الحضارة أقواماً، لتسعدهم

والزنج أسعد من أربابها حالا

وقبل أن أختم هذا المقال، لا بد لي من أن أشير إلى قصيدة "مجد الإسلام أو وقفة على طلل" والتي يقول في أولها:

مالي وللنجم يرعاني وأرعاه؟

أمسى كلانا يعاف الغمض جفناه

لي فيك يا ليل آهات أرددها

أواه! لو أجدت المحزون، أواه!

لا تحسبني محباً يشتكي وصبا

أهون بما في سبيل الحب ألقاه..

إني تذكرت –والذكرى مورقة

مجداً تليداً بأيدينا أضعناه!!

أَنَّى اتجهت إلى الإسلام في بلد

تجده كالطير، مقصوصاً جناحاه!

ويح العروبة كان الكون مسرحها

فأصبحت تتوارى في زواياه

كم صرَّفَتْنا يد كنا نصرفها

وبات يملكنا شعب ملكناه

كم بالعراق، وكم بالهند ذو شجن **شكا، فرددت الأهرام شكواه**
بني العمومة إن القرح مسكمو **ومسنا.. نحن في الآلام أشباه**

ولعلّ بيت القصيد الأول، في هذه القصيدة –وكل بيت من أبياتها بيت قصيد– هو قوله:

ما بال شمل شعوب الضاد منصدعاً **رباه.. أدرك شعوب الضاد؛ رباه!**

أجل.. وكلنا –بقلوب متفطرة– يبتهل إلى الله في العلانية؛ وفي السر، وبهذا الدعاء الصادق الحار، وكلنا يشاطر الشاعر هذا الشعور والإحساس، وكلنا ينشد "عز العروبة" و "مجد الإسلام" في غير قنوط أو بأس؛ لأنه لا قنوط من رحمة الله.. ولأنه لا معنى للحياة مع اليأس، ولا معنى لليأس مع الحياة..

وكلنا يرجو –بعد ذلك– أن نحقق "الأعمال" أقوالاً وآمالاً وما ذلك على الله بعزيز!

مطالعات في الأدب:

الأدب والحياة

الأدب والحياة... شيئان إذا نظرنا إليهما من حيث الشكل والمظهر، ولكنهما شيء واحد من حيث الجوهر. أجل إن بين الأدب والحياة عروة لا انفصام لها؛ لا يمكن أن نتصور حياة بدون أدب لأنه لا يمكن أن يتجرد إنسان من غريزة التعبير... وكذلك لا يمكن أن يكون أدب بدون حياة، لأن الأدب صور وتعابير كما قلنا، وهذه تلك لا مادة لها من غير الحياة، فالحياة هي المصدر والينبوع، والأدب هو النتاج والثمرة. الحياة هي المادة والروح، والأدب هو الصورة والمرآة، الحياة هي الحياة وكفى، والأدب ترجمانها في الوجود، وكل أدب لم يكن كذلك فهو أدب مشوّه ممسوخ، بل هو حري أن لا يسمى أدباً، لأنه لا يمت بأي نسب أو قرابة إلى معدن الأدب الصحيح!

فكما يضطر الإنسان إلى أن يعبر عن أفكاره بلغة الحديث المعتادة كذلك الشاعر والكاتب يعبر كل منهما للناس عن أفكاره وتصوراته وهواجس نفسه، وعن أمانيه وأحلامه وأفراحه وأتراحه إلى آخر ما هنالك... وهذا التعبير الصادر منهما في حالة من تلك الحالات النفسية هو ما ندعوه بالأدب لأنه يعطينا صورة من حياة كل منهما: صورة صحيحة لا صورة زائفة، صورة طبيعية لا صورة صناعية، صورة حقيقية لحمتها الصدق وسداها الإخلاص، لا صورة مشوهة مصدرها التكلف والتصنع والمغالطة والرياء كهذا الشيء الكثير مما نقرأه ونتلوه في بطون الكتب وفي صفحات بعض الجرائد والمجلات.

وصفوة القول إن الأدب الحي الخالد هو الذي ينتقي مادته من الحياة، أما هذا الكثير الغث من المنشآت والمنظومات وأما هذا الجحفل الجرار من النظامين والمنشئين الذين ينشئون وينظمون، ولكن لا لأجل إعطائنا ما يدور في أذهانهم من أفكار وآراء ولا لأجل التعبير للناس عن حقائق اكتشفوها أو عن أشياء لاحظوها، وإنما ينشئون وينظمون تقليدياً ومحاكاة ورياء وخداعاً. أما هؤلاء الذين أجدر أن نسميهم (الدخلاء) في دولة الأدب، فإن ما يلاقونه من إعراض ونفور وعدم رواج لكل ما يكتبون. إن هذا هو دليلنا على ما بيناه من متين الارتباط

وعظيم الاتصـــال بين الأدب والحياة، ولا ريب أن الناس هم هم في كل زمان ومكان لا يتذوقون من ألوان الأدب إلاّ ما كان جميلاً ســـامياً ولا يتقبلون منها إلاّ ما كان أدباً حقيقياً حياً متســـماً بسمات الصدق والإخلاص في الفكر والعاطفة والإحساس.

المنهل في عامه الأربعين

في عام 1379هـــــ –احتفل المنهل الأغر بيوبيله الفضـي بمناسـبة دخوله في عامه الخامس والعشرين..

والآن يسـتقبل عامه الأربعين، وهو أكثر رواء.. وأجمل إخراجاً، وأوفر مادة، وأوسـع شـهرة وذيوعاً في العالم العربي.

ولم يكن ذلك إلاّ بتوفيق من الله، ثم بجهود متصـلة ما يزال يبذلها في سـبيله باسـتمرار، صـاحبه المفضـال، الأسـتاذ عبد القدوس الأنصـاري، ومن الحق أن نقول إنها جهود كان لها ثمارها، وكان لها أثرها، شـأن كل جهد يؤديه صـاحبه بإخلاص، ويثابر عليه، غير ملق بالاً إلى ما يصـادفه في طريقه من صعاب، ويلاقيه من عقبات!

وما أكثر الصعاب والعقبات في الميدان الصحافي.

وما أكثر ما يواجه رجل الصـحافة من مشـاق ومتاعب.. يعرفها كل من مارس هذه المهنة، أو اتصل بها من قريب أو بعيد.

ومن أجل ذلك أصبحت توصف بمهنة المتاعب: أو مهنة البحث عن المتاعب..

ولا شك أن هذه المتاعب تغدو أكثر وأكثر في المجال الصحفي الأدبي، بما لا تقارن به متاعب الصحافة الإخبارية.

فالصـــحافة الإخبارية –كما لا يحتاج هذا إلى بيان– لها قراؤها الكثيرون، ولها من موارد الإعلانات وغيرها ما يساعدها أكبر مساعدة على مواصلة السير، ومع ذلك، فإن هذه الصحافة الإخبارية نفسها نراها أحياناً تشكو من قلة الموارد، وكثرة النفقات...

أما في عالم الصحافة الأدبية، فالأمر يختلف كل الاختلاف.. في عالم الصحافة الأدبية، نلاحظ أن القرّاء قليلون... قليلون جداً، وليس هذا في بلادنا فقط، بل هو أمر مشاهد ومحسوس في كل البلاد العربية مع الأسف الشديد!

الصحافة الأدبية لا يقبل عليها سوى المثقفين، ويا ليت كل المثقفين، إذن لهان الأمر، وخفت المشقة، وهذه هي أزمة الأدب، أو بعبارة أفصح مأساة الأدب في كل مكان!

وما أكثر المجلات التي ظهرت ثم احتجبت.. وكانت قلة الموارد فقط هي السبب في الاحتجاب!

فإذا ما رأينا مجلة المنهل الآن.. وقد بلغت عامها الأربعين، وهي أجمل مظهراً وأدسم مادة، فلا يسعنا إلاّ أن نغتبط لذلك كل الاغتباط، مقدرين جهود صاحبها ومؤسسها الأستاذ الكبير عبد القدوس الأنصاري.

*** * ***

والواقع أن كل مجلة أدبية ثقافية من نوع المنهل تعتبر "دائرة معارف" لا يستغني عن الرجوع إليها، باحث، أو مؤلف، أو أديب.. بل هي أكثر من دائرة معارف إذا أردنا الإنصاف، ولست أقول هذا بدون مستند بل أقوله بعد أن قرأت لباحث أديب معروف كلمة ذكرها عن المجلات الأدبية، وردت في محاضرة من محاضراته عن الصحافة الأدبية قال الدكتور شكري فيصل الأستاذ بالجامعة السورية . [35]

.."آية هذا كله أن للمجلات قيمتها وأثرها.. هذا الذي حاولنا أن نجليه، وأن هذه القيمة، وهذا الأثر، ينزلان المجلة من تاريخ الفكر منزلة سامية.. فهذه المؤسسة الفكرية، لا تقلّ عن أية مؤسسة أخرى من المؤسسات الثقافية... وحين نذكر الجامعات والمخابر، ودور البحث والأفراد

([35]) -" دكتور شكري فيصل: الصحافة الأدبية -وجهة جديدة في دراسة الأدب المعاصر وتاريخه" ص27.

والشخصيات المتميزة، فيجب أن نذكر كذلك معها وفي صفها "المجلات"، بل إن المجلات لتسبق بعض هذه المؤسسات لأنها تملك من الحرية والقدرة على الإثارة ما لا يملكه غيرها، وتستطيع أن تعطي من النتائج ما لا يحققه سواها.. الخ."

*** * ***

هذا وللمنهل تاريخه الأدبي الحافل وقد تناولت مواده المنوعة شتى الميادين الثقافية والاجتماعية ففيه مئات، ومئات، من بحوث الأدب والتاريخ، واللغة وغيرها وفيه مئات من تراجم الرجال المشهورين قدماء ومعاصرون بالإضافة إلى ما حفل به من شعر وقصص، عدى مقالات صاحبه في افتتاحياته، وأكثرها في التعليق على الأحداث..

ولقد كان من اهتمامات المنهل، عنايته الشديدة عند كل مناسبة عن مناسبات بلادنا الهامة بإصدار الأعداد الخاصة.. ولهذه الأعداد قيمتها التاريخية، لأنها تتناول موضوعاً رئيسياً معيناً من شتى جوانبه، وكافة نواحيه..

وأذكر من هذه الأعداد الخاصة:

عدد الإذاعة السعودية وعدد ذكرى جلالة الملك عبد العزيز آل سعود رحمه الله، وعدد الشعر، وعدد القصة وعدد أدباء المملكة، وأعداد رحلات رئيس التحرير إلى الرياض والباحة والمنطقة الشرقية، والبحرين والكويت والجار والعدد الضخم الخاص برحلات جلالة الملك فيصل المعظم إلى أنحاء العالم، وأخيراً عدد الجامعات السعودية الذي صدر في ذي الحجة 1393هـ.

فهذه الأعداد أصبحت (مراجع) بحق للباحثين والمؤلفين، ومن هنا تبدو لنا أهميتها في تاريخنا الأدبي..

ومن سمات المنهل وميزاته –كما قلت هذا في (المنهل الفضي): اعتداله في كل الأمور، وتحريه للجيد من الموضوعات ولكل أديب ناضج موهوب.

ولعلّ أبرز هذه الميزات ما كان يحرص عليه صـــاحبه –ولا يزال– من البعد عن المهاترات، والخصومات والإثارة، وكل ما يوجد حزازة في النفوس.

وبهذه الصفات والسمات كسب المنهل أصدقاء كثيرين في مختلف البلدان العربية أصبحوا يسهمون بالكتابة فيه بصورة ثابتة وهذا كسب –في الحقيقة– ليس بالقليل.

وبعد، فهذه كلمة عجلى.. أكتبها تحية للمنهل الأغر بمناسبة مرور أربعين عاماً على صدوره راجياً له المزيد من التقدم، والمزيد من الازدهار.

ولصاحبه صديقنا العزيز أبي نبيه، المزيد من العون والتوفيق.

عصر القوة والعلم

نحن اليوم في عصـــر العلم والقوة والتمدن والمدنية. فكل مظهر من مظاهر حياة الأمم، أو حياة الأفراد ليس عليه شـعار المدنية وشـعار التقدم فهو مظهر غريب شـاذ، يتنافى مع الروح العصـرية السـائدة، وكل مظهر من تلك المظاهر، لا يكون مبنياً على أسـاس وطيد من العلم، وعلى دعامة ثابتة من القوة فلن يكون ذلك المظهر جديراً بأي اهتمام! ولن يكون له أي قيمة أو أي نصـيب في ميدان سـباق الأمم وسـباق الأفراد، لأنه ليس إلا مظهراً من مظاهر الضـعف والجهل، وليس معنى الضعف والجهل في قاموس الحياة إلا الخمول، إلا قحط الإحساس، وفقدان الشـعور! وأي قيمة شـخصية في الوجود يا ترى لإنسـان يوصـف بعدم الإحسـاس؟ وأي كيان – ليت شعري– لأمة من الأمم ينعتها الناعتون بفقدان الشعور؟!

إنما نحن اليوم في عصر مدهش عجيب حافل بكل العناصر الصالحة للحياة... إنما نحن اليوم في عصر السعي والعمل، عصر البحث والاكتشـاف، عصر التطلع والطموح، بل نحن في عصر المجد العلمي، والعظمة العلمية، فالأمة المتعطشـــة التي تأبى أن تروي ظمأها إلا من خمرة المجد، ومن رحيق العظمة، شعوراً منها بأن لها وجوداً في الحياة وإحساسـاً منها بأن لها (كرامة) يجب أن تحترم! هذه الأمة الشـاعرة بوجودها، الحاسـة بكرامتها، لا تنفك تسـعى وتكدح، متمشـية مع طبيعة الحياة، سـائرة في الطريق الوحيد؛ في الطريق الموصـل إلى تلك الغاية، في طريق العلم والمعرفة؛ هذه الأمة لا تنفك مسـتمرة في سـيرها تجتاز المرحلة بعد المرحلة، فإذا هي بين عشـية وضـحاها بين الأمم، الأمة العلمية! ثم هي بعدُ الأمة القوية! ثم هي بعدُ أمة المجد وأمة التقدم، وأمة المدنية، الملحوظة بعين الهيبة والرهبة والإجلال، والتي تخطب ودها الأمم، وتسعى لمسـالمتها الشعوب!

وأما الأمة العليلة الواهنة، أما الأمة العائشـة في الظلام: ظلام الجهل الحالك، ثم هي بعد لا تريد تغييراً ولا تبديلاً، لقحط الشـعور والإحسـاس لديها، وفقدان الطموح والتطلع من أفرادها، هذه الأمة لن يكون لها إلا الانحلال والتفكك نصـيب، والتفكك والانحلال لا يتلوهما شـيء إلا ذلك الذي يسمونه الفناء!

وهكذا أيضاً!

هكذا أيضاً الأفراد في الحياة العصرية، المتعلمون منهم، أو عشاق العلم ومتطلبوه والساعون في سبيله.. هؤلاء هم الناجحون، وهؤلاء هم الذين ينتفعون وينفعون، وهؤلاء هم الذين يخدمون أوطانهم، ويقومون في المجتمع بأنبل الأعمال، ويؤدون نحو العالم أشرف الخدمات!

أما غير هؤلاء.... أما الأفراد الجاهلون، أو النافرون من العلم والراغبون عنه، فهؤلاء هم العضو الأشل في جثمان المجتمع الإنساني هؤلاء هم الذين لا تستفيد شعوبهم من وجودهم، بل هم أيضاً لا يستفيدون من هذا الوجود، اللهم إلا أنهم يأكلون ويشربون ويلبسون وينامون، كما يأكل ويشرب ويلبس وينام سائر الناس وليست غاية الحياة هكذا، وما لهذا خلق الناس، بل خلقوا لما هو أجل وأعظم، خلقوا ليمثلوا في الوجود حياة الروح والعقل، وليست الحياة المادية إلا وسيلة وأداة لتلك الحياة.

وبعد فهما نوعان للحياة لا ثالث لهما: مدنية وتقدم ومجد عن طريق القوة والعلم، أو خمول وذل وفناء عن طريق الضعف والجهل، نوعان من أنواع الحياة أوحتهما فلسفة الحياة في العصر الحديث، وأيدهما دستور التنازع على البقاء.

فيأيها القارىء العربي الطموح! قل لي بربك أي نوع من هذين النوعين الوحيدين ترغب وتريد؟

الأدب في الحجاز [36]

الأدب في الحجاز –وليس هو شاذاً بل شأنه شأن سائر آداب الأمم الأخرى– الأدب في الحجاز تبدو منه أمام الناقدين المتفحصين مواطن للضعف ليس أمرها بالهين، وليس شأنها باليسير الأدب في الحجاز ضعيف في بعض نواحيه؛ وأكاد أقول في أهم نواحيه، الأدب في الحجاز، ولو أنه قد أخذ منذ الآن في أسباب النهوض؛ ولو أنه قد شرع في الظهور بما يليق به من مظهر ممتاز... إلاّ أنه ينقصه بعض الأسباب التي لا بد منها في نهوضه هذا، ولا مندوحة له عنها لتكون متممة لهذا النهوض.

الأدب في الحجاز لا يعتمد في نهوضه على ما يجب أن يعتمد عليه من أساس، فالأدب العربي القديم، لا أهمية له تقريباً في محيطنا الأدبي، والإقبال على هذا الأدب والعكوف على تذوقه ودراسته، من الأمور التي يحتاج من يبحث عن (مكانها) إلى مصباح ديوجنيس!! وأنا إذ أزعم ذلك فلا أزعم بالطبع أنه شامل للجميع من حضرات الأدباء، وإنما للأكثرين منهم، أجل هؤلاء (الأكثرون) لا يكادون يقرأون ذلك الأدب القديم الممتع، هؤلاء الأكثرون لا يكادون يعرفون الشيء المهم عن أولئك الأعلام الخالدين ممن يعتز بهم الأدب العربي، أولئك الفحول البارزين من كتّاب وشعراء ومفكرين، أمثال (الجاحظ) و (ابن المقفع) و (عبد الحميد)، و (المتنبي) و (المعري) و (أبي تمام) و (الغزالي) و (ابن رشد) و (ابن خلدون).

أما ناحية الثقافة العامة –وثقافة اللغات الأجنبية منها بوجه خاص– فهنا أستميح أصدقائي وغير أصدقائي من الأدباء عفواً إذا ما قلت لهم إن هذه الناحية تكاد تكون مفقودة بالكلية، وقد يكون العذر واضحاً وملموساً في هذا المجال، وقد تكون المسؤولية هنا لا على عاتق الأدب، ولا على عواتق الأدباء، وإنما هي واقعة على جهة أخرى ولا جدال، المسؤولية هنا واقعة على هذا التعليم الناقص المبتور، على هذا التعليم الذي لما ينهض بعد، على هذا التعليم الذي لم

---

[36] - المصدر :صوت الحجاز -مكة المكرمة يوم الثلاثاء، 25 ذو القعدة سنة 1354 الموافق 18 فبراير سنة 1935.

تساعد الظروف حتى الآن مع الأسف الشديد على أن يلقي دلوه في الدلاء، ويساهم في الأخذ في أسباب القوة والتطور والنضوج!

*** * ***

وبشيء آخر، نعم شيء آخر غير هذا الذي ذكرته آنفاً، شيء آخر يحتاج إليه الأدب في نهوضه العتيد، وهذا الشيء هو أن تسري فيه (وإن شئت تزداد سرياناً فيه) روح القوة لا روح الضعف؛ وروح الابتكار لا روح التقليد، وروح البساطة لا روح التكلف، وروح الحماسة لا روح الفتور، وروح الصدق والإخلاص والصراحة لا روح الكذب والتلون والرياء، وروح النقد النزيه لا روح النقد المتهوس الغاشم، وروح الأمل والرجاء لا روح اليأس والقنوط!

وأخيراً، وأريد أن أقول (أولاً وأخيراً): يحتاج الأدب في نهوضه هذا إلى أن يكون له طابعه الخاص، وتكون له شخصيته المتفردة المستقلة، المكونة من ذلك الثالوث المقدس، والمشتقة عناصره من تلك الأقاليم التي بالنسبة إلينا كل شيء... تلك الأقاليم التي لا غنى لنا عنها كلمة عربية مسلمة بأية حال من الأحوال، تلك الأقاليم التي لست في حاجة لأن أقول إنها (ديننا الإسلامي الخالد) و (قوميتنا العربية الكبرى) و (تاريخنا الذهبي) الحافلة صفحاته البيضاء، بكل ما يغذي في نفسية المسلم العربي عزته القعساء، وطموحه إلى العلياء.

والآن وأنا أشعر باسترسال القلم في الكتابة، والآن وأنا أرى أني قد تجاوزت ما هو مخصص لمقالي من مكان في هذا العدد الخاص، فليكن هذا ختام الموضوع، ومعذرة في هذا التجاوز الذي لم يكن عنه محيص إلى صوت الحجاز الغراء.

وشكراً أيضاً، ودعوات حارة مخلصة لها في استمرار تقدمها، وإطراد نجاحها.

الإسلام والمبادئ المستوردة

جانب الأمريكيتين

ما أكثر ما يعانيه اليوم عالم الإسلام، من مشاكل ومعضلات.

ومن هذه المشاكل والمعضلات.. أو في طليعتها على الأصح:

هذا الداء العضال المستحكم: داء الإعجاب بالغرب.. وبكل ما هو غربي:

نعم.. الإعجاب بكل ما هو غربي.. وسواء أكان لازماً لنا أم غير لازم.. مفيداً أم غير مفيد؟

وما أكثر ما قيل تنديداً بهذا الترامي في أحضان الغرب.. بأنه يخرج عن كونه.

"عبودية فكرية."

أجل.. إنها عبودية فكر.. عبودية هؤلاء المدلهين بالغرب.. وبكل ما يفد إلينا من الغرب.. من مبادئ ومذاهب، وفلسفات ونظريات!

لقد كنا نشكو بالأمس من غلبة نفوذ الاستعمار، منذ أن هاجم الاستعمار أكثر ديار الإسلام غير أنه بالرغم من اندحار جحافل الاستعمار في أكثر ديار الإسلام..

فما يزال نفوذ الغرب هو هو حيث كان.. فكأنما الاستعمار لم يندحر.. وكأنما النصر الذي أحرزته الحركات التحررية هنالك.. مجرد سراب؟

وإلاّ.. فما منشأ عبودية الفكر هذه؟

أليس هو الاستعمار؟

أليس هو استعمار الأفكار؟

أليس هو استعمار العقول؟

إننا بكل تأكيد نقولها هنا: لو أن المشكلة.. مشكلة هذه العبودية الفكرية؟

لم تكن تمس حياتنا كشعوب إسلامية.. لما كان الأمر بالنسبة إليها مدعاة لأي اهتمام؟

ولكنها في الواقع المر.. تمسنا في الصميم؟

لأن أساس المشكلة.. هو أن المعجبين بالغرب، قد أفنوا ذواتهم فيه... فهم لا يريدون لشعوبهم أن تعيش إلاّ في الإطار الغربي...

في الإطار الغربي كافة.. لا في ميادينه الحضارية البحتة فحسب...

الغرب.. وليس سوى الغرب؟

والغرب كما نعرف هنا.. يشمل أوروبا بقسميها الشرقي والغربي.. إلى أمام هذه الظاهرة العجيبة حقاً.. ما أجمل أن نرى بين حين وآخر كتاباً وباحثين يضعون لنا الكتب لتحليل هذه الظاهرة.. -أو بعبارة أدق- للرد على هذا التقليد الطاغي المستشري... وعلى دعاته المنتشرين في أكثر من مكان؟

ولقد كان الكتاب الذي وضعه الكاتب العالم المعروف الأستاذ "عبد المنعم النمر" وأسماه: "الإسلام والمبادئ المستوردة".. من خير هذه الكتب الهادفة الإسلامية أو أمثال الكتب، ما أكثر حاجتنا إليها الآن؟

إنها وحدها التي ترسل الضوء وتضع النقاط على الحروف؟

والأستاذ النمر في إخراجه لكتابه القيّم، في هذا الوقت بالذات.. لا شك أنه وفق كل التوفيق؟

بل إنا لنقرأ الكتاب.. فنلحظ من الصفحة الأولى فيه شعور الكاتب العميق بمجيئي كتابه هذا في وقته المناسب.. في الوقت الذي اشتد فيه أوار المعركة.. أو كما يقول هو في تقديمه للكتاب:

"في معركة تدعم الشخصية، التي نخوضها الآن بكل الأسلحة، وفي محاولة الاكتفاء الذاتي: الذي نحاول في صبر وتضحية أن نقيم عليه بناء نهضتنا الفتية."

"فالمساواة التي يتحدث عنها دعاة البحث الرصين سواء وهو يناقش هذه المذاهب الدخيلة المستوردة أو حين يتحدث عن مزايا الإسلام وتشريعاته النبيلة في مختلف ميادين الإصلاح الاجتماعي، والعدالة الاجتماعية"؟

فلا غرو -إذن- أن نراه وهو يناقش فكرة الانحراف من حيث هي.. أن يتحدث إلينا أول ما يتحدث عن الشيوعية..

إنه يتحدث إلينا عنها حديث الناقد المتتبع.. بل ويشخصها كما يشخص الطبيب المرض.. فإذا هو يرينا حقيقتها البشعة كما هي.. بل أكثر من ذلك.. إنه لا يقف عند تشخيصها كما هي اليوم.. إنما يحرص على أن يعود بقارئيه إلى التاريخ البعيد.. ليكشف عن الجذور الأولى لهذه

الشيوعية في عهودها المتناهية في القدم سواء في بلاد الإغريق عندما ظهر فيها "أبيقور" فيلسوف البوهيمية المعروف.. أو في دولة فارس عندما ظهرت فيها المزدكية..

وليس أشد تحدياً، من تحدي الشيوعية للدين الإسلامي، وليس أشنع ظلماً من ظلم الشيوعية للمسلمين؟

إنها الحقيقة التي يعرفها كل مسلم، يعيش في هذا الأوان؟

لذلك.. لن ندهش عندما نقرأ في هذا الكتاب في الفصل الذي عنوانه:

"الشيوعية والمسلمون": كيف تعامل الشيوعية كل من يعيشون في حكمها من ملايين المسلمين؟

يكفي القول هنا: إنه الإرهاب.. ثم محاربة الدين بأقسى الأساليب.. ذلك ما تصنعه الشيوعية؟ ولكن أيمكن للشيوعية؟ أو لغير الشيوعية، أن تنال من الدين الإسلامي مثالاً؟

إن هذا هو المستحيل؟

لأن الدين –وهنا ننقل فقرات المؤلف بنصها– "الدين أمر طبيعي في النفوس، ومهما بالغ الشيوعيون في حربه وانتزاعه من النفوس كما ينتزعون الأملاك من ملاكها.. فسترجع النفوس إلى طبيعتها الأولى في يوم من الأيام...

وإذا كانوا يتبجحون ويعلنون أن العلم يعارض الدين ويحاربه، وأنهم يسلطون على الدين سلاح العلم، فقد حفظوا شيئاً وغابت عنهم أشياء.. وقد وهموا وخدعوا أنفسهم وحاولوا خداع الناس، فالعلم الصحيح لا يمكن بحال من الأحوال أن يكون معارضاً للإسلام، لأن يعتز بالعقل وبالعلم وكل تفكير صحيح يتلاقى في نهايته مع الإسلام ويعترف بوجود الخالق المبدع. والمفكرون الذين أعلنوا تمردهم على الخالق قد اغتروا بالمظاهر، ووقفوا عندها، ولم يستطيعوا أن ينفذوا إلى ما وراءها."..

وما أكثر ما ضلل الشيوعيون الناس.. وما أكثر ما تشدقوا بنظامهم الاجتماعي؟ وما أكثر ما رددوا كلمة مساواة؟

فلنسمع إلى ما يرد به المؤلف الفاضل على هذا التضليل في فصل عنوانه "الشيوعية والمساواة" يقول:

"إن دعاة الشـــيوعية.. يغرون الناس بأنها تعمل على المســـاواة بين الناس، ورفع مســـتوى معيشتهم، وهي خرافة يضللون بها السذج."

"فقد وجدناهم يتراجعون سـريعاً، أمام ما سموه مسـاواة.. حين وجدوا أن المسـاواة بين العامل الخامل.. والعامل المجد نتج عنها كساد في الإنتاج الخ."

ويواصــل حديثه... إلى أن يقول: الشـــيوعية، ويغرون بها البســـطاء صــارت خرافة في نفس المجتمع: طبقات متقاربة حسب دخل كل فرد فيه."..

.."فلا عجب أن تتحطم فكرة الشيوعية في المساواة التامة.. لأنها تناقض طبيعة الحياة..

والمؤلف لا يفوتـه أن ينحى باللائمـة على بعض مســـلمين أغرار يظنون أن لا خطر على عقيدتهم وإســلامهم عندما يعتنقون هذا الانحراف على وهم منهم خاطئين فيه مخدوعين.. من أنه يمكن أن يكون الإنســان مســلماً ومعتنقاً لهذه المبادئ في وقت واحد.. فيقول –وما أصــدق ما يقول: إن هذا كذب وتضــليل، لأن الشـــيوعية فكرة تشــبه أن تكون ديناً عند أهلها.. وأول ما تقوم عليه إنكار الألوهية وإنكار الرسالات واليوم الآخر تبعاً لإنكارهم الألوهية."

.."فكيف يجتمع الإيمان بالله مع الكفر به، والإيمان برسله واليوم الآخر مع الكفر بهما؟."

والذين يقولون بإمكان الجمع بينهما إنما ..يُخَادِعُونَ اللّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَـهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ، فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ، وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ، أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ (البقرة: 9–12).

ذلك هو تحليل المؤلف لفكرة المسـاواة المزعومة في دنيا الشـيوعية العاتية إلى جانب ما عرفها به الناس من أقدم عصورها من إنكارها للدين؟

ثم يعود فيتساءل في مرارة وفي ألم:

"من ذا الذي يجازف بأغلى شـــيء وأقدســه، وهو العقيدة الكبرى والإيمان بالله، وينحدر إلى الكفر والإلحاد والجحود، ولأي شيء يفعل ذلك، وما هو الثمن"؟

"لو كان يطلب الدنيا، والحياة فيها شــريفة كريمة عزيزة، فالإســلام بنظمه وتشــريعاته ومبادئه يوفرها له."

"وإن كان يريد مع ذلك حياة في الآخرة سـعيدة هنيئة في جنة الله متمتعاً برضـاه فطريق الإسلام يوصلها."...

وتلك حقائق ليس للشك إليها من سبيل.. ولو أننا موقنون بأن تلك الشـراذم من الأغرار والمخدوعين وهم الذين يعنيهم فضـيلته في تسـاؤله هذا.. قد لا يرقى تفكيرهم إلى مثل هذا المستوى من الفهم: وإدراك الحقائق..

ثم يتساءل مؤلف كتاب "الإسلام والمبادئ المستوردة": هل في الإسلام من النظم والمبادئ، ورحابة الصدر ما يكفل قيام مجتمع متكافل قوي.. يسير نحو التقدم العلمي والصناعي، كما نراه في أوروبا مثلاً.. حتى يمكن الاستغناء بهذه النظم عن الاستيراد من الخارج؟!

فتراه وهو يحاول أن يجيب عن هذا السؤال في وضوح.. يحرص على أن يسهب لنا في حديثه عن موقف الإسـلام من العلم.. وموقفه من العمل.. وعن نظرته إلى التكافل.. وإلى الضـمان الاجتماعي كما يطلقون عليه هذا الاسم في عصرنا الحديث هذا.

بل نجد مؤلفنا النابه لا يغفل أية ناحية تتصـل بهذا الموضـوع، إذ يحدثنا كذلك عن موقف الإسلام.. أو عن نظرته إلى الحرية والإخاء والمساواة..

فأما عن العلم فإن القرآن والحديث مشحونان بالنصوص التي ترفع من قيمة العلم ومن شأن العقل، وتدفعه دفعاً لأن يتحرك ويتدبر.. وتعيب عليه الجحود والجمود.

لقد جاءت الآيات برفع درجات العلماء الذين يسـتعملون عقولهم في الوصـول إلى ما أودعه الله في كونه وشرائعه من جعل منزلتهم أعلى من منازل الجهال والجامدين.

هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ (الزمر: **9**).

قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ (يونس: **101**).

وفي الأحاديث النبوية –إلى جانب آيات القرآن الكريم– ما يشـهد بأن الإسـلام لا يفتح ذراعيه للعلم فقط.. بل يدفع الناس إليه دفعاً..

أما عن موقف المسلمين أنفسهم من العلم فلا نحسب أننا هنا في حاجة إلى أي إشادة أو تنويه.. وإن كنا نرى المؤلف الكريم يفيض القول في ذلك، ويكثر من الاستشهاد بأقوال خصوم الإسـلام من الأوروبيين ممن شـهدوا للمسـلمين بمقدار ما أبدوه من عنايتهم بالعلم وتكريمهم للعلماء..

وفي ميدان العمل.. نجد الإسلام يحارب هذه النزعة: نزعة الرهبانية في المسلمين، ويفهمهم أن العمل في أي مجال من مجالات الحياة: عبادة كذلك.. بل إنه إمعاناً منه في محاربة الرهبنة والتبطل، فضل العاملين لكسب العيش، الكادحين للكسب الشريف لهم ولأسرهم ومن حولهم.. فضلهم على المنقطعين للعبادة ليلاً ونهاراً، أولئك الذين يعيشون عالة على غيرهم من العاملين..

لقد كان الرسول –صلى الله عليه وسلم– وهو القائد والمربي الأعظم يعنى بعلاج هذه الظاهرة.. ظاهرة الرهبنة.. حتى يجتثها من المجتمع الإسلامي..

والرسول عليه الصلاة والسلام هو الذي يقول :ما من إنسان يغرس غرساً أو يزرع زرعاً، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلاّ كان له به صدقة.

ويقول :إن من الذنوب ذنوباً لا يكفرها إلاّ السعي على الرزق.

والإسلام حين يأمر المسلمين بالعمل والكسب يأمرهم كذلك بتجويد عملهم وإتقانه والإخلاص فيه.. فيقول الرسول صلى الله عليه وسلم :إن الله يحب من العبد إذا عمل عملاً أن يتقنه .حتى في مباشرة ذبح الحيوان.. وحتى طريقة أخذ القصاص من المعتدي.

فهل يمكن بعد هذا أن يقال: إن الإسلام يقعد بأتباعه عن العمل والنهوض؟

أو أنه مسؤول عما فيه المسلمون الآن من تأخر وقعود؟!

وحين يعنى الإسلام كل هذه العناية بالعمل لا يهمل من يصابون بسوء الحظ في حياتهم العملية فلا يكسبون ما يضمن لهم معيشتهم، أو لا يستطيعون العمل لمرض أو شيخوخة أو عاهة.. بل يأخذ بيدهم، ويوصي المجتمع بكفالتهم، وتوفير الحياة الكريمة لهم وبذلك يظهر المجتمع الإسلامي كالبنيان المرصوص المتين، يشد بعضه بعضاً.. ويبدو كالجسم الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر..

لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ (البقرة: 177).

آمِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ (الحديد: 7).

ومن أقوال الرسول الكريم :ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم به.

مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْـلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا ظَهْرَ لَهُ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْـلٌ مِنْ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ.

وَأَيُّمَا أَهْلِ عَرْصَةٍ أَصْبَحَ فِيهِمُ امْرُؤٌ جَائِعٌ فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُمْ ذِمَّةُ اللَّهِ تبارك وتعالى.

نعم هذا هو الإســـلام.. وهذه هي نظرته إلى البر.. وهذه هي نظرته إلى التكافل.. ففي أي مذهب من هذه المذاهب المستوردة يمكننا أن نتحسس هذه الروح النبيلة، والعاطفة الإنسانية؟

نعم هذا هو الإسلام.. ولست أتردد في القول إن لمؤلفنا الفاضل كل الحق وهو يتحدث إلينا في هذا الصدد.. أن يقول:

.."لو كان للمسـلمين ثقة بنفوسـهم، واعتزاز بدينهم، لفاخروا العالم بهذا بدل أن ينقادوا من أنوفهم للمدنية الغربية ودعاتها.. ويهاجموا الإسلام من هذه الناحية.

"ولو أن الغرب هو الذي شرع هذا المبدأ.. لعده من أولى مفاخره."

خواطر سانحة

حول الإصلاح

أمل كبير يساور النفوس، ورجاء عظيم يختلج في الأفئدة، وثقة كبرى يشعر بها الحجازيون اليوم.

ذلك الأمل الكبير، وذلك الرجاء العظيم؛ هما ليس غير –في الإصلاح وتلك الثقة الكبرى هي في شيء واحد لا سواه، وهو العمل، العمل الجدي الحازم في سبيل الإصلاح.

لا يوجد قطر من أقطار الأرض، ولا توجد أمة من أمم المسكونة في فقر وعوز شديدين إلى إصلاح الأحوال وتنظيم الشؤون وإلى البناء والتشييد وإلى تأسيس دائم المستقبل القريب والبعيد، أقول لا يوجد قطر اليوم ولا توجد أمة أشد احتياجاً إلى كل ذلك من هذه الأقطار الحجازية، وهذه الأمة العربية الإسلامية.

أجل، لقد فهمت الأمم جميعاً وقطعت المراحل العديدة في سبيل الحياة والتقدم. سارت الشعوب سيرها الذي نسمع عنه، ومشت خطوات واسعات في طريق الحضارة والارتقاء، والحجاز الحجاز الذي هو قبلة البلدان، الحجاز الجدير بأن يكون على الدوام في طليعة الشعوب نهوضاً وحياة.

هذا الحجاز الذي أقول عنه مع الأسف الشديد، قد بقي بمعزل عن كل شيء، بقي وحيداً منزوياً، بقي ساكناً لا يتحرك، بقي نائماً لا يستيقظ. بقي في حالته السقيمة التي خلفتها له الأجيال الماضية القريبة لا البعيدة تلك الحال المحزنة المؤلمة التي تشمئز منها كل نفس حية ذات غيرة وإباء.

الناس يسيرون إلى الأمام يعملون ويجدون ويكدحون ثم هم يرتقون ويتقدمون وينالون ثمرات سعيهم، والحجاز يسير وأأسفاه، إلى الوراء إلى الوراء. ليس هناك عمل وليس هناك سعي وليس هنالك بذل مجهود في سبيل الإصلاح الوطني.

يا قوم لقد تأخرتم وأيم الله، وتأخرنا عن كل الأمم والشعوب. تأخرنا عنها ليس بمرحلة ولا بقرن ولا بجيل وإنما كان هذا التأخر المزري بمراحل وقرون وأجيال.

يا قوم لقد بقينا وحدنا، نعم وحدنا، لا بين هذا الطمر البالي، لباس الخمول والجمود، لباس النوم العميق، لباس التقاعد عن شريف الأعمال وعن جليل المساعي، فهل نحن بهذا جديرون؟ أين الغيرة الوطنية أين الشهامة العربية، أين الإخلاص، أين الإباء؟

هذه البلاد أصبح فيها الجهل مستحكماً وبات الفقر ضارباً أطنابه، فأين العمل العمل، العمل لإزالة هذين الداءين العضالين اللذين يفتكان في عضدنا وينخران في جسمنا وهما الجهل والفقر. أين المدارس نكثر من إنشائها على اختلاف أنواعها، وندخل في نظم التعليم وبرامجه ما يقتضيه الحال من تحسين، فنقوم إذ ذاك بأكبر عمل خالد وأعظم خدمة وطنية؟ وأين المشاريع العمرانية وما يتبع ذلك من الأمور الداعية لنشر الصناعة وترويج التجارة؟ أين الشركات ونقابات التعاون نعمل لتأسيسها ونسعى لإشادتها فتقضي بذلك حقاً على داء الفقر المستحكم وننهض نهضة اقتصادية؟

أين الإصلاح الذي أصبحت الآمال معقودة عليه اليوم والذي بات كل ما تصبو إليه النفوس من أماني؟

هذا الإصلاح نقوم بأكبر قسط منه إذا عملنا بهمة وإخلاص في سبيل القضاء العاجل على داءي الجهل والفقر.

لقد أصبح الشأن اليوم غيره بالأمس. ولقد بادت حقاً تلك الظروف العصبية القاسية، حيث كانت الحرية محجوراً عليها وحيث كان مجال الإصلاح ضيقاً أستغفر الله بل غير موجود بالكلية.

فالآن، وقد أصبح فينا شيء من الحزم وحسن القصد ونيل الغاية، هل يدب فينا عرق الحياة؟ هل تتحرك في نفوسنا إحساسات الغيرة والشمم؟ هل نشعر بمقدار ما حلَّ بنا من تأخر وضآلة بالنسبة لسوانا فننهض حالاً ونؤدي ما علينا من واجب محتم مفروض لهذا الوطن؟ لا ريب في أن أكبر واجب علينا هو هذا النهوض العام ولا جدال في أن أحسن فرصة سعيدة تسهل لنا العمل من أجل بلادنا العزيزة وفي سبيل رقيها وعمرانها، إنما هي هذه الفرصة السانحة، فمجال الحرية والصراحة مع الإخلاص قد أصبح ذا سعة أمامنا.

ألا فلنعمل يا قوم ولنقلع عن خطتنا المألوفة في الحياة، لنقدم ولنسر وليكن السعي المتواصل شعارنا؟

في حفل تكريم خير الدين الزركلي [37]

أيها السادة:

الإعجاب بالعظماء من الرجال والإشـادة بذكرهم إنما هو من أهم المواضـيع التي شـغلت في الماضي وتشغل اليوم، وسوف تشغل على الدوام مواضيع الأدب والتاريخ. ولعمري ليس هذا من الأمور الكمالية وليس هو من الأشـياء الثانوية وليس هو مما يدخل في باب القشـور كلا ثم كلا أيها السـادة، كلا هو من الأمور الجوهرية إذا ما جاء ذكر الأدب وتحدث المتحدثون عن التاريخ. هو من الأشـياء الطبيعية حينما يسـتعرض المتأمل أخلاق الأمم والشـعوب، ليس الإعجاب بالعظماء إلاّ تقديراً لمواهبهم واعترافاً بنبوغهم وليسـت الإشـادة بأعمالهم إلاّ وصـفاً لحياتهم ووصـفاً لما قاموا به من أعمال، وهذه هي مهمة التاريخ والأدب معاً، وهذا هو ما ترمي إليه الغايتان التاريخية والأدبية، أذكر هنا –على ذكر التاريخ– كلمة للمؤرخ الإنكليزي المعروف "كارلايل". يقول هذا المؤرخ المبدع "ليس تاريخ الإنسانية إلاّ تاريخ عظمائها."

أجل أيها السـادة في تاريخ العظماء يدرس القارئ حياة الأمم، وعدا هذا فإن في تاريخ العظماء مجالاً فسيحاً للعبرة وللدرس، مجالاً فسيحاً يخرج منه الناظر وقد امتلأ قلبه حباً للعظمة، حبًّا للعمل، حبًّا للجد والاجتهاد، حبًّا للصـبر والعزيمة والثبات، حبًّا للوطن والإنسـانية، وحبًّا للسعي في سبيل سعادتهما.

أيها السادة، نحن الليلة مجتمعون ولكن لماذا؟

مجتمعون أي سـادتي لتكريم رجل من خيرة رجالات العرب، لتكريم شـخصـية من شـخصـياتنا البارزة. مجتمعون لتكريم شـاعر سـوريا بل شـاعر العرب الكبير الأسـتاذ الزركلي. مجتمعون للقيام

---

(37) - المصدر :ألقاها نيابة عنه محمد عناني بمكة المكرمة في 1348/8/19هـ .

بالواجب العظيم نحو هذا الرجل الذي له في ميدان الأدب وفي السياسة وفي ميدان له في الفكر كل هذه الميادين، تلك المنزلة الرفيعة الممتازة.

قلت إن للأستاذ الزركلي منزلة ممتازة رفيعة في السياسة والأدب والفكر. وفي كل ميدان من هذه الميادين ضياء من أضواء العظمة ينير للأمم سبيلاً من سبل الحياة، في كل ميدان من هذه الميادين يدعو داعي الواجب في الأمم إلى القيام لتكريم الرجل الذي ترى له مكانه في أحد هذه الميادين، إذاً فنحن باحتفالنا بالأستاذ الزركلي الليلة. إنما نعبِّر عن فكرة، نعبِّر عن اعترافنا بنبوغه كسياسي وكأديب عظيم، ونعبِّر عن تقديرنا لهذه المكانة الممتازة التي حازها بين رجالات العرب عن جدارة واستحقاق.

ولكن أيها السادة...

ولكن ليس هذا كل ما يجب أن أقوله ونحن نحتفل بالأستاذ الزركلي فهناك شيء آخر! هناك صفة عظيمة من صفات الزركلي –وكل صفاته عظيمة– هناك المبدأ أيها السادة ومن ذا الذي لا يعرف لشاعر سوريا والعرب وطنيته المخلصة، من ذا الذي لا يعترف له بهيامه العظيم بوطنه سوريا بل هيامه العظيم بالوطن العربي الأكبر والجامعة العربية الكبرى.

الوطنية والإخلاص والثبات صفات بارزة للسيد خير الدين الذي نحتفل به الليلة فكم عانى من ضروب الإرهاقات والمصاعب في سبيل سوريا وكم لاقى من ألوان الاضطهاد وما ترتاع له النفوس وتهلع من هوله القلوب.

كل ذلك وقف أمامه خير الدين وقفة بطل شجاع، ثبت خير الدين كما يثبت الطود الشامخ أمام العواصف الهوجاء وكان كما قال:

> **لم نعد بعد ما لقينا نبالي**
>
> **بسهام رما العدا أم نبال**

أيها السادة: إذا كان إعجابنا بالزركلي أديباً وسياسياً هو إعجاب صميم صادر عن إحساس بما له من أثر خالد في كل من هذين الميدانين... وإذا كان إعجابنا بالزركلي مفكر من رجالات الفكر المعدودين في العالم العربي إعجاباً مستمداً من عقيدة وشعور فإن إعجابنا به وطنياً مخلصاً ثابتاً على مبدأه هو إعجاب عظيم يسـمو فوق كل إعجاب ويرتفع ثم يرتفع ثم يرتفع عن أي ميدان من ميادين التعبير.

كلمة الأستاذ محمد سعيد عبد الرحمن العامودي[38]

يا شباب الأمة العربية:

في موقفي هذا أمامكم –أتذكر تلك الساعة السعيدة، تلك الساعة السعيدة حقاً. تلك الساعة التي تلقيت فيها –في عداد من تلقى– نبأ اعتزام فريق من إخواننا شباب العراق الناهضين. فريق من صفوة أبنائه وكشّافته أن يزوروا هذه البلاد الحجازية النجدية... ولتسمحوا لي يا سادتي الآن أن أترك التخصيص. لتسمحوا لي أن أقول (شباب العرب) بدلاً من شباب العراق أجل اسمحوا لي يا بني قومي أن أتحدث بلغة الفؤاد وأن أعبِّر عن هاجسات النفس وعن وحي الضمير وأن أتكلم بملئَي الحرية والبساطة والانطلاق، ولنضرب صفحاً في تحادثنا وتناجينا عن كل ما تواضع عليه الناس من مراسيم ودبلوماسيات، ولنلق وراءنا ظهرياً تلك الاصطلاحات الجغرافية وتلك التعاريف الإقليمية المحدودة لنترك أسماء (العراق –نجد –الحجاز) لنترك كل هذه الأسماء محتفظين بها كألفاظ لها معانيها الخاصة واعتباراتها المكانية لا أقل ولا أكثر. ولنهتم، أي والله ليكن اهتمامنا وليكن اتجاهنا جميعاً نحو ذلك الاسم المعجب المطرب نحو ذلك الاسم الموسيقي المحبوب نحو ذلك الاسم الأوحد المجيد الذي فيه كل معاني الحيوية، وفيه كل معاني القوة وفيه كل معاني الحقيقة، وفيه كل معاني الجمال، ذلك الاسم العزيز المشتق من كل العناصر والمقوِّمات والمكوّن صرحه الباسق من كل الأسس والدعائم التي تشاد عليها وحدها صروح القوميات الباسقة.

أي بني قومي: ليكن اتجاهنا جميعاً نحو ذلك الاسم العربي العام، ذلك الاسم الخالد الكبير المكوّنة صورته وهيولاه من كل معالم ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا ومن كل مفاخرنا وآلامنا وآمالنا: الدم العربي، والدين العربي، ولغة العرب وثقافة العرب وحضارة العرب –كل هذه معالم

---

[38] - ألقيت في حفل تكريم الكشّافة العراقية بمناسبة زيارتها للحجاز في حج 1353هـ.

التاريخ العربي والخطوط البارزة في صفحاته الذهبية، كلّ هذه عناصر ومقومات ودعائم ذلك البنيان الشامخ بنيان القومية العربية التي لا انفصام لوحدتها المقدسة إن شاء الله.

أجل يا شباب الأمة العربية!! لنهتف للاسم العربي الأكبر ليس إلاّ، ولنهتف للوطن العربي الأكبر ليس إلاّ، ولنهتف للقومية العربية الكبرى ليس إلاّ.

يا سادتي ويا إخواني:

قلت إني أتذكر في موقفي هذا تلك الساعة السعيدة تلك الساعة التي حملت لنا فيها أسلاك البرق نبأ اعتزام إخواننا وأبناء أبينا هؤلاء أن يزوروا هذه البلاد المقدسة، وبعبارة أخرى أن يزوروا قطراً من أقطارهم العربية، أي والله أتذكرها ساعة من أحفل الساعات، أتذكرها ساعة بعثت في أقصى السويداء هزّة مثل هزة الكهرباء. تلك يا سادتي وإخواني هزة السرور لسماع هذه البشرى، تلك يا أعزائي هزة الاغتباط بلقاء نخبة من خيرة الشباب العربي الناهض، تلك يا بني قومي هزة العظمة، هزة الزهو والافتخار هزة الاعتداد بما أصبح للشباب في هذا الجيل من مكانة رفيعة ممتازة ولا فخر! مكانة لم يتوصّل إليها عفواً واعتباطاً وإنما توصَّل إليها وألقى أمام الناس أصدق البراهين على أن توصله إليها إنما كان عن جدارة واستحقاق.

ربما يقول بعض الناس إن هذه أنانية.. فرد من الشباب يتحدث عن مكانة الشباب. أليست هذه أنانية. نعم هي أنانية ولكن... ولكن جوابنا يا سادتي لهؤلاء إنها أنانية ولا ريب ولا جدال ولكنها أنانية من ذلك النوع المحمود، هي أنانية ولكنها من ذلك الصنف اللاّممقوت ولا مذموم، هي أنانية ولكنها ليس فيها تلك العجرفة ولا تلك الكبرياء، ولا ذلك الغرور، هي أنانية ولكنها أنانية متواضعة تحترم نفسها كما تحترم غيرها وتشعر بواجبها كما تشعر بواجب غيرها وتعترف بحقها كما تعترف بحق سواها.

إن تحدث المتحدثون عن أنانية الشباب فقولوا لهم إنها (أنانية شريفة فاضلة محمودة) لأنها أنانية جموعية لا فردية، أنانية دستورها وشعارها ومطمحها نهضة العرب وتآزر العرب وتقدم العرب. وحسبها ذلك شرفاً ونبلاً، وكفاها ذلك سمواً وفخاراً.

إليكم سادتي وأعزائي بهذه المناسبة وعلى ذكر الشباب، إليكم مثالاً قريباً، بل مثالاً عالياً نبيلاً يمت بأقوى الأسباب إلى هذا الشيء الذي تحدثت عنه، مثالاً عالياً نبيلاً يمت إلى الكشافة أيضاً بأمتن الصلات بل هو منها لأنها ينبوعه ومصدره كما سترون.

هذا المثال هو كلمة نبيلة سامية ألقاها في العام الماضي في إحدى العواصم الأوروبية (اللّورد بادن باول) ذلك الكشاف العظيم الذي يعرفه هؤلاء الأعزاء المكرمون، ألقى ذلك اللورد كلمته هذه على نحو عشرين ألفاً من الكشافة الذين اجتمعوا في تلك العاصمة من الممالك كافة بمناسبة الاستعراض الدولي للكشفية فقال لهم:

"إن الغرض الأكبر من هذا الحشد العظيم هو "خَلق" روابط للصداقة بين الأمم ونشر ألوية السلام على هذه الأرض التي لا تفتأ تزلزلها الحروب والعدوات وإن على كل كشاف أن لا يدع يوماً ينقضي من غير أن يستفيد أصدقاء جديدين."

إيه أيها الشباب الناهض الطامح!! هذا هو المثل العالي للأخلاق، هذا هو الأنموذج البديع للفضيلة، هذا هو أحد الأغراض العظيمة وقد يكون هذا هو الغرض الأكبر لجنود الكشافة البواسل: خلق روابط للصداقة بين الأمم ونشر ألوية السلام على هذه الأرض وسعي كل كشاف دوماً في اكتساب صداقات جديدة وأصدقاء –جديدين– ألا ما أسماها من غاية، ألا ما أنبله من نظام، ألا ما أجملها من حياة. ذلك لعمري منتهى السعادة –السعادة التي طالما بحث عنها الفلاسفة والمفكرون في قديم الزمان وحديثه، وما كانوا في كل أبحاثهم حولها إلاّ أصحاب نظريات وخياليَّات، وما كانوا إلاّ بعيدين كل البعد عن ميدان الحقيقة العملية والأمر الواقع.

أما الكشافة فإنها بما استحدثته من نظام يجتذب إليه النفوس، قد حققت في الميدان العملي ما كان يعتبر في ماضيات الأيام حلماً من الأحلام وخيالاً من الخيالات.

وأنعم بنظام –كما قال أحد مشاهير الكتّاب– يعد الشباب لمطالب الحياة ويجعلهم أهلاً للاضطلاع بأعبائها ويبث في نفوسهم روح الرجولة الصحيحة وينمّي فيهم القدرة على المقاومة ويطهّر قلوبهم ويدرِّبهم على التآخي والتآزر ويخلق منهم جيشاً للسلم لا يحجم مع ذلك إذا دعا داعي الوطن أن ينفر للحرب والقتال.

إيه يا شباب العرب!! ذلك أنموذج من نماذج كثيرة شتى، تلك ناحية من نواحي عديدة كبرى ما فتئ الشباب يملئونها بمنتوج نشاطهم وجدهم وتحمّسهم وإذا ذكرنا بملء الفخر والإعجاب جنود الكشافة المغاوير فإنما هم نخبة الشباب اليوم في العالم المتمدن من أقصاه إلى أقصاه وما أعمالهم ومساعيهم ومجهوداتهم إلاّ العناوين الأولى لأعمال ومساعي ومجهودات سائر الشباب.

وأنتم أبناء الرافدين، أنتم يا زهرة شباب العرب، أنتم يا سلالة عدنان وقحطان، أنتم يا رجال الكشافة الصناديد أنتم يا من نحتفل في يومنا هذا بتكريمهم، ونعتبر أنفسنا أسعد ما نكون بهذا الاجتماع، لقد برهنتم بزيارتكم لبلادكم هذه رغماً عما تقتضيه أمثال هذه الزيارات من ضروب التكاليف والمشقات، لقد برهنتم على حرص عظيم وتعلّق شديد وحب أكيد نحو أوطانكم العربية المتباعدة، فحيا الله هذه العروبة الصميمة، وحيا الله هذا الإخلاص الطاهر، وحيا الله هذه الروح القومية العالية.

–إيه يا زهرة شباب العرب! إننا إذ نحييكم ونحتفل بكم اليوم فإنما نحيي في أشخاصكم الكريمة تلك المثل العليا للإخلاص والغيرة والنبل وتلك الرموز الحية للرجولة والنشاط والتحمُّس.

وختاماً لنهتف قائلين:

لتحيا الأمة العربية العظيمة.

وليحيا الشعب العراقي الكريم.

وليحيا الشعب العربي السعودي.

وليعش الشــعبان الشــقيقان في تضــامن ووئام تحت ظل عاهليهما العظيمين المؤيدين جلالة الملك (عبد العزيز) وجلالة الملك (غازي).

فهرس المحتويات

[تمت بحمد الله تبارك وتعالى]



محمد سعيد العامودي